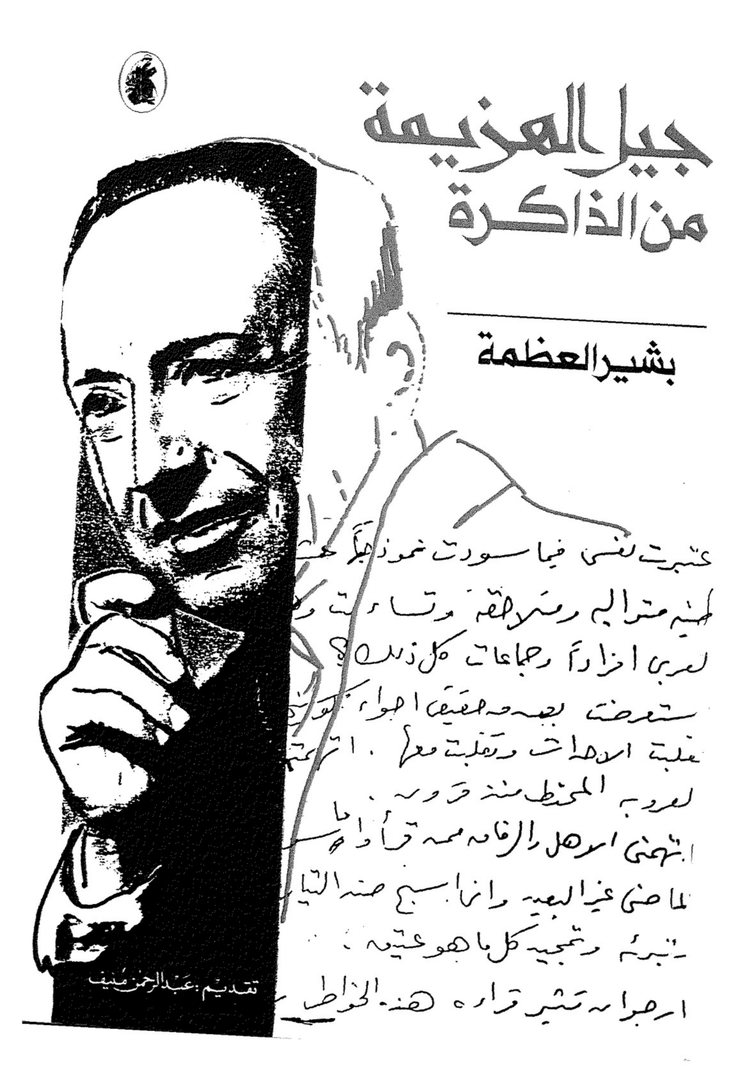

جيل الهزيمة
من الذاكرة
بشير العظمة
تقديم: عبد الرحمن منيف

يكتب من الذاكرة عن طفولة في عائلة من الطبقة الوسطى أفرادها عشيرة غير مترابطة ومع ذلك تجمعهم خيالات أمجاد الجد البعيد (باشا) هزم في صراع على السلطة بين فصائل الانكشارية وترك للأحفاد جميعاً لقب (البكوية).

السلطة الغاشمة الهرمية لا ترحم أهل القاع ويقضي امتدادها التاريخي تحنيط العلاقات وثبات الأفكار وتكرار نسخ الأجيال على صورة الآباء عن الجدود.

بالصدفة أصبح بشير العظمة طبيباً وكذلك وزيراً للصحة المركزية في الجمهورية العربية المتحدة، ثم بالصدفة أيضاً كان رئيساً للوزراء في سوريا خلال أشهر من عام ١٩٦٢. وهو يكتب بتصميم وصراحة وقد بلغ الثمانين. في يقينه أنه لن ينتهي مسلسل الظلم والظلام إلاّ بعملية انسلاخ فكرية سلوكية تنهي قناعاتنا وأساليبنا التربوية الثبوتية في خداع الذات.

إهداءات ٢٠٠٣

الأستاذ/ بشير العظم

دمشق

جيل الهزيمة
من الذاكرة

جيل الهزيمة – من الذاكرة / مذكرات
"بشير العظمة"/ مؤلف من سوريا.
الطبعة العربية الثانية ، ١٩٩٨
الطبعة الأولى: رياض الريس للكتب والنشر 1991

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
تلفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع .
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، تلفاكس ٥٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
محمد حميد ®

صورة الغلاف :
فوتوغراف / المؤلف
الصف الضوئي :
المؤسسة العربية ، حكمت مشموشي / بيروت

بشير العظمة

جيل الهزيمة
من الذاكرة



الإهداء

لا يليق هدية برفيقة رحلة الحياة السعيدة، ريمة كردعلي إلاّ اعترافي صادقاً بأنها كانت دائماً وراء الستار ونادراً ما تركتني في ظلالها.

المحتويات

بشير العظمة وتجارب الأيام

عبد الرحمن منيف

(I)

صفة بعض الكتب انها تنطوي بمجرد الوصول الى صفحاتها الأخيرة، إذ تنحدر بسرعة الى العتمة ثم الى الغياب. وهناك كتب غيرها تثير فينا الاهتمام بجدتها ولما تتضمنه من معلومات او تحليلات، ومن شأنها ان تدفعنا الى التأمُّل والمقارنة، أو حتى الاختلاف، لكنها لا تبقى في الذاكرة إلاَّ امداً من الزمن، ثم تبدأ بالتراجع الى ان يأتي ما يذّكر بها من جديد.

وغير هذين النوعين هناك كتب تبدأ حين نفرغ من قراءتها، ثم لا تنتهي بعد ذلك، إذ تظل ملازمة للذاكرة، ومن الصفات الأساسية لهذا النوع انها تجعلنا نرى الأشياء بطريقة جديدة او مختلفة، كما تحرضنا على مداومة التفكير واعادة النظر، لأنها تزعزع فينا قناعات كانت ثابتة، وتدفعنا إلى التساؤل والشك.

«جيل الهزيمة» لبشير العظمة من النوع الأخير بين هذه الكتب، او يقترب من ذلك، لأنه يسلبنا الهدوء الرخو الذي كان يسيطر علينا، ويدفعنا الى التساؤل واعادة النظر. اكثر من ذلك يجعلنا اميل الى الخوف والى الغضب معاً، لأنه يفتح اعيننا على الهوة التي نقف عند أطرافها، وقد نسقط فيها اذا بقينا سادرين في ظل الطمأنينية الكاذبة التي تخيم علينا، إذا لم نبادر الى فعل شيء ما.

والكتاب ليس اجتهاداً نظرياً أو قراءة للتاريخ، كما لا يبشر بفكر جديد او مختلف، انه يقع عند التخوم المشتركة للذكريات والسيرة الذاتية والشهادة، وطابعه الأساسي: القراءة الصادقة لحياة ولمرحلة.

لا يمكن ان نطلق على «جيل الهزيمة» صفة المذكرات ونكتفي بذلك، فالعادة ان الذين يكتبون مذكراتهم يحاولون إبراز الأدوار والمراحل والاحداث التي كانوا ابطالها، او لهم دور فيها، وغالباً ما يكون دافعهم للكتابة الاشارة إلى الأهمية التي تميزوا بها، او لتبرير بعض المواقف، والاشادة بالدوافع النبيلة التي كانت وراء هذا الموقف او ذاك من مواقفهم؛ مع التنويه الى ان المنتصرين، هم في العادة الذين يكتبون مذكراتهم، لتبقى ذخيرة للأجيال القادمة!

ورغم ان كتابة المذكرات لم تصبح بعد عادة عربية مألوفة، إذ كثيراً ما تُستنفد الطاقة بالرواية الشفوية التي تتناول اطرافاً من الوقائع والأحداث، باعتبار ان الثقافة الشفوية هي المهيمنة في بلادنا، خاصة وان الكلمة حين تدوّن ترتب مسؤولية ونتائج، يحاول الكثيرون ان يعفوا انفسهم منها، لذلك فإنَّ ما يبقى من الرواية الشفوية قليل، قابل للتحريف، وهكذا تنطمس احداث ووقائع كثيرة، كان يفترض ان تبقى وان تُعرف، بغياب الذين كانت لهم بها علاقة. وبهذه الطريقة يصبح قسم من التاريخ استنتاجاً وتقديراً، وفي بعض الأحيان استنساباً، نظراً لاعتماده على وقائع جزئية ومتباعدة، بسبب غياب الوثيقة او الشهادة.

لا يعني ذلك ان المذكرات ترقى إلى مستوى الوثيقة الكاملة، لكن يمكن ان تكون قرينة، وان تساعد على تعدُّد زوايا الرؤية، وتتيح بالتالي المجال للمقارنة والتدقيق، وصولاً إلى الحقيقة، مما يجعل التاريخ سلسلة متصلة قابلة للقراءة بأقل قدر من الخطأ، كما يجنبنا الاعتماد بشكل كلي على الوثائق الأجنبية، والتي لها دوافعها وطريقتها في قراءة الوقائع التاريخية التي تخص الآخرين.

إن كتابة المذكرات من قبل الذين كان لهم دور، واتاحة الفرصة

للآخرين للرد والتصحيح والاضافة، يجعل كاتب المذكرات اكثر حرصاً على تدقيق الوقائع قبل تسجيلها، ويجعل الذين لهم علاقة قادرين على الرد وقول كلمتهم، ويترك بعدئذ للتاريخ ان يحاكم وان يحكم بأقل قدر من الخطأ.

«جيل الهزيمة» وبقدر ما نتعامل مع هذا العمل من زاوية المذكرات، قدّم قراءته لأحداث ولمرحلة، وترك مساحة للإضافة والتعديل، خاصة وان الدكتور العظمة، بعد ان أنجز هذه المهمة، اضاف هنا وهناك فقرات في هذه الطبعة الجديدة، لكي يزيل الالتباس، ويترك للآخرين فرصة التصحيح وابداء وجهات النظر.

لكن قبل ان نتابع في قراءة المذكرات تحسن الاشارة الى ان كاتبها لم يدع لنفسه دوراً كبيراً او خطيراً، وما كان ليدون هذه الصفحات إلاّ نتيجة إلحاح الذين حوله، ولكي يحاكم نفسه وجيله قبل ان يحاكم الآخرين او ان يحكم عليهم، وهذا ما يجعلنا نلتفت الى الجانب الآخر في هذا العمل: السيرة الذاتية.

إذا كان تدوين المذكرات حقلاً صغيراً وجديداً في الكتابة العربية، فإنّ كتابة السيرة الذاتية، خاصة بالنسبة للسياسيين، حالة شديدة الندرة. وحتى الكتابات القليلة التي تطرقت الى هذا الجانب كانت، أغلب الأحيان، خجولة، موارِبة، سريعة، او كأنّها سبب اضافي لنكتشف من خلالها التفوق الذي ميّز هذا السياسي او ذاك، في اطار الانجازات التي حققها!

بمعنى آخر: كثيراً ما يتم تجاوز السيرة الذاتية، او احاطتها بالغموض، وكأنّ سياسيّ بلادنا يعتبرون ذلك جزءاً من الاسرار التي تعزز قوتهم. وفي حالات اخرى، واثناء املاء اطراف من هذه السيرة، فإن عنصر المبالغة حول الذكاء والجرأة والنبوغ المبكر الذي ميّزهم منذ نعومة اظفارهم، كان يرشحهم لأدوار تاريخية ما لبثت ان تحققت فعلاً!

بين هذين الحدين لا نكاد نتبين، من خلال المذكرات، الصورة الحقيقية للبيئة والعوامل التي لعبت دوراً في تكوين الشخص الذي نقرأ مذكراته او سيرته الذاتية، مما يزيد في ضبابية الصورة عنه وعن المرحلة

التاريخية، وبالتالي يبعدنا عن معرفةٍ حقيقية للجذور والدوافع التي ساهمت في هذا التكوين، الأمر الذي يفسح مجالاً واسعاً للتلفيق والاجتهاد او للتشويه.

ان السيرة الذاتية لمن كانت له مساهمة في قضايا السياسة والفكر والأدب والفن، بقدر ما تختص به، وتعنيه بالدرجة الأولى، فإنَّها مرآة يمكن ان نطل من خلالها على مرحلة وبيئة وعوامل ساهمت جميعاً في خلق العناصر والمناخات التي اوصلت الى نتائج معينة، وهذا يساعدنا على فهم أدق وأكمل للظروف التي لعبت دوراً في هذا التكوين، ثم في النتائج.

وقد لا يكون من الخطأ القول ان الثقافة التي تفسح المجال، وتمكِّن من تدوين السيرة الذاتية، تعتبر ثقافة راشدة، لأنها امتلكت حداً من الشجاعة والصدق يؤهلها لمواجهة الحقيقة والتعامل معها دون تهيب، سواء من قبل الذي يدون السيرة، او من قبل الذين يستقبلونها، وصولاً الى المعرفة الحقيقية للواقع والشخص، ولتفسير لماذا اخذت الأمور هذا المسار.

لقد كتب عدد من السياسيين العرب مذكراتهم، ولعل ما يلفت النظر ان الأكثر ديمقراطية من بين هؤلاء السياسيين، هم الذين خصصوا جزءاً من مذكراتهم للسيرة الذاتية، ويرد في هذا المجال: خالد العظم وكامل الجادرجي.

الضلع الثالث الذي يميّز «جيل الهزيمة» وتجدر الاشارة اليه هنا، هو صفة الشهادة، اذ لم يكتف الكاتب بأن يعرض الوقائع التي كان على تماس بها، وانما انطلق منها واعتمدها، ومن غيرها ايضاً، ليقدم خلاصة تجربة الحياة، خاصة حول اسباب التخلف والهزيمة، ويفرد مساحة هامة اعتماداً على المجال الذي اختص به: المجال الصحي، كمؤشّر لقراءة المجتمع ومعرفة علله الحقيقية.

هذه الشهادة، بالاضافة الى كونها نتيجة الخبرة والمعاناة، فإنَّها حصيلة التأمُّل ومداومة النظر، خاصة وهو يستعرض المآسي التي مرت، ويعيد قراءتها المرة بعد الأخرى، في محاولة لتفسير ما حصل. يفعل ذلك بتواضع

جم، وبرغبة ان يشترك معه الآخرون في التفكير، لعل الجهد المشترك يمكّن من الوصول الى بداية الطريق الصحيح.

ولأنها شهادة صادرة عن العقل والقلب معاً، فهي لا تتوخى التعريض او تصفية الحسابات الفردية، كما لا تتوسل التسويات، وتبتعد بنفس المقدار عن الوعظ وادعاء المعرفة الكاملة والنهائية، انها افكار وصيغ املاها الضمير قبل الرحيل، وهذا ما يزيد في مصداقيتها واهميتها.

(II)

من اجل ان نتبين مدى انطباق التمهيد السابق على «جيل الهزيمة» يجدر بنا لفت النظر الى ان القسم الأول من الكتاب، ويستغرق النصف تقريباً اشبه بالسيرة الذاتية.

من خلال هذا المحور نكتشف مدينة دمشق وناسها في النصف الأول من القرن العشرين، الظروف المادية والنفسية التي عاش في ظلها الناس، بمن فيهم الصغار، وأحدهم بشير العظمة، الذي رأى النور عام ١٩١٠. وعبر البيت وساكنيه تتضح لنا العلاقة بين رب الأسرة، وهو الحاكم المطلق، وبين باقي افرادها.

ونكتشف اساليب التربية وطريقة معاملة الأطفال والنساء، ومدى رتابة الحياة اليومية، والخوف الذي يمد ظلاله الثقيلة، خاصة حين تهبط الظلمة وحين يقبل الشتاء. وما يرافق ذلك من مصاعب وبلادة وعزلة. حتى موت الصغار ينظر اليه كرحمة للصغار الذين ماتوا وكشفاعة للكبار!

أمّا الأفراح الصغيرة فإنّها في أغلب الأحيان تتلخص بسماع القصص الخرافية المليئة بالعفاريت والغيلان، والتي ترويها خالة تزور العائلة بين فترة وأخرى. أمّا مغادرة الدار فكانت محرمة على الصغار إلاّ في حالات نادرة، حين يُكلّف الطفل بملء سطل الماء من السبيل القريب، او شراء حاجة من دكاكين الحارة.

يظل الأمر كذلك الى ان يبلغ الطفل سنته السادسة، فيرسل الى

الكُتاب. وفي رحلته الى هذا المكان، خاصة ايام الشتاء، يعاني الكثير من المشقة والخوف، حتى اذا وصل تستقبله العقوبات والقمع. اما الفرح فيتلخص بحفظ آيات او اجزاء من القرآن.

وبعد عودة الصغير الى البيت مرة أخرى، «فلا وجود لأي نوع من التسلية او الطرب، او التخفيف من اجواء التوتر المستمر، سوى تجويد آيات من الذكر الحكيم!».

ان التفاصيل الصغيرة، والتي تتناول جوانب عديدة من الحياة اليومية، تجعلنا نرى هموم المدينة، والقسوة التي تواجه ناسها، اضافة الى طريقة المعاش السائدة، وطبيعة العلاقات، بحيث يصبح بمقدورنا تكوين صورة دقيقة عن تلك المرحلة، الأمر الذي لا نجده في كتابات أخرى بنفس الدقة، وهذا ما يغفل عنه الكثيرون، مفترضين انها معروفة، او لا تستحق التسجيل، علماً بأنَّ الزمن اذا مر تغيب هذه التفاصيل بغياب الناس الذين عاشوها.

ما يعطي لهذه التفاصيل اهمية اضافية او وسائل التعبير السائدة تلك الأيام كانت محدودة، او لم تعن بهذا الجانب. ففي ظل غياب الرواية، ومحدودية اهتمام الصحافة، وعدم وجود اللوحة، وايضاً غياب الشهود، فإنَّ التفاصيل تنطوي لأنها غير مدونة. الأمر الذي سيحرم الأجيال اللاحقة من معرفة الكثير، وقد يكون هذا أحد الأسباب الذي يجعل عدداً من الأعمال الحديثة التي تتصدى لتصوير تلك المرحلة تفتقر الى الدقة في معرفة الحياة اليومية.

بشير العظمة في «جيل الهزيمة» يقدم لنا لوحة دقيقة وغنية عن دمشق بداية القرن ثم بعد ذلك وحتى فترة الخمسينات. فعل ذلك بطريقة اقرب إلى السيرة الذاتية، بالمعنى الذي يجب ان تُكتب بها السيرة: الصراحة، الجرأة، عدم الخضوع للمواضعات الاجتماعية السائدة، ورفض الوقوع تحت تأثير الحنين الزائف لفكرة الماضي. وهذه الطريقة في النظر إلى الأشخاص والأماكن والأشياء جعلته يبدو قاسياً، لكن غير ظالم، ودفعته الى قول الحقيقة بدءاً من نفسه وصولاً إلى الآخرين، وبالتالي الى التعامل مع الماضي

بطريقة نقدية، في محاولة لاكتشاف نقاط الضعف، تمهيداً لمعالجتها، خاصة واننا نتعامل الآن مع زمن مختلف، ومع كمٍ اضافي من المشاكل لم يواجهها جيله.

ولأنه ابتعد عن الوعظ او تقديم الأمثولة، فقد جعل حياته ومشاهداته ثم تجاربه، المرآة التي انعكست عليها الوقائع، خاصة في جانبها المعتم والقاسي. وهكذا بدا حزيناً ومملوءاً بالمرارة، وهو يستعيد تلك المرحلة، إذ يقول: «فإنّي اعري ذاتي في هذه السن المتقدمة، وانبش بصدق عن جذور عيوبي، انها نفثات الصدر لذكريات مطمورة لم تدفن ولم تتحلل وتتبخر، وقد كنت خلال حياتي اتذكرها وأعود اليها في محاسبة الذات ومراجعة النفس».

لقد فعل وهو يستعيد تلك المرحلة ليمكّن الآخرين من الرؤية الواضحة، ولكي يطلّوا على مرحلة تاريخية كاملة. وفي هذا الاستعراض الذي بدأ بالكُتّاب، مروراً بالمدرسة الحكومية، فمكتب عنبر، وصولاً إلى كلية الطب، نتابع نبض الحياة الحقيقية، والوقائع التي حصلت، وطبيعة العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة. واذا كان قد انتقل من الكتاب إلى المراحل اللاحقة، فإنّ طابع القمع، والمواضعات الاجتماعية لم يتغيرا إلاّ من حيث الشكل والكم، فعندما انتقل من الكُتاب الى المدرسة الحكومية، مثلاً، لم يتغير إلاّ «عد العصي بالعربية بدلاً من التركية!».

حتى التسلية البريئة كانت محرّمة او محجوراً عليها، فعندما «اقتنى اثنان من الأعمام فونغرافاً كانا يخفيانه في غرفهما لئلا يسمع أو يرى الوالد، أكبر الأخوة، أدوات الشيطان تلهي عن ذكر الله».

هذا المناخ كان صيغة لما هي عليه الطبقة الوسطى في تلك المرحلة، مع الاشارة ان هذه الطبقة كانت الحامل الحضاري والجسر الذي يشكل امكانية الانتقال والتغيير، والتي أعطت، «. . . ديمقراطية التعليم واكبر شرائح القيادات الفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية» الأمر الذي يجعلنا اكثر ادراكاً للتطورات اللاحقة.

يتمتع المحور الأول في جيل الهزيمة، اي السيرة الذاتية، بأهمية خاصة، لأن الدكتور العظمة لم يدخل الى المعترك السياسي إلاّ في فترة متأخرة، ولأن طريقته في كتابة المحور الثاني، اي المذكرات السياسية، امتداد للمنطق الأول. اي العين المراقبة بصرامة للأحداث، وتسجيلها بدءاً من قيام حكومة فيصل الأوّل في دمشق، مروراً بالثورة السورية عام 1925، فأحداث الثلاثينات فالحرب العالمية الثانية ثم الاستقلال.

اما دراسته للطب خلال 1928-1934، وكيف استطاع ان يقرأ المجتمع اعتماداً على هذا الجانب يجعلنا نشهد صورة قاسية وحزينة للواقع، خاصة حين يجري مقارنة بين فرنسا وسوريا من خلال دورات الاطلاع والمتابعة لمرض السل في فرنسا، اذ يتبين لنا الفرق في النظرة والأسلوب، «ففي فرنسا ادهشتني اجواء النقاش المنساب بين الأساتذة ومساعديهم للحالات الصعبة» اما في سورية فـ «يدخل الاستاذ الكبير الحجم والسطوة (. . .) يُشخّص الحالات فوراً دون ان يمس يد المريض ويكتفي بالنظر الى سحنته» ومن المهنة، اضافة الى استعداد نفسي، اكتسب العظمة اسلوباً في النظر الى البشر والأشياء، وهذا الاسلوب يتسم بالشجاعة والحسم، لأن المرض لا يمكن التصدي له إلاّ بالتعرف عليه اولاً ثم باتباع الطريقة العلمية في المواجهة، دون مواربة او تمويه، اذا اردنا التغلب عليه.

المحور الثاني، المذكرات السياسية:

تتناول مذكرات العظمة السياسية، كمراقب اولاً ثم كمشارك بعد ذلك، عدداً من الموضوعات: هشاشة الحكم الوطني؛ الانقلابات العسكرية؛ تجربة الوحدة بين مصر وسورية؛ واخيراً تجربة الانفصال.

فالحكم الوطني الذي اعقب الانتداب، وكان ثمرة لكفاح طويل، أفرغ الديمقراطية من مضامينها الحقيقية، وأبعد الجماهير عن المشاركة الجدية، الأمر الذي سهّل وعجّل بوقوع الانقلابات العسكرية، التي جاءت بحجة حماية الوطن والدفاع عن كرامته، خاصة وان الحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى عام 1948 عرّت الفئات الحاكمة وكشفت عجزها، كما أظهرت مدى

الجهل بالحركة الصهيونية، التي بدأت بالتخطيط والاستعداد لإقامة دولة، ولخلق حاجز بين مشرق الوطن ومغربه منذ نهاية القرن الماضي، مستغلة مواقعها وتأثيرها في الدوائر الغربية القادرة على صنع القرار، وفرض الصيغ، نظراً لما تملك من قوة وتأثير. في الوقت الذي تعاملت القوى العربية الحاكمة او المسيطرة مع الحركة الصهيونية بكثير من الخفة والاستهتار، وبتواطؤ البعض ايضاً. ولما وقعت الحرب ظهر الفارق بين عقلين واسلوبين في النظرة والتصرف، مما ادّى الى الهزيمة الأولى، والتي كانت فاتحة لهزائم اخرى متلاحقة.

«ان اكبر معهد عالمي للدراسات النفسانية والمتابعة التاريخية الراصدة للمجتمع العربي وتطوراته موجود في تل ابيب تديره الوكالة اليهودية منذ عام 1922. يقابل ذلك على الجانب العربي جهل مطبق وتجاهل متعمد لكل ما يمت للصراع العربي الاسرائيلي بصلات مباشرة او غير مباشرة». نتيجة الاهمال والجهل، اي التخلف، ولأن الحكم الوطني عجز عن مواجهة اول معركة يخوضها، تهيأ المناخ للتغيير، وجاءت الانقلابات العسكرية لتقطع الطريق على التغيير الحقيقي، لأن «الانقلابات في حقيقتها محاولات لاحتواء الغليان بالسلاح او بالشعارات، او تمرير مؤامرات احياناً» وهكذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة، طابعها الحكم الفردي، والغاء مشاركة الجماهير، ورفع الشعارات البرّاقة بعد افراغها من مضامينها، وخلق ضجة تصمّ الآذان بالوعود والكلمات الكبيرة «وخلال فترة يصبح الحاكم الفرد سيداً مطاعاً يتصرف بشؤون البلد ومصيره. ومعزوفات وسائل الاعلام جاهزة بأناشيدها وشعاراتها ومهرجاناتها وحشودها في خداع المتسلطين والمسحوقين معاً».

بعد تجارب الحكم الوطني والانقلابات العسكرية التي توالت على سورية، ونتيجة خوف القوى السياسية من بعضها، ونتيجة عجزها ايضاً، ولأن المناخ العروبي يملأ الشارع الشعبي ويحركه «. . . هكذا اتفقت كلمة الأحزاب والشارع على المطالبة بالوحدة مع مصر للخلاص من المؤامرات والانقلابات والتهديد بالاكتساح».

بقيام الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، يكتسب بشير العظمة، تدريجياً، ملامح سياسية أوضح من قبل، من خلال تكليفه بوزارة الصحة الاتحادية. وهنا تبدأ رؤيته، ثم مواقفه، لتجربة الوحدة.

لقد انقضى على قيام الوحدة ثم انتكاستها زمن طويل، لكننا لم نستطع بعد ان نقرأ هذه التجربة بهدوء وموضوعية، فما زال الشارع العربي منقسماً ازاء ما حصل، ومختلفاً حوله. قسم يعتبر الصيغة نموذجية، خالية من الأخطاء والنواقص، والقوى الاستعمارية وحدها هي التي عملت على اسقاطها، وقد نجحت في ذلك. وقسم آخر من الشارع العربي، بقواه السياسية والفكرية، يرى ان التجربة كان بمقدورها ان تنجح وان تستمر لو ان الديمقراطية سياجها والقوى الحية الفاعلة محتواها وحراسها، لكن غياب الديمقراطية، وسيطرة الأجهزة، والاكتفاء بالشعارات، وقمع القوى التي كان لها مصلحة باستمرارها، أدت الى اضعافها، ثم عزلها، واخيراً سقوطها، ومن داخلها!

ان تجربة الوحدة المصرية السورية جديرة بوقفة طويلة متأنية، خالية من العواطف والنظرة المسبقة، لكي تُقرأ وتُدرس بهدوء وموضوعية، لتتبين نقاط القوة والضعف في هذه التجربة، ولنعرف في النتيجة لماذا سقطت، وكيف يمكن ان نتجنب الأخطاء في مستقبل الأمة، اذا قامت مثل هذه التجارب.

اما اذا تعصبنا لموقف، سلباً أو ايجاباً، وتركنا عواطفنا لتتحكم، فإنَّ من شأن هذا ان يشوش قراءتنا للأحداث، وبالتالي للحقيقة، أي للتاريخ، ولا نكون بذلك خدمنا ما نريد تحقيقه فعلاً. أي ليس من شأن التعصب للوحدة بصيغتها التي كانت ان يعيدها، ولا يمكن ان نعتبر نواقص واخطاء التجربة حكماً باستحالتها مرة أخرة.

لقد ارتبطت الوحدة المصرية السورية بعبد الناصر، هذه الشخصية التاريخية الكبيرة والمؤثرة، والتي لا تزال النظرة او التقييم لها مشحونة بكم غير قليل من العواطف، مما يجعل التعامل معها شائكاً، لكن الزمن لاَ يتوقف، والتاريخ لا يخضع للرغبات، الأمر الذي يستدعي منا الحزم في التعامل اذا كنا نريد ان نتحمل مسؤولية المستقبل.

ربما تبدو المذكرات السياسية للدكتور بشير العظمة، من خلال النظرة المتسرعة، قاسية او سلبية تجاه تجربة الوحدة وعبد الناصر، لكن النظرة المدققة الهادئة والموضوعية، تكشف لنا ان الذين عادوا السلبيات، وكان لهم موقف نقدي ازاء ما جرى تلك الأيام، وتحملوا نتائج ذلك الموقف، بالغضب والادانة، كانوا اكثر حرصاً على انقاذ التجربة، وتجنيبها احتمال السقوط، وكانوا أيضاً اكثر صدقاً في محاولة الوصول الى نتائج ايجابية، خلافاً للمزاودين الذين كانوا ينكرون الأخطاء والنواقص، وينزهون عبد الناصر عن امكانية الوقوع في الخطأ.

نظرة الدكتور العظمة، ثم رأيه، في الوحدة والانفصال، يستدعيان التأمُّل والتدقيق واعادة التفكير، لا من أجل تبرئة الرجل، فقد كان قاسياً على نفسه أكثر مما يحتمل ان يقسو عليه خصومه، وانما من اجل اعادة تقييم تجربة الوحدة المصرية السورية، ولتفسير ما جرى، ثم لامتحان القناعات والصيغ من جديد، لمعرفة مدى قدرتها على الاستمرار والصمود، لا ان نكتفي بتحميل الاستعمار وحده المسؤولية، واعتباره من اسقطها، مع الاشارة انه لم تطلق رصاصة واحدة للدفاع عنها، وبالتالي اعفاء انفسنا من وزر ما حصل.

صحيح ان الوحدة كانت مشروعاً تاق اليه، وناضل من اجل تحقيقه، عرب القرن العشرين، وكانت تجربة الوحدة المصرية السورية تجسيداً للحلم القومي، لكن آلية تحقيق هذا المشروع، ثم طريقة ادارته والتعامل معه، وايضاً التستُّر على الأخطاء، كل ذلك ساهم باضعافه، بحيث لم يستطع الصمود في مواجهة اولى العواصف التي تعرَّض لها، وكانت من داخله بالدرجة الأولى، الأمر الذي يتطلب ان نتعامل مع التجربة بكثير من الصرامة، وان تعرف الأخطاء والنواقص، لكي نتجنب الاحتمالات السلبية في مستقبل الأيام.

ومثلما يقدم الدكتور العظمة ملاحظاته وقراءته الخاصة لتجربة الوحدة، فإنَّه يتعرض بقسوة اشد لتجربة الانفصال، رغم انه تحمل مسؤولية اكبر في

التجربة «الجديدة»، وان يكن لفترة قصيرة، عزف بنتيجتها عن العمل السياسي، وأخذ صفة المراقب والمتأمل، والذي ظلَّ يتساءل حتى آخر عمره، وبمرارة، عن اسباب التخلف والقمع، وقدَّم قراءته الخاصة في هذا المجال.

لقد كان الرجل حريصاً، حتى قبل ان يدخل الى الحقل السياسي، على تبنِّي صيغة عقلانية في الفكر والسلوك، فحارب الخرافة والغيبية والطرق الصوفية، وكل ما يمت الى السحر والشعوذة، لكن فوجىء حين وجد نفسه في المعترك السياسي بكم غير قليل من سيطرة «الأجهزة الخفية» التي تحيط بالزعيم، والقادرة على جَعله اسيراً لها، وربما ساعد في الوصول الى مثل تلك النتيجة التقاليد المتوارثة التي كان لها دور في تاريخ مصر، خاصة من خلال مقولة الفرعون/ الكاهن، والقوى الخفية المتحكمة بالأقدار ومصائر القادة والشعوب!

ان الولاء الشخصي، قبل الانتماء الوطني والصدق السياسي، ثم رغبة الزعيم ان يحيط نفسه ببطانة من الاتباع الذين يعرفون جيداً كيف يرددون كلمة الموافقة، وعدم افساح المجال امام الرأي الآخر، المختلف، هذه الأسباب جعلت القائد يرى ويسمع بعيون وألسنة الذين حوله، وجعلت التابعين يكونون عينه ولسانه في مواجهة الآخرين، وبمرور الوقت اتسعت الفجوة، وهذا ما يفسر ما حصل لاحقا: «بحركة عسكرية هزيلة، كشفت تفاهة الأجهزة، ومن يقوم عليها، وفساد قواعد بناء أُقيم على عجل... وان عبد الناصر نسي في نشوة أهازيج الجماهير ان المتربصين الاستعماريين لا يقبلونه إلاَّ عميلاً لهم، فإذا تطاول وتحدَّى مصالحهم الحيوية، فإنَّ تفجير الأرض تحت قدميه غير عسير».

أمَّا المحور الثالث للكتاب، وهو الشهادة، فإنَّه لا يُلخص، لأن الدكتور العظمة حين توصل الى ما توصل إليه، كان يحمل فوق كتفيه بضع سنين فوق الثمانين، وبالتالي تشكل هذه النتائج خلاصة التجربة وما يريد ان يقوله قبل ان يمضي، الأمر الذي يتطلب منا ان نتوقف طويلاً عند كل فكرة،

عند كل رأي، لعلنا نكون اقدر على اختيار الطريق الذي يجب ان نسير فيه، خاصة وان التاريخ هو مجموعة تجارب، والتجارب، وان لم تتكرر بذاتها، إلاّ انها تساعدنا على تجنب الأخطاء، خاصة وان غيرنا دفع ثمن تلك الأخطاء.

(III)

تعرَّفت على الدكتور بشير العظمة في وقت متأخر، وكان هذا سبباً في مشاعر محتدمة سيطرت عليّ، وهي مشاعر يمكن وصفها بالنقيضين: الفرح والأسى، الفرح لأن يلتقي الانسان بشاب في الثمانين، والأسى ان هذا الشاب سيغادرنا اليوم او غدا.

لقد التقيته مرة في السابق، وكان في شرخ الشباب، كان في الخمسين!

في ذلك الوقت، بعد انهيار تجربة الوحدة المصرية السورية، كان يبحث عن رؤية جديدة لسورية المضطربة: يريدها ان تبقى حجر زاوية في الوحدة العربية، وان تبقى حريصة على ان تتحاور مع الآخر، وان تقول لا اذا اقتضى الأمر.

كان لقاء مفعماً بالقلق والدخان وتعدد الآراء، الى درجة يستحيل معها لواحد مثله ان ينظِّم من النقائض قلادة او طوقاً للنجاة، فحاول تجربته خلال فترة قصيرة، تأكَّد معها ان السياسة هي موازين قوى اكثر مما هي تلاقي أفكار، ولذلك كانت رحلته مع «الانفصال» قصيرة، ما لبث بعدها ان هجر السياسة بمعناها المتداول والمبتذل، وخلد الى التقاعد المبكر، ليغرق نفسه بالقراءة والتأمل... ولقاء بعض الأصدقاء.

ظلَّ لقاؤنا الوحيد يعاود في الذاكرة بين فترة وأخرى، الى ان قدِّر لي العودة إلى دمشق مرة ثانية بعد تجواب في الأرض طويل. وبعد ان تعرفت على اولاده بصدف حسنة، قدر لي ان التقيه من جديد، لكن هذه المرة في جو آخر، في البيت، بعيداً عن السياسة، وهنا شعرت بالفرح والأسى مجدداً.

كيف يمكن لمثل هؤلاء الرجال ان يغيبوا، ان نُحرم من التعرف عليهم، ان نستفيد من تجاربهم؟

وفي اللقاءات القليلة التي تسنَّى لي ان ازوره، ان التقيه فيها، اكتشفت ان السنين ليست وحدها مقياساً للعمر، وان نضارة العقل، والاقبال على الحياة، تتعلق بالروح، بالذاكرة، بطريقة الرؤية، اكثر مما تتعلق بالأعوام التي يحملها الانسان على كتفيه. أكثر من ذلك رأيت هذا الذي يدب الى الثمانين اكثر شباباً من الذين لم يبلغوا العشرين، من حيث الأفكار، وآفاق المستقبل، والنظرة الى الحياة.

لم أتردّد في ان افرض نفسي صديقاً، وكان الرجل واسرته كرماء الى درجة شعرت في لحظات كثيرة، وكأنّي أُحاور نفسي. أتكلم بطريقة ليس فيها رقيب او خوف، واكتشفت ان ما أُحاول قوله بتردّد وصل اليه الرجل، وما أقوله بصوت خفيض يقوله بصوت جهوري، وكأن مسؤولية الشهادة اصبحت اقوى من أي اعتبار. وهكذا أحببت الرجل، لكن مع الحب كان الخوف انه سيغادرنا، للسنين وللمرض.

ومثل الذي يحرص على ألاّ تفوته فرصة لقاء الرجل، ذهبت لأزوره في ذلك العيد. صعدت. فتحت باب المصعد. اصطدمت العينان بوجه الحفيدة، ريمة، كما هو اسم زوجته. وجدت العينين محمرتين وفيهما بقايا دموع، ووجدت البابين المتقابلين، مفتوحين، ولم تنتظر الحفيدة، قالت: جدو اعطاكم عمره.

في ذلك الربيع الحزين من عام 1992 غادر بشير العظمة الحياة، بعد مرض قاسٍ، لكنه تحمله بصمت، وانقضت حياة رجل كان كبيراً، ليس بانتصاراته السياسية او الضجيج الاعلامي، لكن بحياته وسلوكه... وصدقه بالدرجة الأولى.

واذا كانت هناك ضرورة لكلمة أخيرة، فإنّي سعيد ـ لو افترضنا ان هذه الكلمة هي الصحيحة ـ اذ أكتب هذه المقدمة مع ان «جيل الهزيمة» لا يحتاج إلى أي تقديم، اذ يقول الكثير بنفاذ ودون ضجة.

«جيل الهزيمة» كتاب سوف يتذكره الكثيرون في مستقبل الأيام، لأنه ليس مجرد مذكرات، انه كتاب صادق، خرج من العقل والقلب، ليقول لنا، للأجيال القادمة: العقل طريقنا الى المستقبل، فانتبهوا!

مدخل

التجربة الصعبة

قاومت بعناد منذ أن تقاعدت قبل ربع قرن تقريباً محاولات متلاحقة، ومن أقرب الناس إليّ، يطلبون منّي أن أكتب ذكرياتي.

بقيت صامداً أمام الإغراء، أُدافع عن موقف الرفض بحجة أنّي لم أُهيِّء نفسي للكتابة، ولم أحتفظ بأي مستند أرجع إليه فيساعدني في ترطيب الذاكرة التي تكاد عروقها أن تجف، والكتابة تسجيل وليست صياغة كلام وفصاحة للشهرة أو التشهير.

وقد عشت حياتي عاماً بعد عام مجاملاً، أتجنّب مواقف المواجهة والمصارحة، والمذكرات إمّا تكون صريحة صادقة وإمّا لا تكون.

لاحظت عندما بدأت الكتابة أنّي لا أرى إلاّ السواد، وأن أحكامي جارحة حتى على نفسي، فبدأت أُحاول التخفيف من أحكامي التعسفية. وبعد مرور عامين تقريباً على بدء المغامرة في الكتابة، شعرت بأنّي قد بذلت المزيد من الجهد لأجعل كلامي أقرب للواقع وأقل حدة وقسوة.

تفاقم مشاعر السخط والرغبة في الكمال، والقسوة في الأحكام عند الشيوخ، نتيجة منطقية لنقص الارتواء ونقص مرونة الوصلات الدماغية.

وهي كذلك نتيجة تقلّص بل زوال موجبات وملزمات النفاق الاجتماعي في التعامل اليومي. كنت في العقدين الخامس والسادس عاجزاً حتى عن التفكير في تجربة تعرية الذات ورفع النقاب عن وجهي ومعتقداتي، وكان

حساب العملية عندئذ خاسراً حتماً، يعوق علاقاتي الاجتماعية أو يؤذيها.

فالكشف عن دخيلة النفس بصدق وصراحة هو كشف لعورات وعيوب نشأت وتكوَّنت، وقد قضيت حياتي كلها أتستر عليها بأقصى طاقتي.

لقد كان من بين دوافعي في الإحجام عن الكتابة الخوف من إساءة تفسير كلامي عن غير قصد، ومن أقرب الناس من الأهل والأصدقاء. تربية جيلنا، والأجيال السابقة، واللاحقة كذلك، تقضي بأن يحرص الإنسان المتّزن على الظهور أمام مرآة الناس جميعاً بصورة الكمال التقليدي في لباسه وحركاته، منسجماً مع فروض التقاليد المرعيَّة. والكشف عن بعض النواقص أو أي شيء يخالف الصورة التقليدية للكمال المثالي، فضائح لا بدَّ من التستّر عليها أو هي أحياناً عورات لا بدَّ من إخفائها.

وقد دَرَجنا منذ أجيال نقدّس وننزّه كل ما يتصل بالبيت العائلي، وخاصة الوالد والوالدة، والدي ووالدتي لم أُشارك في انتقائهما واختيارهما، ومع ذلك أو بالرغم من ذلك، فإنَّهما ملاكان خُلقا ملاكين كاملين، ولا مثيل لهما!

التضامن والتنزيه العائلي هما التزامان، وكل خروج عن قواعدهما اغتراب وجنون. في هذه الأجواء أخشى وأنا أكتب بصراحة، سوء التقدير وسوء الفهم لما أكتب، وقد يُفسّر ومن أقرب الناس إليّ بأنّه تشهير وتجريح، وفي أحسن الأحوال كلام معتوه أضاع الميزان. وعليه فإنّي أطلب المغفرة مسبقاً قبل أن أكتب ويقرأون. أرجو أن يعذرني أقرب الناس إليّ.. أُمّي وأبي، لروحيهما الرحمة، وأهلي ورفاق طريقي، خاصة ممن سبقوني في رحلة الأبدية أو الأقلية من الصامدين معي إلى حين.

وُلِدت ونشأت في وسط عائلي محافظ ومتمسك بقواعد السلوك العامة للطبقة الوسطى التي أنتمي إليها. ومن الثابت المحقق لديّ أن مفاهيم وسلوك عائلتي لا يختلف عن غيرها إلاّ في الزخرفة والتفصيل بينما مسار التيار العام في حينه هو في سياق لا يختلف عما سأرويه عن دار أهلي. إنّهم خلية في مجتمع أوائل هذا القرن والقرون السابقة على السواء، ودون تبديل جذري،

فالمجتمعات العربية سكونية، لم تتبدّل فلسفة الحياة وعلاقات الناس فيها إلاّ في أضيق الحدود. ورغم الرغبة الصادقة والوعد الأكيد بالتزام الصراحة فيما أكتب، فلن أتجاوز حدوداً مقبولة.

ما زلت احتفظ بالقدر الكافي من التوازن لأبقى صادقاً مع نفسي، وكذلك أميناً احترم الذين سيقرأون هذه الصفحات، ومهما حاولت تمزيق جلدي التاريخي المصفّح فسوف أبقى أسيراً في حدوده.

هل هذا الكتاب سيرة ذاتية؟

أبداً!

سوف أكتفي بالتوقف عند المنعطفات الرئيسية لحياتي العادية، أمّا سيرتي الذاتية فليست أمثولة او مهمة ومؤهّلة لهداية الحائرين.

المذكرات عادة أدب ممتع حين يكتبها رجال عرفوا في مجالات عامة، يستهدفون غالباً فيما يكتبون تبرئة الذات بنرجسية فاضحة. لم أكن إماماً ولا في الصلاة لأصبح قدوة، وكذلك لم أكن تابعاً ومريداً لأي شخص كان. لم أنتسب في حياتي إلى أي تنظيم حزبي أو أي فريق سوى فريق بردى لكرة القدم! والإيمان الأعمى الثابت بالمبادىء أو الأفراد لم أعرفه في حياتي إطلاقاً، والعكس صحيح.

أرجو أن يجد أحفادي في قراءة هذه الصفحات صورة نابضة لحياة جدّهم. إنّهم لم يعاشرونا طويلاً، ولم يعرفوا منّا سوى صورة مهزوزة لشيخوخة كريهة في الصورة والطباع. ومهما حاولنا تجميل هذه الصورة بالكرم الكاذب والمساحيق والابتسامة، فإنّها لن تبدل الكثير من واقع الشيخوخة الهابطة والمرعبة أحياناً في عيون الشباب المتفتح الصاعد، يرون فيه مصيرهم في المستقبل البعيد.

من الممكن وصف هذا الكتاب بأنّه مجرد خواطر لأنه تسويد للورق من رواسب الذاكرة، فليس لدي من مراجع كما ذكرت سوى ذكريات بعضها واضح المعالم، والكثير منها يغلّفه ضباب.

تمتد الأيام بالإنسان في مرحلة الشباب حتى يصعب عليه أن يعتقد أنها ستنقضي يوماً ما. ومع تقدُّم العمر تبقى نهاية الحياة حتمية منطقية.

يبدأُ الانسان عند سماع أخبار وفيات المعارف يقارن عمره بعمرهم، ويتأكد من أن دوره ليس بعيداً مهما حاول استبعاده. وهكذا أشعر بعد اتخاذي قرار الكتابة أن عليّ إتمام ما بدأت في سباق محموم مع الزمن.

إن ما أكتبه حديث النفس وحديث عن النفس، أستعرض فيه منعطفات ووقائع، كما أستطرد وأعالج مواضيع طرحتها في ذهني وعدت إليها واستولت على تفكيري، ولكني لم أسمح لها بالعلنية. وطرحتها كاملة صريحة.

ما أُسجِّل من خواطر يجري قبل الرحيل، ولا أخشى الأذى من الكشف عنها.

لا يهمني أن يتفق الآخرون معي في الرأي، فأنا أعتقد بأني على صواب، ولا يزعجني كثيراً أن اكتشف أن تفكيري لا يتفق وأحكام الأغلبية من الناس. بل ربما يشعرني ذلك بالتميُّز عنهم، ولديّ الكفاية من الثقة بالذات، تحميني من التراجع والتخاذل.

أتمنّى أن يستطيع قارئي الصبر على متابعة ما سوّدت من صفحات، وسيجد أن الشيء الوحيد الأكيد في أعماقي هو أن الأشياء التي يمكن للانسان أن يكون على يقين مطلق منها قليلة جداً. وأن هذا اليقين موقوتٌ أيضاً.

المؤلف

بشير العظمة

الفصل الأول

الجذور والنشأة

١٩١٠ - ١٩٢٠

وُلِدتُ عام ١٩١٠ تقديراً.

تزوَّج والدي متأخراً بعد سنّ الأربعين، واستمر يعيش في كنف أبيه كما كان قبل زواجه، فلم تكن له مهنة أو مورد رزق، وهو شيخ معمَّم يتابع حلقات شيوخ الطريقة النقشبندية الصوفية المنتشرة في ذلك الوقت.

تقع دار جدِّي في حي القيمرية قرب ضريح (رابعة العدوية)، وهي دار شامية فسيحة. سكان الحي مزيج غير متجانس، تجار وحرفيون وفقراء. وحي القيمرية على تخوم أحياء المسيحيين والشيعة، وحي اليهود غير بعيد.

جدِّي لأبي ميسور، يمتلك أو يقوم بإدارة أرض زراعية واسعة في غوطة دمشق، ومعظمها ملك لزوجته الثانية. بعد وفاة جدَّتي، كان يسألني عن اسمي ليدسّ قطعة نقود لقاء تقبيل الأيدي. وقد توفي سنة ١٩١٨ وعمري ثماني سنوات.

في قاع وعاء الذاكرة عرس أُقيم لإثنين من أعمامي أيام الحرب العالمية الأولى. شاهدت في الممر الذي يوصل بين دارنا ودار جدِّي أكياس اللوز والجوز وغيرهما وكميات من أنواع المؤونة الأخرى، وجميعها مخزون، ومن إنتاج أراضي العائلة.

ومن الطرائف التي سمعتها بعد ذلك عن هذا العرس والوليمة، أن

زوجة أحد العريسين التوأمين قدَّمت المنشفة صباح العرس، كما تقضي طقوس الطاعة للسيد الزوج: قدمت المنشفة صباحاً لأحد العريسين (وهي تغطِّي شعرها بمنديل واسع ينسدل على جسمها)، فقال لها: أنت مخطئة، فأنا شقيق زوجك الذي قضيت الليلة الفائتة معه.

كان جدِّي يستدين بالفائدة الفاحشة لينفق في المناسبات حفاظاً على هيبته وموقعه كأحد الأكابر. والزواج مناسبة لتأكيد الانتماء الطبقي. وقد استدان لعرس ولديه، ورهن أرضاً، واضطر إلى التنازل عنها بعد ذلك.

تتألف عائلة الجد، الأب الأكبر والسيد المطلق في الدار، من سبعة أولاد ذكور وأنثى واحدة، وهو معيلهم جميعاً مع أولادهم وزوجاتهم.

مسكن أهلي وثلاثة من أعمامي الأشقاء، دار ملاصقة لدار (السيد) كما كنا نناديه صغاراً. والداران متصلتان بممر. أصلح جدِّي الدار الملاصقة، وقد كانت سابقاً اصطبلاً لخيل عربة الدار الفسيحة.

لم تكن لأي من أولاد الأب الأكبر مهنة معروفة، باستثناء أحد الأعمام، كان ضابطاً في الجيش العثماني، وتخرَّج في الكلية الحربية في استانبول برتبة ملازم يعمل في شؤون التجهيز والتموين في قلعة دمشق. باستثناء هذا العم لم يتابع الآخرون أكثر من الكتَّاب يحفظون القرآن. وكانوا جميعاً يضعون على رؤوسهم عمامات، وقد استعاضوا عنها بالطرابيش بعد ذلك. يقرأون بصعوبة، ومناسبات الكتابة غير متوفرة، فهي عسيرة عليهم. والحساب جمع وطرح. وفي ذلك الكفاية، وهي حدود للتعليم سائدة في تلك الأيام.

يُساعد جدِّي في إدارة شؤون زراعته وتسويق محاصيله أحد أعمامي الصغار، وتبقى الأمور المالية من اختصاص السيد الأكبر، وبيده مفاتيح السلطة كاملة، وهو محور كل شيء. يقول والدي أنه تعرّض لتوبيخ من أبيه لأنه اشترى تنكة سمن بعد زواجه، وعمره يقارب الخمسين عاماً. ولا أدري كيف تدبَّر قيمتها.

المال سلطة فاعِلَة في المجتمع الزراعي الفقير، فالوجاهة مال، والوظيفة جمع المال، والتمسُّح بالسلطة وبالأكابر وأداء الخدمات يستهدفان ولو فتات الموائد من المال، وأية وظيفة عزّ واعتزاز. عدد الأفراد المنتسبين إلى آل العظمة كبير نسبياً، والذين أعرفهم طبقة متوسطة محافظة في حدود الستر والكفاف باستثناء من تزوَّجوا من عائلات ميسورة، ومنهم جدِّي وثلاثة من أعمامي.

توارث أبناء وأحفاد العائلة العشيرة، وعلى قدم المساواة، ومنذ الولادة لقب البكوية، لأن جَدًّا بعيداً (خمسة أجيال على الأقل) كان باشا يتزعم فرقة من الانكشارية المحلية (يارلية) في القرن الثامن عشر. ويحرص الجميع من دون استثناء على اللقب الموروث تعويضاً عن ضيق العيش. يُولد الطفل الذكر وهو (بيك). وعندما تذكر الأخت أخاها أو تناديه، خاصة أمام الخدم أو الغرباء، فلا بدَّ من أن تُلحِق اللقب باسمه، ولا تزال تجري الأمور كذلك بين المخضرمين من أبناء جيلي، وكثيراً ما يثيرني ذلك وأستنكره.

لقد كان هذا اللقب كما أعتقد من بين عوامل ازدواجية الشخصية العائلية، فنحن بكوات وحتى في الهوية الحكومية، يُقرأ اللقب في الهوية، أو يَسمع به الموظف أو البائع، ثم ينظر الى القيافة، عجباً! لا ينسجم المظهر والقيافة والسلوك مع البكوية، خاصة عندما يحرص بعضهم أو يعترض على إهمال البكوية. كان لي قريب يعمل سائقاً على سيارة أجرة يتشاجر مع زملائه او زبائنه إذا لم يوجهوا كلامهم مع البكوية، رغما عنكم بيك ابن بيك! كان يُثقل عليّ وأنا صغير هذا اللقب الأجوف، وكم كنت أتمنى فعلاً لو يُباع هذا الشرف الزائف برغيف طازج مع صحن حمص او فول ساخن، يشتريه رفاق المدرسة الثانوية من الميسورين، وأسماؤهم عادية دون لقب البكوية.

إذا سُئل أحد الأعمام أو الأخوال عن مهنته بعيداً عن دكانه طبعاً، ظهرت عليه علائم الاستكبار وأجاب: «ملاكين»!. يتضمن السؤال معنى الاستخفاف كأن البكوية والوجاهة موسومتان على الجباه، والسائل غبي أو خبيث لا يراهما.

والدتي ابنة عم بعيدة لوالدي. جدِّي لأُمِّي إمام جامع صغير في سوق الأروام. أخوالي عديدون ورِزق جدِّي رب العائلة ضئيل، هو راتب إمام مسجد صغير لا أوقاف له. كان يستعين لموازنة عيشه بأعمال تجارية منزلية وموسمية. وقد دفع بأولاده (أخوالي) الواحد تلو الآخر للعمل في سن مبكرة، كي يستعين بهم على مصروف داره. لم يتمّ أحد منهم دراسته الابتدائية وقد تمَّ زواج ابنته الكبرى وعمرها إحدى عشرة سنة من سكير قاطع طريق، ولكنه من عائلة ثريَّة.

كان جدّي لأُمِّي نزقاً يخافه الجميع في بيته، ويقسو خاصة على الجدَّة الطيِّبة. أذكر أنِّي كنت صغيراً وأتيت صباح يوم العيد للمباركة فجلست إلى مائدة الإفطار معه ومع اثنين من الأخوال. مددت يدي أتناول قطعة من الخبز كانت أمامه، فصرخ في وجهي وضربني على اليد: اتركها. فهمت بعد ذلك أن تناول قطعة الخبز من أمام الكبار في السن، ينقص أعمارهم، ويعجِّل بنهايتهم، فكأنِّي أقتطع من رغيفه جزءاً من عمره.

دار سكن أهلي وأعمامي الثلاثة مؤلفة من فسحة سماوية وأربع غرف على الباحة، وقبو ننزل اليه بدرج حجري كنت أخاف من عفاريته منذ أن وعيت الحياة. وفي الطابق العلوي أربع غرف، واحدة لكل عائلة. الغرف العلوية للنوم والطعام والاقامة، والسفلية المفروشة بشكل لائق (سجادة وكنبات)، مغلقة دائماً لا تفتح إلاّ في العيدين (الأضحى والفطر)؛ وإذا فتح الباب تفوح رائحة العفونة المتسربة من الجدران التي ترشح ماءً. قليلاً ما يستقبل الأهل الأقارب المقربين، وأمَّا زيارة الأصدقاء فأقل من نادرة. لم تكن للوالد في حدود طبيعته الانطوائية الزاهدة وعمله في الزراعة علاقات صداقات حميمة، يأوي إلى سريره باكراً ويترك الدار مع بزوغ الشمس. وكذلك الوالدة تبدأ نهارها مع الشمس ولا تنتهي إلاّ بعد العشاء. لا زيارات ولا أي نشاط او حديث بين الآباء والأبناء. والتعامل بين الجميع صراخ وزجر وتهديد. في مناسبات نادرة كنت أحمل الشاي إلى رفاق الوالد مع ما تيسَّر للضيافة. يُقطِّب الوالد اذا تلكأت بالخروج، ويشير الى الباب غير

مطرود، فمجالس الكبار لا مكان فيها للقرود الصغار، ولو كانوا من النوع الأخرس المرتجف الخجول.

كانت لوالدي خالة عازبة تزورنا وتقضي عندنا ليالي نشعر فيها بالبهجة والانطلاق النسبي، لنسمع المزيد من قصصها الخرافية عن العفاريت والغيلان.

نصعد إلى الطابق العلوي بدرج خشبي، ومساحة غرفة النوم والعيش لا تزيد عن عشرة أمتار مربعة تقريباً، نجلس فيها نهاراً وننام ليلاً. الخروج من الدار الى الحارة محرّم إطلاقاً، إلاً عند الحاجة لملء سطل الماء من السبيل القريب، أو شراء ما يكلّف به الأطفال من دكاكين الحارة.

كان العدوان على الصغار شائعاً خاصة بالنسبة للصبي قبل العاشرة. وخروج البنت محرم نهائياً إلاً مع والدتها، وتلبس الملاءة السوداء قبل العاشرة ايضاً.

يَشغُل سرير الوالدين ثلث مساحة الغرفة تقريباً، وهو مرتفع على قوائم نحاسية لامعة. نفترش مع اخوتي وهم ثلاثة ذكور فراشاً على الأرض.

التدفئة في الغرفة التي لا ترى الشمس أنفاس المقيمين فيها. نتحلّق مساءً حول موقد نقّال من النحاس نشعل فيه الفحم أيام الصقيع، أو نكتفي بما يسمّى (الطفي) وهو ما يطفأ من جمر الحطب قبل أن يصبح رماداً، بأن يوضع في تنكة مغلقة.

تستعمل بعض الدور في تلك الأيام موقداً صغيراً يوضع تحت اللحاف، يتدثرون به فوق رؤوسهم. وكثيراً ما يموت الأطفال اختناقاً بغاز أول أوكسيد الفحم أو يحترق الفراش او الدار، كنا نرتجف من البرد عند النزول في الفراش المشترك، ونعمد للنفخ ملتصقين بأجسادنا حتى نغفو.

لست أدري لماذا لم نستعمل الملابس الصوفية الداخلية كباراً او صغاراً على الرغم من البرد الشديد في بعض السنين. إنّها ممارسة للصوفية القاسية من دون الصوف، وقد اعتادت أبداننا البرد، والبقاء للأصلح.

ذهبت إلى فرنسا عام ١٩٣٤، وحمَّلَتني الوالدة قميصاً احتياطياً من الصوف اتقاءً للبرد، تذكرت قميص الصوف لما بلغت درجة الحرارة سبع عشرة درجة تحت الصفر في شهر شباط. ولم تمض أيام معدودة على ارتدائه حتى شعرت بضيق النفس مع زكام وسعال، وكنت أداوم في شعبة للأمراض الصدرية، والسل أكثرها انتشاراً، فتهالكت من الرعب، وتذكرت القميص، وشفيت من ضيق النفس والسعال بعد انتزاعه.

في دارنا قبو يأخذ نوره من فتحة صغيرة على الباحة، تخزن فيه المؤونة من الحطب والبرغل والقمح والعدس... الخ. ننزل إليه بسلم حجري ضيق، نتلمس طريقنا إليه بالاستناد إلى الحائط ونحن نرتجف رعباً كأننا نهبط إلى القبر أحياء. أصحاب القبو وسكانه المقيمون جرذان تتراكض وعناكب وحشرات متنوعة أخرى. كان القبو قديماً سجناً للعبيد المتمردين. والإشارة إلى القبو وعفاريته لغة دارجة يومية للخارجين عن الطاعة لو عاندوا أهلهم، وخاصة اذا تكرَّر بلل فراشهم، يهدَّدون بالسجن أو النوم فيه ليلاً.

من ذكريات ليالي الشتاء الممطرة أنّنا كثيراً ما كنا نصحو على أنغام قطرات ماء (الدلف)، نقطة نقطة في البدء وينتشر العزف فيشمل أرجاء الغرفة، ونعجز عن إيجاد الكفاية من الأوعية، والماء يقطر من كل زاوية. وقد ننقل الفراش لننام في الغرفة الأخرى في الطابق السفلي، والماء المتسرب من السطح الطيني يحمل ما تبقَّى من التراب المفروش على سطح الدار.

أذكر وأتذكَّر وأنا أستعيد شريط تسجيل أجواء الطفولة، قبل ما يزيد عن سبعين عاماً، فتبرز صورة واضحة عن ضيوف أبداننا المقيمين، خاصة أيام الشتاء. كان ألصقهم بأبداننا القمل في الرأس والجسد. كان الشائع في حينه ان ألبسة الصوف تأتي بالقمل الذي يحب الأبدان الدافئة. ورغم أننا لم نلبس الصوف إطلاقاً، فقد كان يتنازل فيقبل ضيافة أبداننا النحيلة المرتجفة من البرد.

من اللحظات النادرة المبهجة في حياتي الطفلية البائسة، جلسة تشدَّني الوالدة إلى حضنها تبحث عن الضيوف من القمل والصئبان (بيوض القمل

على الشعر)، وتقتله بين أظافرها، وتمشّط بقسوة لتخرج على أسنان مشط السمك ما يعلق من القمل السارح. كنت أتمتع بحرارة صدر الوالدة ومداعبتها لرأسي، وغنائها الهادىء في شمس الشتاء الباردة.

ومن الحشرات الضيوف الأخرى لأبداننا، البق في الصيف بعد القمل في الشتاء، وفي الربيع والخريف البراغيث، وفي الفصول الثلاثة الدافئة نسبياً الذباب والناموس.

وقد نجدها خارج مواسمها المعتادة، حيث يبقى القمل طوال العام إذا لم تتعهد الوالدة وتصر على الخلاص منه.

يتعاون ضيوف أبداننا ولا يتصادمون، يتناوبون على الوليمة في حساب فصلي منظم بحيث أن البق لا يغشانا إلاً في الليل، وقد تَهرس أبداننا ليلاً بعضاً من أفراده، يمتص من دمائنا أكثر من طاقته على الحركة والهضم، فنرى آثار جثث البق بقعاً من دمائنا على الوسادة او الفراش، شواهد الضحايا في الليل البهيم.

تحتفظ الوالدة ببقية من طاقاتها بعد يوم العمل الطويل، فتنظّم به كل ليلة تقريباً غارة ليلية، تقلّبنا لتجمع البق، وترمي به في وعاء يحوي قليلاً من الماء أو ترمي به جانب نور الكاز ليحترق بحرارته؛ ونحن نتذمر ونصرخ منزعجين من النور ومن حركة الأيدي تحت الوسادة واللحاف.

لا حيلة مع الذباب والناموس، لذلك قبلنا التعايش معه مستسلمين، بينما الأيدي لا تكف عن طرد أرتاله عن العيون والأفواه.

والخلاصة لم نكن نشكو أو نستنكر وجود الضيوف وحقهم الطبيعي في قطرات من دمائنا رغم جفاف العروق، فقد اعتادت علينا ورضينا بوجودها. يقول المثل الدارج بمناسبة القمل: (الله لا يخليه من الأبدان)، ذلك أن القمل لا يهجر البدن نهائياً إلاً إذا بردت الجثة بعد الموت. وإذا سأل متسائل: وأين الصابون والاغتسال للخلاص من قمل الرأس والبدن؟ فالجواب هو أن الحمام في الدار غرفة صغيرة مقتطعة من المطبخ، يتم تسخين الماء فيها في

تنكة على موقد الحطب. فعملية الاستحمام تحتاج إلى توقيت مناسب في دار مزدحمة. يضاف إلى ذلك ندرة الصابون في حينه، والخوف من الاغتسال بالماء الحار والخروج بعد ذلك للهواء الطلق. وفي عقيدة تلك الأيام أن البرد أصل العلل والأمراض جميعاً. وعليه فلا اغتسال خلال أربعين يوماً من الشتاء (المربعانية). وحمام السوق مهرجان وفسحة يتم الاستعداد والتحضير لها، وهي احتفالية موسمية، بعد الولادة أو في الخريف او الربيع، وفوق كل ذلك فهي مكلفة وفوق الإمكانيات.

لا أتذكّر من طفولتي خلال أعوامها العشرة أني لهوت لاعباً مع أبناء أو بنات عمومتي في الدار. حوض الماء في منتصف الباحة لا يُمس إلاّ للوضوء أو غسل الأيدي والأرجل. وكل ضجيج او ملاحقة أو رش الماء او أي نشاط حركي او صوتي يفجّر الغضب والتهديد وينتهي بعقوبة زجرية بشد الأذن او الضرب. والمرعب اكثر من ذلك التهديد بالقبو وعفاريته والسجن فيه.

إلى جانب القبو مرحاض الدار، وهي حفرة عريضة مائلة مفتوحة تتدفق مياهها بشدة، ولست أدري كيف كان هذا المرحاض الوحيد يكفي صباحاً لقضاء حاجات دار يسكنها ثلاثون نسمة على الأقل، ولا كيف كان يدخل الطفل الصغير إلى المرحاض فلا يسقط فيه.

يحتجز في دار جدي المجاورة، والمتصلة بدارنا، في غرفة مغلقة، مجنون يسيل اللعاب من فمه، يشتم المارة من أمام نافذة عليها قضبان حديدية، ويرمي ببقايا طعامه وبالغائط أحياناً، أو يصيح كالبهيمة في نوبات هياجه. إذا سألت أهل الدار عنه، قالوا إنّه قد كُشِفَت له الأستار وإن ما يقوله حكم ونبوءات، يتشاءمون إذا ناح أو شتم وذكر أسماء من يعرف من الناس. وقد يفلت الوحش المقدّس من سجنه عارياً لا يستر عورته بشيء، ويدخل دارنا ونلجأ إلى جحور أمهاتنا أو تحت الفراش إذا سمعنا الإنذار بأن (وجيه) قد أُفلت من الأسر. أمثال عمي وجيه غير نادرين في الحياة العامة، واحتفاظ الأهل بهم في الدار أمر عادي وواجب، فلا وجود لمستشفيات المجاذيب أصلاً.

كنا نشاهد أمثال هذا العم في الطريق يدخلون الدكاكين فيرمون ويأكلون ويوزعون، وصاحب الدكان مسرور بأن حلَّت عليه البركات.

توفي بعد ذلك، وكانت ضخامة اللفة الخضراء، على مقدمة النعش تأكيد لمرتبة المتوفى في حساب الأولياء والصالحين.

عدد الأطفال من أبناء العمومة الساكنين في الدار عشرة ممن هم في أعمارنا تقريباً. لا أذكر اطلاقاً أنّي شاركت في حديث أو لعبة جماعية أو سيران أو سهرة معهم، والفصل بين الذكور والإناث كامل.

أطفال الدار شياطين صغار، مخربون، مزعجون، ولا بدَّ من إحكام السيطرة عليهم. قد يفسدون علاقات الأهل، ويثيرون خلافات وشجار. فلا لهو ولا لعب ولا انطلاق، والرقابة والمتابعة مستمرتان في السر والعلانية، والعقوبات عاجلة او مؤجلة في جحيم الدنيا والآخرة على السواء.

وتتردّد النواهي: (لا. وإياك، لا تتحرك. لا تلعب. لا تتكلم. لا تسأل). وامتدت فترة القمع والارهاب عشر سنوات تقريباً من سني الطفولة السعيدة! تمت خلالها صياغة الكيان النفساني للطفل البريء، تمَّ تجميده وتدجينه في القالب نسخة طبق الأصل عن السلف الصالح.

إذا حضر الزوج اختبأ الجميع كل في حجرته مع أولاده، وساد في الدار سكون الخوف العميق. يجرجر عمي الضابط سيفه على أرض الدهليز متعمداً ليعلن وصول السلطة متمثلة بلباسه المزركش. ويصرخ والدي وأعمامي عندما يفتحون الباب: (يا الله) بصوت جهوري لتختبىء النسوة أو يضعن الغطاء على الرأس متسترات (الشيطان ما مات!).

يوضع الطعام في قدر وسط بساط ممدود على الأرض، نغرف جميعاً كل بملعقته من الشوربا أو فتة الحمص، وهي الأداة الوحيدة لتناول الطعام من الوعاء المشترك.

والكلمة التي يردّدها الوالدان مع الطعام (نونو.. نونو) أي قليلاً قليلاً. تمهّل الزاد ليس لك وحدك. انتبه. الكثير من الجبن يسبِّب الديدان في البطن! والخبز الحاف يعرِّض الأكتاف.

علاقاتنا مع الوالد استشعار عن بعد: تقبيل الأيدي وطلب الرضا وشؤوننا اختصاص حريمي.

الإنارة في الدار مصباح الكاز. ونادراً ما يتوفر التنوير بالكهرباء، وإذا حدث فنور لا يتجاوز ٢٥ شمعة فقط. وترسم حركة المقيمين في الغرفة أشباحاً تتراقص على الحيطان كأنّها شياطين تلهو مع خيال الظل. ولذا فالنوم الباكر وإغماض العيون أشرف وأسلم من سماع معزوفات الأمر والنهي والتهديد.

عانيت وأنا في حوالي العاشرة من عمري من حالات جموح الخيال التعويضي عن حالة الضعف والخوف المقيم. كنت أتكلم في الغرفة إذا تأكّدت من أنّي وحيد لا يسمعني ولا يراني أحد. أقوم تعويضاً وتنفيساً عن ضغوط الكبت والضيق، وأمام مرآة خزانة الوالدة، بترديد ما حفظته في المدرسة من أبيات الشعر الحماسي، أو تحريك الأطراف في مواقف إبراز القوة والسطوة، أمثّل دور الخطيب المغوار. فاجأتني الوالدة مرات عديدة في حالات الزهو والانتعاش والتحرر الهذياني. تأخذني في حضنها تلمس جبيني لتتأكد بأنّي غير محموم وتبسمل وتستعيذ من الشياطين.

قناعات الوالد الدينية شخصية، يستنكر حلقات الذكر وسلوك المشايخ في التأنق باللباس والتقرب والزلفى والولائم، فالذِكر والمناجاة في الصوفية النقشبندية تأملات صامتة. ومع ذلك فإنّه محافظ تقليدي لا يقبل أي تهاون في أداء الفرائض.

إنه عنيف في ملاحظاته، حريص على سمعة وسلوكية جميع أفراد العائلة العشيرة، وكأنّه وهو الأكبر سناً، الوصي على الجميع.

يؤذّن للصلاة في أوقاتها أو يكلّف ولي العهد أخي الأكبر بذلك، ونقف وراء الإمام نردِّد ما يقول. أذكر جيداً شعوري بالضيق من الإكراه منذ أن وعيت وجودي، وأتوارى وأتهرب أحياناً من الوضوء والركوع والسجود.

كانت ردود فعلي على الإكراه لإقامة الصلاة وصوم رمضان احتيالاً

وكذباً بأنّي توضأت أو صلّيت. كذلك كنت أشرب أو أتناول، ولو قطعة من الخبز اليابس، ألتهمها نهاراً تحت اللحاف أو في المرحاض.

لست أدّعي أنّي أتلكأ أو أرفض نتيجة وعي وإدراك، بل كان ذلك موقفاً عفوياً ورفضاً للإكراه. كنت أضع الكفين تحت أنفي وجبهتي عند السجود في الصلاة للتخفيف من رائحة أقدام المصلّين والغبار والعفن على سجادة الجامع.

كان عدد كبير من الوافدين من الريف أو البعيدين عن بيوتهم، يتّخذون من مكان الصلاة مهجعاً ينامون فيه، بانتظار موعد، أو للراحة في القيلولة. يضعون أحذيتهم تحت رؤوسهم ويشخرون. وكذلك كنت أنفر من ملء الفم من ماء البحرة حيث يتوضأ الآخرون، ويبصقون في الماء أو يغسلون أرجلهم.

لم يلجأ الوالد في تعامله معنا إلى أكثر من التهديد والوعيد، ولم يستعمل الضرب في تأديبنا كما كان شائعاً وعادياً في تلك الأيام.

أجواء غرفة العيش حَمْدٌ دائم وشكر على النعم، رغم أن نصيب عائلتنا منها أقل بكثير من حظ الآخرين من إخوته باستثناء واحد تزوج من إبنة عم من العائلة العشيرة كما فعل والدي بينما زوجات أعمامي الآخرين، وجدّي معهم، من عائلات ميسورة.

المال سلطة وقوة حاسمة، خاصة في مجتمع الفقر الزراعي، فالسيطرة خلف الجدران في غرف الأعمام، والجد أيضاً هي للنساء، يحركن الرجال في إثارة مشاعر الغيرة والتحريض بين الإخوة. وقد حدثت في الدار مشاهد عنف ومشادات رهيبة وعلنية نتيجة لكل ذلك.

محور حياة الدار والأفراد تدبير الشؤون المعاشية اليومية، والاحتراس والادخار والاستزادة من المؤونة خوف الأسوأ.

كانت الوالدة أُمّيّة كبنات جيلها جميعاً، ولم يكن حظ أخوتها الذكور أفضل من ذلك. يمتنع الأهل عن إرسال بناتهم إلى (الخوجة) المعلمة في

بيتها خوف تعلم الكتابة. والرسالة مركب شيطاني، والنساء ناقصات عقل، ناقصات دين كما يردِّد ذلك الجميع.

تصحو الوالدة باكراً لتدبير شؤون البيت، تعاونها بنت صغيرة، في عمرنا تقريباً، تعيش بيننا بطعامها وكسائها.

تبدأ الوالدة عملها مع بزوغ الشمس ولا تنتهي مع غروبها: تنظيف وغسيل وخياطة الملابس الداخلية والخارجية للبيت والمدرسة حتى محفظة الكتب. وعلى نور الكاز الخافت تقوم برتقيع ما بلي من الجوارب والألبسة الأخرى، وتشارك ايضاً في تحضير المؤونة الشتوية للطعام المشترك: القمح والبرغل والبندورة والرمان... الخ. يُغسل القمح مثلاً بالماء مرات عديدة ويُجفّف ثم ينقَّى من الحصى، يُعبأ في أكياس توطئة لإرساله إلى الطاحون. يتمّ الطحن تحت رقابة فرد أو أكثر ويُعاد إلى الدار ليعجن ويرسل إلى المخبز تحت الرقابة ايضاً. يُسلق البرغل وينشر ويُنقَّى ثم يطحن في الدار في طاحونة يدوية من الحجر الأسود، ثم يُغربَل وُيفرز بأشكاله الخشن والناعم والطحين... الخ. نُشارك في هذه الأعمال أطفالاً، ونجد فيها فرصة للانطلاق والحركة.

كان من أثر سنوات القحط والجوع، وفي أجواء الفقر العام الشديد، أن كان السلوك الإنفاقي في الدار تقتيراً ومداورة، وتدبيراً في الحدود الدنيا الممكنة.

ولا تزال ندبات هذه الأيام في سلوكي حتى الآن. ذلك أنّي أشعر وأنا في نهاية الرحلة الحياتية بالغيظ والضيق إذا رمى أحدهم، ولو من الضيوف، بشيء من الطعام الصالح للأكل إلى القمامة، أو تركه في صحنه بدعوى أنه اكتفى، وقد أعلن استنكاري لهذا التصرف إذا كنت في محيط الأهل والأصدقاء.

كذلك ما زلت حتى الآن أشعر بالراحة والغبطة إذا تمكّنت من شراء أية حاجة دون سعرها الرائج أو المعلن. وأتمتع براحة نفسية عميقة وأنا أتنقل من بائع إلى آخر، ومن سوق إلى آخر أحياناً لأنجح في معادلة صعبة هي شراء

أفضل ما يمكن بأرخص ما يمكن. علماً أنّي أدفع بسخاء ودون تردُّد في مجالات أخرى، خاصة في السفر أو في شراء مقتنيات حديثة. رغم ذلك، وبصراحة، ليس بيني وبين الكرم والترف والسخاء صلات حميمة. والإنفاق دائماً ضمن خطة وحساب ودون مظاهر التفاخر والسفه.

■ ذكريات مبعثرة

كان يستأثر تحضير الخبز وهو العماد في تغذيتنا، جزءاً كبيراً من اهتمام الجميع.

يتمّ العجين في الدار، وكنت المسؤول عن ذلك حتى سنوات عديدة من سن اليفع. يشجّعني الوالد أن أبذل المزيد من الجهد في تقليب ودعك العجين حتى نحصل على رغيف رقيق ومشروح بسعة المَعْجَن (طشت العجين). يفور العجين مختمراً في الصيف عندما يُحضّر مساءً، أو يُخبز في الشتاء قبل أن يختمر، في الحالة الأولى يصبح طعمه حامضاً، وفي الثانية لا يتمكن الخبّاز من مده وترقيقه. وفي الحالتين يكدّس الخبز في المعجن لمدة تتراوح بين ٥ ـ ٧ أيام. يتعفن في الصيف، فنزيل عن سطحه العفن الأزرق بالمسح باليدين مبلّلتين بالماء، أو نرطبه يابساً برشه بالماء. لقمة الخبز مقدسة لا يُرمى بها، وإذا وقعت على الأرض تقبّل بالشفتين وتوضع بعيداً عن مداس التراب.

قد يتساءل القارىء: ولماذا لا يشترون الخبز من الأفران، أو يستعيضون عنه بالكعك؟ والجواب هو أن شراء الخبز نقيصة يَحسن أن لا نحاولها، ويفضّل الأهل استدانة بعض الأرغفة من الجيران ضماناً للستر وتجنباً للفضيحة. وكعك ماري انطوانيت هو للعرض في واجهات معينة يشتريه الأكابر المترفون..

حذاؤنا في الدار والحارة قبقاب خشبي، نطرب لإيقاعه الرتيب على أحجار الطريق أو أرض الدار، يقوم بوظيفة جرس يعلن الحركة والسكون. ينقطع (السير) وهو قطعة الجلد تدك فيها القدم، فنحمله ونبقى حفاة حتى

العودة إلى الدار. ولبس القبقاب أيسر عند تقرّح الأقدام في صقيع الشتاء.

الحذاء الجلدي للمدرسة مع (البنطال خياطة الوالدة). يرقّع الحذاء كلما اهترأ ويجدّد نصف نعله مرات عديدة. وشراء حذاء جديد هدية العيد السنوية فقط. وهو دائماً أوسع بنمرة أو اثنتين عن مقياس أقدامنا، احتياطاً لنموها في العام القادم أو الذي يليه.

والحذاء الواسع مريح ولو أنه يرشم الظهر بالطين في الشتاء لأنه ينخلع مع كل خطوة. كان طين الطريق يرشم ظهورنا حتى الرأس، أمّا اليوم ومع التطور والسيارات فقد أصبح وحل الطريق ومياهه من نصيب الآخرين من المشاة.

أستهدف من الاسترسال في توصيف معاناة سنوات الطفولة، التركيز على قسوة الظروف المادية والنفسانية خاصة، وكيف يتعمّق الفصام السلوكي في تناقض فاضح بين الظاهر والباطن، بين صورتنا الخارجية ودخيلتنا في بيوتنا خلف الأبواب في حياتنا الواقعية اليومية. وينسحب ذلك على ازدواجية الكلام المنطوق والضمير المطمور.

الوجبة المطبوخة مسائية ومشتركة لسكان الدار، تُطبخ في قدر كبير (حلة) فوق نار الحطب الرطب غالباً، ينفخ عليه بمنفاخ يدوي، وأنفاسنا المقطوعة رديفة، نحاول تسريع نضجه عسانا نحصل على نصيب منه قبل أن ننام.

عروس أيام زمان لا تخرج من دار الزوجية ولو طُردت. تذكر الوالدة أن والدها ضرب جدّتي وطردها في ساعة غضب، فذهبت تحمل صرّة ملابسها، وطرقت باب دار أهلها. وقبل أن تسمع كلمة ترحيب، سألها الوالد: ما معنى مجيئك صبحاً مع الصرّة؟ قالت: ضربني وطردني. أجابها: لا تنزعي ملاءتك فليس لك مكان بيننا، ونادى أحد أولاده ليصطحب أخته الباكية إلى دار زوجها، مع تحيات وأشواق هديةً للصهر الكريم.

تخرج الوالدة لزيارة أهلها موسمياً أو في حالات الطوارىء والمراسم

أو حمام السوق بعد الولادة. يصحبها الزوج أو أحد أولادها الذكور حارساً في الذهاب والإياب، وتسير خلف الخفير بخطوات، تأكيداً وتعريفاً بأنّها محصّنة متزوجة ولها أولاد.

حاجات الوالدة يحملها أحد الأعمام لتنتقي ما يناسب من القماش اللازم أو المفروشات والأحذية وغيرها. أمّا شراء حاجات المرأة والأولاد فيتنافى مع الهيبة والوقار ولا يمارسه الوالد.

ترتدي الوالدة والبنات الملاءة السوداء الفضفاضة. ويستحيل تقدير الأعمار ومعرفة نوعية أو عمر الانسان الذي تستره. تتدحرج أكياس الفحم المذعورة مع الحيطان في أسواق الذكورة. يروي الوالد أن قريبة له متقدمة في السن، يخلو فمها من الأسنان، تعقّبها متحرشاً وهي تسير وحدها قرب المنزل رجل يتغزّل بها، وملاءتها تخفي العيوب جميعاً، فلما اقترب منها وانفردت به والطريق خالية، كشفت النقاب عن وجهها، وفتحت فمها وذراعيها وهي تقول: «تقبرني الحقني إلى البيت»، فارتد هارباً خائفاً من أن يلحق به الشيطان.

كذلك كانت الملاءة تُستَغل، ونحن شباب، وسيلة للتخفي والتنكر للقاء العشيق في الظلام. ويُسدِل غطاء عربة الحصان أستاراً على ما يجري في الخفاء.

تتعرض المرأة التي تسير على قدميها، ورغم الملاءة المنسدلة، للكلام الفاحش في الطريق، وتلاحقها صيحات الأطفال: «أُم ملاية زم ينزل عليك الدم». وقد يرشقها بعض الصبية بالحجارة أو ماء الفضة (نترات الفضة)، تحرق الملابس وتشوه الوجه. والخلاصة أن الأنثى ملاحقة مطرودة إذا تجاوزت عتبة سجنها الأبدي، دار الأهل أو الزوج وما بينهما، ولا مكان ولا وجود لها في الحياة العامة إلاّ في حي العاهرات تحرسه الشرطة الحكومية. والعجيب في المجتمع المتديّن المحافظ، كيف يدافع عن ضرورة (المحل العمومي) لسلامة المحصنات من الحريم!

من أعجب ما تكاد تطمسه الذاكرة، وأنا أكتب هذه الصفحات، أنه قد

توفي لي أخوان ذكران، أحدهما في سن العاشرة تقريباً، وكان أصغر سناً منّي بثلاث سنوات، والآخر في سن الرابعة من العمر.

أتساءل: كيف لا أرى صوراً لهما وحضوراً في شريط طفولتي؟! قد أفهم غياب صورتهما أحياء، ولكن كيف تنمحي من الذاكرة صدمة موت الأول ثم الثاني بعد سنوات، وأنا في كامل الوعي لأمور كثيرة أخرى تفصيلية وتافهة؟ غياب الأخ والأخوين، ونعيش معاً في غرفة واحدة، لا يمكن ولا يعقل أن لا يترك ندبات نفسية عميقة! ومع ذلك فقد ولدا وماتا من دون أيّة ذكريات عنهما.

تفسيري غير المقنع أنّي لا أذكر ساعات صفاء ومشاركة في اللهو والمغامرة، أو الحديث بيني وبين الأكبر أو الأصغر من إخوتي أو أبناء عمومتي.

لم نشترك معاً في ألعاب أو نزهات أو منافسة. وجودي بينهم حضور تعايش لا تعامل، غيابهم لم ينقص أو ينغّص أو يبدّل من حالة وجودي المنطوي، إنّهم إخوتي في حدود رابطة الدم دون علاقات مشاركة وترابط، أو علاقات تناحر واقتتال كما يفترض قيامها.

ببساطة مرعبة سقطا غائبين، وأسدل الستار. كان يقول الوالد ويعيد: «موت الأطفال رحمة لهم، والدنيا دار عذاب، إنّهم يصعدون إلى السماء مع الملائكة الطاهرين».

وقد يكون الأقرب للمنطق في تعليل ذلك أن الطفل في أعراف تلك الأيام ليس أكثر من مشروع إنسان، ولا يثير وجوده وصحته انتباه الأهل إلاّ إذا تجاوز مرحلة الطفولة، أي تجاوز احتمال الموت، يقضي على العدد الأكبر من الأطفال المولودين.

ونتيجة لقسوة ظروف العيش وكثرة الأعباء، وتعاقب الولادات فإن موت الطفل رحمة للجميع. ووفاة الطفل لا تستوجب في حينه إقامة طقوس للحزن والفجيعة والعزاء.

■ السجن الجديد في المدرسة

أمسك الوالد بيدي، ولا يزيد عمري عن خمس سنوات أو دون ذلك، وأسلمني مع أخي إلى سجن نهاري، هو كتّاب الشيخ السفرجلاني.

موقع هذه الزريبة في بناء تاريخي شُيِّدَ أيام الملك العادل قرب المدرسة الظاهرية.

بعد تقبيل اليد الممدودة، استهل والدي الحديث بما معناه، أو كما فهمت منه بعد ذلك: التربية تهذيب وتشذيب، أرجو أن لا تتهاون، فالشحم واللحم لك والعظام إذا سلمت فهي نصيبنا، وهي مقولة شائعة، وحكمة أزلية تعطي الشيخ المربّي سلطات غير محدودة على طلابه ومريديه، يستخدمهم في قضاء حاجاته الخاصة، وقد تبلغ حدود العدوان عليهم جنسياً، واللواطة عملة دارجة معروفة منتشرة في أوساط الكتاتيب، وغير مستهجنة في تلك الأيام.

يجلس الشيخ في صدر غرفة فسيحة رطبة ومظلمة، ولو كانت الشمس ساطعة في النهار. مقامه مرتفع على منصة تشرف على القرود الجالسين أمامه، يحمل في يمناه عصا طويلة تطال أبعدهم عنه حيث يجلس الأطفال على الأرض فوق حصير من القش الخشن جداً، على ركبتهم، ويهتزون مع حركات وأنغام صوت المدرس، يردِّدون ما يتلو من آيات القرآن بنغمة رتيبة، أو ينشدون معاً مدائح نبوية. ويتخلّل الانسجام مع النغم واهتزاز الرأس والجذوع طرباً دويّ رعد هو صوت الشيخ إذا اكتشف أن أحد الأطفال لا يشارك، أو يهمس أو يبتسم أو يطلب إذناً لقضاء ضرورة. وتطال العصا الناشز والقريبين منه، ويمتلىء الفم بالزبد مع سيل هادر من الشتائم والتهديد.

نقلت من الكتّاب بعد أشهر إلى مدرسة التجارة الخاصة، وهي دار فسيحة تقع في زقاق البوص جانب سوق الحميدية.

على الرغم من أن المدرسة الجديدة استثمار تجاري يستهدف الربح، فالطريق الأمثل والأفضل لتحقيق المزيد من الشهرة هو التجاوب مع الأجواء

التربوية السائدة في حينه. وعليه فالتشدُّد في تطبيق قواعد التشذيب قبل التهذيب ضروري (التشذيب والتهذيب في القاموس قطع الزوائد وقص وتسوية الأغصان وتقويم المعوج منها). إنَّها الوسيلة التربوية المثلى في التعامل مع الأطفال القرود بغية تحقيق المزيد من الشهرة ونجاح المشروع التجاري.

أعيد التوضيح: لولا تقبُّل الأهل واستحسانهم للسلوك المدرسي في استعمال القسوة مع الأطفال، لما استمرت المدرسة الخاصة في ممارسة الضرب والإهانة والتهديد لتحقيق المزيد من الشهرة والأرباح للمدرسة والمدرسين.

يعامل الطفل في البيت والمدرسة على السواء كحيوان صغير، ولا بدَّ من الشدة لتكون عملية التدجين ناجحة. والتدجين صياغة الجيل الجديد في القوالب المحكمة الضيقة، بحيث تُتِمّ المدرسة ما بدأه الأهل في البيت، لتكون الحصيلة أطفالاً وأحفاداً طبق الأصل عن الآباء والأجداد.

تعرّفت في مدرسة التجارة على الفلقة، (وهي عصا غليظة مشدود على طرفيها حبل توضع أقدام المحكوم عليهم بين العصا والحبل وتشد بالفتل).

يرمي أعوان الجلاد الطفل على الحصير، ويمسكون بجذعه ويرفعون قدميه. والجلاّد عادة بواب المدرسة وسجّانها. ويزداد عنف الخيزرانة أو قضيب الرمان أو السفرجل المنقوعة في الماء منذ الصباح، كلما اشتدت تضرعات وصراخ الطفل، تتواتر الجلدات متسارعة والمدير والمعلمون منشرحو الصدور. ولو سال الدم من قدمي الضحية، وغاب عن وعيه من شدة الألم، يسكب عندئذ سطل الماء البارد على الوجه والقدمين ليتمكن الجلاد من إكمال المهمة في تنفيذ الأحكام. ويعيد الماء البارد على الرأس الوعي للضحية وقد أغمي عليها من الألم، وتأثيره على القدمين يزيد من حدة آلام الضرب بالعصا.

ينفّس الحكّام والجلادون معاً أحقادهم الدفينة بشحنة من العنف (السادي) المرضي، وترتاح نفوسهم بتقويم وإخضاع وقهر النفوس البريئة.

لم تكن الفلقة الأداة الوحيدة للعذاب العلني، ففي الجنحة الخفيفة تكون العقوبة (مشاورة): يحمل الطفل من وسطه، ويبدأ الضرب بالخيزرانة على قفاه.

وفي الخطيئة الأكبر، والتصنيف اعتباطي مزاجي، يُرمى بالطفل بعد الفلقة في المرحاض وحول عنقه أباريق، يتطهّر بها المدير والمعلمون، ولكل منهم إبريق خاص. ويترك الطفل سجيناً عدة ساعات وبعدها يتم التشهير به علناً أمام الجميع.

يراعي الحكّام في ادارة المدرسة وبدقة الاعتبارات الاجتماعية في أحكامهم وعقوباتهم، فالعدالة مرنة وظرفية، يُعفى منها أطفال أصحاب النفوذ أو أبناء العائلات، يُدعى الطفل المشاكس من أبناء طبقة الخواص إلى غرفة المدير، فيأخذه بالنصح والملاطفة مع تحياته للوالد الكريم. فالأخطاء والجنح والجرائم التي تستحق العقوبة هي للدراويش دون غيرهم. وهي لا تعدو الكلام في أثناء الدرس، أو الضحك أو الاختباء هرباً من الدرس أو الوظيفة، أو الوصول متأخراً في الصباح. ونادراً ما تتجاوز ذلك للعناد والتمرُّد على الأوامر.

يذهب أطفال الوجهاء أصحاب النفوذ ظهراً إلى بيوتهم لتناول الطعام أو يحمل إليهم خدمهم أوعية الطعام الساخن إلى المدرسة. وأمّا نحن أبناء الجارية، فتدس الوالدة في جيب البنطال رغيفاً مع قطعة جبن مالحة، نفتّتها قطعاً صغيرة، ندسّها في أفواهنا خلسة في الفترات بين الدروس، أو نبلعها بسرعة وقد أدار المعلم ظهره أثناء الدرس.

انتقلت بعد سنتين، وعمري في السادسة تقريباً، إلى مدرسة حكومية (مدرسة الملك الظاهر) اللغة المتداولة التركية حصراً، وتحت طائلة العقوبة حتى في فترات ما بين الدروس. ومعلم اللغة العربية تركي أيضاً.

أجواء المدرسة الأميرية أسوأ من المدرسة الخاصة. بعض المدرّسين والمدير كذلك ضباط متقاعدون، قساة على أنفسهم وعلى الأطفال جنودهم الأغرار، والجندي في حينه ظلّ سيّده وتابعه. شهدت منظراً لا أنساه في حي

سوق ساروجة: ضابط تركي يركب حصانه نهاراً، يسير في ركابه جندي يحمل (النرجيلة) يهرول الجندي خوف أن يفلت النربيش من فم سيده المدخن على ظهر جواده، ويشق القائد العظيم طريقه بين الناس الذين يفسحون له الطريق.

نُنهي أسبوع المدرسة يوم الخميس بمسرحية الفلقة التقليدي، ذخيرة حية ليوم عطلة الجمعة. طريقنا إلى المدرسة صباحاً طويلة، لا مظلة ولا معطف ولا قفاز. تصب على رؤوسنا في الشتاء مزاريب البيوت، تلقي بالماء الطيني. نغتسل في ملابسنا والماء يجري حتى القدمين ويسيل من الذقن بعد أن فاض عن الطربوش، وتغوص أقدامنا في برك الشارع الترابي.

الشوارع المرصوفة بالحجارة نادرة، وطريقنا حارات ضيقة طينية، تزل الأقدام فيها، نلتصق بجدران الدور خوفاً من الحمير الفالتة، تحمل القمح أو الطحين أو التراب الأحمر، أو ليتسع المجال لمرور أحمال الحطب أو التبن على قافلة الجمال.

نعود إلى الدار مساءً وظهورنا مرشومة بالطين حتى الرقبة لأن الحذاء يخفق في القدمين مع كل خطوة بسبب سعته الزائدة. ونتيجة للركض نحاول تخفيف بلل الألبسة الداخلية.

كنت أُصاب أيام البرد الشديد بما يسمَّى (بالتثليج). وهي حالة شائعة في حينه، تبدأ بظهور زرقة شديدة مع خدر ونمل في أصابع القدمين، فإذا اشتد الصقيع ظهرت القروح النازة واشتدت الآلام. أسباب هذه الحالة سوء ارتواء وانسداد غير كامل للعروق الدموية (تجمد نهايات الأطراف) مع سوء التغذية.

أصرخ متضرعاً باكياً في الصباح عند لبس الحذاء الجلدي بينما لا يزعجني كثيراً القبقاب الخشبي في الدار والأزقة.

يقطر الماء من أرجلنا عند العودة من المدرسة، ننزع الحذاء بصعوبة في المساء، فنجدها صباحاً متجمدة كقطعة من الجليد. أُلاقي العذاب الرهيب

في محاولات إدخال أصابع القدم المتقرحة في قالب الجليد خاصة وأنَّ الوالدة قد وضعت حول القروح قطعة من القطن مع خرقة تربطها. وقد يمتد التثليج إلى أصابع اليدين ايضاً. من المؤكّد أنّي كنت في حالة سوء تغذية مزمنة كما كان نحولي الشديد نتيجة للحمية (خبزة وجبنة) صباحاً وظهراً، وكثيراً ما يشمل وجبة العشاء أيضاً؛ والطعام في القدر فوق النار لم ينضج قبل أن ننام.

الفواكه (تفكّه) أي إضافة زائدة للتسلية والتفاخر. تتوفر الفواكه في الدار مع مواسمها، يحملها الأهل من بستان العائلة، وهي على أي حال غير مدرجة في قائمة حاجات الدار لأنها ترف وامتياز تزيّن بها مائدة الضيوف، وحضورهم على الموائد مناسبات محدَّدة بالأفراح والمآتم.

أعود إلى رحلة الطريق اليومية في أزقة وحارات القيمرية والعمارة من المدرسة وإليها. نركض، نخاف أن نتأخر صباحاً، والأصح أننا نحاول الركض والعجلة على الرغم من آلام القدمين لتنشيط دوران قطرات الدماء القليلة أصلاً، والتي لم تتجمد في العروق.

نتمنى لو يتسع الوقت صباحاً او تكون الامكانيات المادية كافية لنتمتّع بشراء الشمندر المسلوق الساخن، وتتراقص الشياطين أمام عيوننا لمنظر البخار المتصاعد من حلة (الألماسية) (حليب مع النشاء) وكعكة طريَّة تُغمس فيها.

■ عصابات الزعران

نخرج مساء من بوابة المدرسة لنواجه في بعض الأيام عصبة من الملثّمين، يحملون العصي أو يشهرون سلاحاً (موسى كباس)، يتحرشون بلابسي البنطالات من الصغار بالكلام الفاحش، يحاولون إرهاب الأطفال، أو تمتد أيديهم للبعض. وتبدأ المطاردة ويعمّ الفزع والصراخ، ويخرج بوّاب المدرسة ومعاونوه يدافعون ويدفعون الأشرار، وقد يشترك المارة أو المعلمون في الدفاع عن الأبرياء.

جريمة الأطفال أنهم يشبهون البنات بلون بشرتهم البيضاء وتصفيف شعرهم الأشقر ونظافة ملابسهم، وعليه فإنَّهم أسهل تناولاً من البنت التي تحميها أسوار الدار. والتعامل مع اللواط أسلم من التحرش بالبنات لأن العلاقات اللواطية عدوان مجاني، وليست له مضاعفات.

الانحراف الجنسي نتيجة الكبت شائع في البلاد الإسلامية بشكل عام لأن الأنثى اذا اغتُصبت ولطِّخت شرف العائلة ـ كما تقضي الشهامة والأعراف التقليدية ـ يجعل من العدوان على الأطفال البديل الممكن. ويقابل اللواط عند الذكور علاقات منحرفة ايضاً بين الاناث (بنات العشرة). لم أقرأ إلاَّ في أدب الرحلات لأجانب زاروا المشرق الإسلامي روايات عن مدى انتشار الانحراف الجنسي في جميع بلاد المنطقة.

إنَّ إهمال أو تجنب الإشارة لوجود هذا الانحراف وأسبابه، هروب من المشاكل والمتاعب للباحثين العرب رغم أن الأدب العربي أيام العباسيين زاخر بإشارات صريحة للغزل بالفتى صنواً جنسياً للأنثى، أو هو مفضّل عنها لسلامة العواقب.

الجنس بقاء النوع، والغذاء بقاء الذات، والانسان خاضع لغرائزه شاءت الأعراف والتقاليد والعقل ذلك، أو حاولت إنكار وجوده.

والموضوع برمته ترك آثاراً كبيرة في تكوين جيلي النفسي، وساهم لدرجة كبيرة في تعميق مشاعر الخوف والريبة والحذر من المجتمع بكامله، وأكمل إحكام حلقة الخوف والرعب المقيم في النفس الطفولية، من البيت والمدرسة والطريق للوصول إليهما.

كان من أبرز نتائج التعرّض للصغار قيام أجواء مخيفة من الريبة والحذر في التعامل مع الأكبر سناً من الشباب والكهول أو الأقوى عضلاً، في مجتمع تسوده شريعة السيطرة والخضوع للقوة الجسدية.

في أجواء الريبة والحذر والذعر، من تداول شائعة عن علاقة مشبوهة بين تلميذ صغير ومعلمه، يتجنب العاقلون من المدرِّسين التعاطف مع الصغار

الأذكياء النشيطين، أو تشجيعهم بالجوائز أو الكلام. إذ ينتشر الهمز واللمز لو اختص معلم بعنايته واحداً أو أكثر من تلاميذه المتفوّقين، وعليه يعمد المعلمون إلى معاملة الجميع بقسوة وشدة وجفاء.

تنقلب القيم والمفاهيم، ويصبح حتى تشجيع الصغير ومحاولة رعاية مواهبه مغامرة أو فضيحة، ويترك كل ذلك ندبات لا تزول في نفوس الأطفال، تعمق شعورهم بعداء البيئة في المدرسة والدار على السواء.

ورغم أنّي واثق من أن هذه الأجواء الكريهة أصبحت تاريخية في معظم مجتمعات المنطقة، أو أخفّ بكثير على الأقل مما كانت عليه قبل أربعين أو خمسين عاماً سالفة، رغم هذا اليقين، فإنَّ بعضاً مما ذكرت لا يزال قائماً، نتستّر عليه وننكر وجوده.

الانحراف الجنسي ظاهرة مَرضية ومعروفة في بلاد العالم من دون استثناء، والمصابون بالشذوذ يعلنون ذلك، ولهم نواديهم وأماكن اجتماعاتهم، ذلك أن حرية الفرد مصونة للجميع وفي حدود عدم إيذاء الآخرين والعدوان على حريتهم بينما الضحية المقهورة حقيرة في أعراف مجتمعاتنا، يُنظر إلى المعتدي الذي يقوم باغتصاب الضعيف بقدر كاف من التغاضي عن فعلته، بل والتبرير والقبول الضمني بها. أعني من ذلك بأن الأهل يصبون نقمتهم على الضحية الضعيفة ويحمون ولدهم معجبين به إذا كان مُغتصباً لأولاد الآخرين، فالعدوان الجنسي من حقوق الأقوياء لأنهم عاجزون عن التحكم في ضبط أنفسهم أمام الإثارة والاشتهاء؟!

الطفل المقهور الذي اصبح صبياً، وقد اشتهر عنه ذلك، هو إنسان تحوّل من ذكر تفاخر به العائلة إلى أنثى أو أحط من ذلك لأنه لم يعرف كيف يدافع عن شرفه ولست أدري كيف يتيسر للطفل الضعيف ان يدافع تجاه الأشرار ممن هم أكبر منه سناً؟!.

كنت أدافع عن نفسي في هذه الأجواء المرعبة في المدرسة والطريق إليها دفاعاً سلبياً، يتفق وينسجم وما أنا عليه من النحول والضعف الجسماني والنفسي معاً، في الانطواء على الذات المقموعة.

أُلخِّص دفاعي السلبي بأنّي كنت أهمل ملابسي ومظهري الخارجي، أجلس في الشمس المحرقة في الصيف ليسودّ وجهي، كذلك كنت أرفض مثلاً الملابس الجديدة، وأُفضِّل وبإصرار الملابس المهلهلة العتيقة، وأحلق شعر الرأس بالماكينة (على الصفر). ولم أعرف البنطال القصير الذي يكشف عن الركبة، وهي عورة، حتى وأنا ألعب بكرة القدم بعد ذلك بأعوام.

والخلاصة: كانت أحاديث وشائعات عصابات اللواط والخوف من الكبار، حتى من المعلمين أو غيرهم، هاجس حياتنا اليومية وخوفنا المقيم في أعماقنا. وكانت نتيجة ذلك إخصاءً فعلياً تربوياً للشباب من الذكور اليافعين، وتعميقاً رهيباً لامتهان الأنثى، واعتبار العلاقات الجنسية حتى بين الزوجين عدواناً واغتصاباً وبرهان رجولة.

■ العطلة الصيفية

يضيق سجن الدار بساكينه مع أطفالهم أيّام العطلة الصيفية، أي بعد الإفراج عنهم مؤقتاً من سجن المدرسة، وتدبّر للبعض من الذكور عملية إقصاء عن الدار للتدريب والتدجين. ولست أدري حتى الآن لماذا كنت دون أخي الأكبر موضوع الإبعاد، أقضي العطلة في خدمة خفيفة خارج الدار، السبب كما أظن يرجع إلى أنّي لست الولد البكر لأهلي، وإنّي إضافة إلى ذلك نحيل ضعيف ومطيع.

الوظيفة الجديدة هي خدمة دكان العم في سوق مدحت باشا الذي يبيع العباءات، أو إبن العم في سوق الخياطين ويبيع (الألاجا) وهي أقمشة حريرية للقنباز. وظيفتي أجير، أُكنِّس الأرض، وأرش الماء أمام الدكان، وأجلب الماء والعرقسوس، أو أبقى عند العتبة ناطوراً أتفرّج.

وعمري في حينه ما بين السادسة والعاشرة.. أي خلال السنوات الابتدائية، كان يسمح لي معلمي الصيفي بممارسة تجارة (الكشة) أمام الدكان، أضعها على كرسي منخفض، أبيع الأساور الملونة الزجاجية، أو أدوات الخياطة مما يستعمل في البيوت. والهدف طبعاً تشجيع وتمرين الطفل

على تعاطي التجارة والشطارة، وهي فضائل لا تكتسب إلاّ بالممارسة والتمرين.

وقد تعرضت لعدد من النكسات كالسرقة أو خطف البضاعة، وخسرت رأس المال مرات عديدة. كان يدفع لي الأعمام في نهاية الخدمة الإلزامية إكرامية قدرها (مجيديان) أي ما يعادل ليرتين سوريتين. أطير فرحاً إلى الدار لإيداعهما في «المكمورة» حيث نجمع ما يجود علينا الأفاضل به في الأعياد والمناسبات.

■ ذكريات ضبابية متفرقة

من الذكريات عن ليالي الأرق الذي كنت أُصاب به أحياناً خوف البلل الليلي، أني كنت أُتابع حركة سرير الوالدين وصريره في هدوء الليل، أُتابع مستغرباً ما كان يبدو لي كأنه مناجاة هامسة بينما اللهجة العلنية بين الزوجين في النهار تعنيف واستخفاف، ولا ينادي الوالد زوجته علناً إلاّ بجملة (وينكم يا..؟).

يستحيل على طفل في سن السادسة أو السابعة تصوُّر ما يجري في الليل البهيم، ومع ذلك فإنَّ الشيء المؤكّد أنّي كنت أشعر بالحقد تجاه والدي صباحاً، وأتصور أنه كان عدوانياً تجاه الوالدة الضحية. كنت أتأكّد من حدوث العدوان على الوالدة ليلاً عندما أُشاهد الوالد يحمل المنشفة في الصباح الباكر. وقبل أن يصحو أهل الدار، ينزع ملابسه أمام حوض الباحة، ويعلن النية في إسقاط الغسل بصوت جهوري، وكنت أُتابع ذلك خلسة من وراء (الدرابزين) في الطابق العلوي.

يغطس في الماء ثلاث مرات بعد أن يسد بأصابعه أنفه وأذنيه وعينيه. وقد استمر يمارس ذلك بعد أن تجاوز الستين من عمره. كان يضطر أحياناً إلى كسر الجليد على سطح الماء المتجمّد في الشتاء القارص، ويغطس وفي الهواء الطلق ثم يتناول المنشفة، يلفها على وسطه، ويؤدِّي الصلاة حامداً شاكراً.

كانت والدتي أقرب إليّ جسدياً وعاطفياً، فهي متعهدة شؤون الأولاد جميعاً في الطعام والكساء والمدرسة. وكانت تتعاطف وتشفق عليّ وتدافع عنّي تجاه أخي الأكبر. وحضنها ملجأ نفساني أرتاح إليه، وأطرب وهي تدمدم بصوت خافت أغاني الأيام، كما أنها عدوة أعدائي البراغيث والقمل والبق في مواسمه.

بينما الوالد بعيد عنّي جسدياً وفكرياً. علاقتنا وديّة عن بُعد، ولكنها غير حميمة. تهددني الوالدة بإبلاغه المخالفات، فهو سلطة القمع ومخفر الشرطة.

نادراً ما كنت رفيقه في الطريق. كان يصطحبني خلف مركوبه (كديشة حمراء). أتمسّك به بيديّ، وتمتد الرحلة ساعتين تقريباً، نقطع فيه خمسة عشر كيلومتراً تقريباً (قرية بزينة) في الغوطة الشرقية. وركوب الدابة دون سرج لطفل صغير منهك جداً، تبتل ملابسي من عرق الدابة في الشمس المحرقة. لا أتذكّر أي نوع من الحديث خلال الساعتين، فلا سؤال عن المدرسة ولا مجاملة، وقد يغلب عليّ التعب والنعاس، فيهزّني عندما يشعر بارتخاء قبضتي اليدين الصغيرتين على وسطه.

كان أخي الأكبر رفيقه والمقرّب منه، يعتني بالدابة ينظّفها ويطعمها في إسطبل يقع أمام الدار، ويسمح له الوالد بركوبها لقاء خدماته.

لا وجود في الدار لأي نوع من التسلية أو التخفيف من أجواء التوتر المستمر، سوى تجويد آيات من الذكر الحكيم. اقتنى اثنان من الأعمام فونوغرافاً كانا يخفيانه في غرفهما لئلا يسمع أو يرى الوالد، أكبر الأخوة، أدوات الشيطان تلهي عن ذكر الله.

كان الوالد يردّد، وأخوته كذلك، في كل مناسبة أو دون مناسبة، أن العائلة العشيرة نوعية خاصة متميزة، فليس فيها فرد له سلوك شائن إلاّ، أصلحه الله، إبن أحد الأخوة، فهو يدخن!

وقد عرفت بعد سنوات قصصاً عديدة عن مخاز وانحرافات كما يفترض

ان يوجد مثل ذلك في كل عائلة أو مجتمع انساني.

عالم الشارع ليلاً عجيب ورهيب لا يجرؤ إلاّ الكهول والشيوخ حاملو الفانوس اليدوي والعصا الغليظة على ارتياده، فالأشقياء متربِّصون في الزوايا يهدّدون بخناجرهم. وقد تعرّض جدِّي لأمي لاختطاف لَفّتِه مرات عديدة، وهو عائد من صلاة الصبح كإمام لجامع. وبعد الغروب يتطوح السكارى وخاصة في القسم الغربي من المدينة يتوعّدون ويعتدون. وتقفر الشوارع نهائياً ويحكم إغلاق الأبواب والبوابات بعد صلاة العشاء. تبقى الأزقة مسرحاً لقطيع الكلاب الشاردة لا يتوقف تقاتلها ونباحها، ويحمل الحراس الليليون عصياً غليظة، وتدوي صفاراتهم، يتخاطبون بلغتها دفعاً لسلطان النوم. ويفصل الحارس من وظيفته إذا ضُبط نائماً، وتنتهي أيام الأمر والنهي والتسلط على المارة والبائعين فقد كان للحارس مهابة، يوقف المارة ليلاً يسألهم من أين وإلى أين، وله الحق في أن يقتادهم إلى المخفر ويحتجزهم للتحقيق.

ومع الصباح الباكر تسرح الحمير والجِمال بأحمالها. يسوق قطيع الحمير الفلتانة يافع يركب واحداً منها في المؤخّرة من دون سرج ولا أرسنة وبيده خيزرانة يلوّح بها، ويصرخ بأعلى صوته يحذّر المارة من القافلة السارحة. لا أرصفة، والطين وبرك الماء وأوساخ البيوت مرمية في عرض الطريق.

كذلك تدخل المدينة أرتال من الجِمال من دون أرسنة يقودها بدوي، تحمل القمح أو تكون مربوطة، بعضها وراء بعض، تحمل الحطب أو التبن، يباع لأصحاب الاصطبلات.

ولكل عائلة ميسورة نسبياً اسطبل بين الدور فيه دابة أو أكثر. وللأغنياء عربات خاصة لها اصطبلات واسعة. وتحوي الاصطبلات أحياناً بعض الأبقار من أجل الحليب، فالروائح وأسراب الذباب والناموس هي أجواء أزقة القرية الكبيرة، خاصة مع أكوام روث الحيوانات أو البشر.

الطربوش على الرأس عنوان الشرف ورمزه، وخطف الطربوش أو سقوطه في الاقتتال إهانة كبيرة للشرف الرفيع.

لا يُنزع الطربوش بل يمسح الرأس في أثناء الوضوء بعد رفع الطربوش قليلاً، ويكبس حتى الأذنين عند ممارسة الرياضة السويدية، أو على أراجيح الجمناستيك في المدرسة الثانوية (مكتب عنبر).

ذكرياتي عن رحيل الأتراك ودخول الجيش العربي والبريطاني سماعية وهامشية. دارنا في طرف المدينة، نسمع الأخبار من المارة، ولا وجود للجريدة في حياتنا على الأقل. كذلك لا مجالس للحديث ولا بين الأخوة الكبار في البيت الواحد، يدخل كل منهم إلى غرفته ولا يتركها إلاَّ في الصباح الباكر.

من الصّور الراسبة في قاع الذاكرة مشاهد تشييع جنازة جدّي لوالدي الذي توفي عام ١٩١٨.

حدث في اليوم الثالث من المأتم أن اجتمع أمام الدار حشد كبير من الفقراء، نساءً وأطفالاً وشيوخاً، يوجِّههم ويقودهم شباب مفتولو السواعد يُطلق عليهم اسم (الكلاليب)، وهي جمع كلاّب، ولهم تنظيم (عصابة تعاونية)، يوجّه نشاطاتهم في مناسبات مشابهة.

قام أهل الدار جميعاً بحفر كميات كبيرة من الكوسا المحشو بالبرغل، وبدأ توزيع رغيف وكوساية، بعد ان تمَّ ترتيب الصفوف بخيزرانات أهل الدار وأزلامهم. وفجأة دبَّت الفوضى واختلطت الجموع، وبدأ الخطف والصراخ وضرب العصي وتوقف التوزيع، فعمد الأعمام وأزلامهم إلى وسيلة مضمونة لئلا يحتال أحدهم فيأخذ نصيباً ثانياً إذ دمغوا ظهر مستلم الكوساية والرغيف بخاتم أزرق اللون، فارتفع الصخب والشتائم واللعنات. فقُوبلت بالتأديب والطرد، مد وجزر، والجياع الحقيقيون من الشيوخ والأطفال بين الأرجل متفرجين أو هاربين.

تضم هذه الجموع التي تتبع الجنائز إلى المقابر عدداً من الزعران الأشداء، يفرضون الأتاوات بحسب مركز وثروة المتوفى وأهله. وقد يمتنعون عن إنزال الجثة إلى القبر قبل أن يرضيهم أهل المتوفى الذين يخافون فضيحة مجلجلة علنية.

حضر في يوم الأربعين للوفاة عدد من هؤلاء الكلاليب مع عدد من المشايخ لإقامة حفلة (الذكر) لروح الفقيد وإسقاط الصلاة.

كان عدد الحاضرين الجالسين في صحن دار جدّي ما بين ٢٠ ـ ٣٠ شخصاً، ينشدون مدائح نبوية، ويهتزون بعنف، يذكرون الله. بعد انتهاء الذكر تقدّم أحد الأعمام بصرة، قيل متأخراً إنها تحتوي مجوهرات ومبلغاً من النقود.

وقد يستعير أهل المتوفى من الأقارب والجيران كمية من المال أو المجوهرات، لتوضع في الصرّة إذا كان تقدير الأهل بأن المبلغ غير كاف لسداد إهمال المتوفى لصلاته، ولتكون صفقة العفو والغفران مقبولة من دون غش أو تدليس!!

يقول حامل الصرّة بحرص خوف أن يختطفها منه الجالس أمامه: «أقبل صدقة عن روح فلان المتوفى وأدع له بالمغفرة عن السهو والإهمال عن أداء الصلاة»، فيجيب الجالس دون ان يلمس الصرّة بقبول الصدقة الكاذبة، وبالدعاء للمتوفى بالرحمة، ويردّها من دون مساسها قائلاً: «قبلتها صدقة لخلاص فلان وأردها إليك شاكراً». وينتقل حامل الصرّة إلى الذي يجلس بعده، وتتكرّر العبارات والرد بتسارع حتى ينتهي من الحضور. ويرافق حامل الصرّة إثنان من أزلام أهل البيت يحملان عصياً غليظة، إحتياطاً لكل مفاجأة غير سارة.

صور مفضوحة للنفاق الاجتماعي على الأرض والسماء معاً، وتبرير ذلك في سؤال طرحته عن صحة ذلك بعد سنوات عديدة، يقولون أنها غير جائزة شرعاً، ولكنها التقاليد، يلتزم بها الجميع تجاه المتوفين.

■ خلاصة ونتائج

سوف يتّهمني قارئي بأنّي قد سوّدت بالسخام ذكريات مترسبة منذ سبعين عاماً أو يزيد، وان المبالغة مقصودة أو هي إفراز عادي لأيام الشيخوخة الكئيبة.

إتهامي بالمبالغة فيما سردت في هذا الفصل، موقف له مبرراته، فقد تعذّر على زوجتي وأولادي تصديق ما قرأوه من مسودات أوراقي، وعليه فقد راجعت نفسي مرات عديدة وشطبت الكثير مما هو أشد هولاً، حرصاً وخوفاً من الإساءة لذكرى بعض الأقارب المتوفين، ثم لو كان ما ذكرته نكوصاً وعودة هذيان أيام العزلة والوحدة في الطفولة، لوجب أن يستمر في مجال التفاخر والمباهاة، ولكنه نقيض ذلك تماماً، فإنّي أُعرّي ذاتي في السن المتقدمة وأنبش بصدق عن جذور عيوبي. إنّها نفثات الصدر لذكريات مطمورة لم تدفن ولم تتحلل وتتبخّر، وقد كنت خلال حياتي أتذكرها وأعود إليها في محاسبة للذات ومراجعة للنفس.

إن ما حرصت على توصيفه شؤون لا تختص بها عائلتي، فلسنا في هذا المجتمع سوى خلية، ويضم المجتمع من دون أي شك خلايا في أوضاع أسوأ وأجواء أشد قسوة مما كنا عليه كما أن في مجتمع تلك الأيام عائلات محدودة جداً يعامل فيها الأطفال، وخاصة إذا كان الذكر وحيداً، معاملة مختلفة تماماً عمّا وصفت، هذه القلة المحظوظة تستقبل معلم أولادها في قاعات الدار الفسيحة وعلى الموائد السخية. إنّهم فئة قليلة جداً كما ذكرت من الأثرياء بشكل مطلق لا نسبي، من المالكين العقاريين والتجار أو من كبار الموظفين من أهل السلطة. يرسل اليافعون من الأطفال بعد ذلك ليُتِمُّوا علومهم في مدارس الإرساليات في بيروت أو غيرها من المدن خارج سوريا.

لقد نشأت وتكوّنت في عائلة محافظة، ولكنّها رحيمة في مقياس أيام زمان، فوالدي لم يضربني اطلاقاً بينما استعمال العصا والسجن والقيود للأطفال الصغار شائع وعادي في أعراف تلك الأيام، وخاصة في حالات تعدُّد الزوجات أو موت أحد الوالدين.

كانت تُرسل الزوجة إلى أهلها في حال مرضها وعجزها عن أداء خدمات الزوج الخاصة والعامة، ولا تعود إلى بيت الزوجية إلاّ بعد شفائها وهي صالحة للاستخدام.

وقد يرد اعتراض معقول على التحليل الذاتي لتكويني النفساني

وجذوره، يقول مثلاً إن هناك أكثرية ساحقة من أبناء جيلك عاشوا في ظروف أشد قسوة مادياً ونفسانياً مما وصفت، ولم تسحقهم ظروفهم.

أطفال الأكثرية الساحقة المشار إليها يرسلهم أهلهم، ويجبرونهم أحياناً على العمل والكسب وتعلم المهنة، وهم أطفال صغار، وأهلهم بحاجة إلى دخلهم الضئيل، وليس بإمكانهم الاستغناء عن ذلك الدخل بإرسالهم إلى المدرسة.

فالمشكلة في حالتي أنّي من عائلة وسطية، ليست ماديًا في أسفل القاع، وهي رغم ذلك عائلة متشبثة بأمجاد التاريخ البعيد تنتظر عساه يعود، حريصة على اللقب عنواناً للتميُّز الكاذب، وعلى الظهور أمام الآخرين في مستويات أرفع بكثير من إمكانياتها.

الطفل الذي يواجه مشاكل الحياة مبكراً، وباستجابة واقعية لأوضاع أهله في الحقل أو الخدمة، هو طفل منسجم مع نفسه وواقعه ورفاق عمله، ومع بيئة المجتمع حيث ينمو ويتعلم كيف يشق طريقه، وكيف يدافع عن نفسه ويواجه مشاكله بصدق وصراحة.

إنّه يتمتع بطفولة طبيعية منطلقة مفتوحة، يقاتل، يخادع، يكذب، ويمارس الحيلة للبقاء والتفوق من دون وصاية وكبت وإرهاب.

الخوف ثم الرعب والذعر حواجز نفسية ترتفع تدريجياً بتكرار عوامل إثارتها، ترتفع بحيث تفرض على الطفل أو الشاب أو الكهل النكوص والارتداد أمام التهديد والارهاب، أو بالعكس تشتد عزيمة المنطلقين، لا تشدُّهم الأيدي والاعتبارات، فيواجهون التحدّي ويتجاوزون حاجز الخوف.

يخضع الإنسان في الحالة الأولى وبسهولة بعد ذلك للمؤثرات المرعبة الفعلية أو النفسانية، ولو كانت تلميحاً واحتمالاً غير مؤكّد، بينما يتحدّى الطفل الآخر الذي نشأ في بيت تحكمه الشدّة والضرب للزوجة والأطفال معاً، يتحدّى كل ذلك، ويتلقّى الصفعات لا يهتز، ثم يتدرّج حتى مرحلة التعذيب القاسي، ويبلغ مرحلة الصمود والتصدّي بالتلقيح المتدرج، ولا ينفع

بعد ذلك في ردعه وهو شاب أو كهل التعذيب الفعلي مهما كان شديداً، بل قد يفاخر بأنه يتلقَّى ذلك باستخفاف وسخرية، ويصبح السجن نزهة للمعتادين عليه، وتزداد طاقات التحمُّل مع المزيد من الإكراه الجسدي والنفساني.

لست أريد التبسط في استعراض نماذج تربوية للطبقة الثرية، إنها أيضاً منسجمة مع واقعها في تكوين وتنشئة اطفالها. إنهم يعيشون في أبراجهم العاجية، يتعاملون فيما بينهم كطبقة مفصومة عن مجتمعها، ولكنها منسجمة فيما بينها. إنَّهم مغتربون عن مجتمعاتهم، مستكبرون، يرفضون انتماءهم للبيئة حيث يعيشون، تربطهم بأوطانهم استثمارات وامتيازات، إذا انتقصت أو زالت، انقطعت أسباب بقائهم في تلك الأوطان، والمثل الأعلى لديهم الغرب والاغتراب خارج الحدود.

لقد أعطت الطبقة الوسطى المعلّقة من جيلي في ظل ديمقراطية التعليم أكبر شرائح القيادات الفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية. وكانت بفضل الوعي الاجتماعي هي الفئة القائدة. إنَّها من وسط المجتمع ومن قواعده بينما العائلات الثرية المترفة، وافدة أو سهلة الانفصال، والثروة لا تتمسك إلاّ بالربح لا بالأرض.

إنِّي أرى في نفسي عيِّنة عشوائية من الطبقة الوسطى، تمَّت صياغتها في أجواء القمع والظلم والإرهاب.

الفصل الثاني

مرحلة التدجين

١٩٢٠ - ١٩٢٨

تراودني وقد أنهيت تسجيل مرحلة تكويني النفسي في الطفولة، مشاعر كسل وضيق ورغبة في الاسترخاء، أكاد معها أنفض يدي من القلم والورق.

سوف تكون ذكرياتي بعد الآن سرداً لشواهد تؤكِّد بأن جيل الهزائم قد ترعرع في ظل الارهاب والقمع النفساني وتمت صياغته جيلاً متردِّداً وجباناً. يتم (٩٠٪) من الركائز الأساسية للتكوين النفسي للإنسان خلال الأعوام الستة الأولى من حياة الطفل كما يؤكِّد علماء السيكولوجيا.

وتأكيداً لذلك سوف أتوقف عند مفاصل أساسية لمنعطفات سلوكي خلال حياتي الناشطة.

دخلت الجيوش العربية القطر السوري يحتويها الجيش البريطاني المنتصر عام ١٩١٨. والانكليز حريصون على مظاهر الأبهة والابهار في لباسهم وإنفاقهم وتحركهم، مشاة أو فوق مطاياهم. عتادهم لامع، وأحذيتهم (جزمة) مصقولة ونظيفة، وليراتهم الذهبية (أم حصان) يخطف بريقها الأبصار، وتنحني القامات الشامخة لرنين إيقاعها.

كانت كلمة العرب تعني شيئاً محدَّداً في أذهان عامة الناس قبل ذلك. إنَّهم جماعة البدو الحفاة فوق جمالهم أو خيولهم دون سروج، يغيرون على العمران، ويتلفون الزرع والضرع، والعداء قديم مستحكم بين الحاضرة والبادية وتاريخي.

أعتصر الذاكرة عساها تسعفني بأسطر عن ذكريات عامين بعد رحيل الأتراك في نهاية العشرينات، وهي سنوات حافلة بالأحداث، ففيها أُعلن قيام الدولة العربية، ثم دخلت فرنسا. وتمَّ ترحيل الملك فيصل بعد معركة ميسلون.

كل ذلك قرأت عنه بعد ذلك، ولكني لم أُشاهد أو أُعايش تلك الفترة إطلاقاً، فقد كان البيت المغلق حصناً معزولاً، والاهتمام أصلاً بالشؤون العامة غير وارد في الوسط العائلي العتيق، والحوار والتساؤل غير واردين بين الأجيال.

شاهدت من شباك الدار بعض حاملي العصي يهزجون (يا حمارة برابرا)، ويقصدون الأتراك، وغيرهم يردِّد أغنية أتذكر جزءاً منها: قمنا رحنا لعند البيك، أعطانا قزمة وكريك، قال تعزيل الششمة عليك، خدمة خفيفة سلاح سز. وفيها تعريض طبقي بعد زوال كابوس الحكم التركي.

كذلك لا أتذكَّر شيئاً عن استشهاد ابن عم من العائلة هو الشهيد (يوسف العظمة) وزير الحربية. سمعت في فترة متأخرة أن الشقيق الأكبر للشهيد حاول مع بعض الأقارب نصح الضابط الشاب الذي صمَّم أن يدافع عن شرفه ووطنه ولو بالشهادة. ذهبوا إليه في دار المشيرية، وكان ينام فيها لمتابعة حالة التعبئة، خرج إليهم وحيَّاهم تحية عسكرية، وأعلن لهم واقفاً أنه يأسف لعدم الاستماع إليهم، وأن لا بدَّ له من الدفاع عن موقفه، ولن يدخل الغزاة إلاَّ على جثته، ثم كرَّر التحية وانصرف. واستشهد أمثولة للأجيال وللزعماء من أجل القضية والخلود.

■ شؤون عائلية

انتقلنا من القميرية إلى دار عتيقة اشتراها الوالد في حي القنوات، واستدان لدفع ثمنها واستصلاحها. كانت الدار اصطبلاً لها بوابة كبيرة للدواب، وفي وسطها باب صغير لبني البشر. بدأت عمليات الترميم الضرورية في أضيق الامكانيات المحدودة.

كانت لي خالة تزوَّجت في حي الميدان. أسمع في كل زيارة لها مع أهلي عند نزولنا من الترامواي تعريضاً علنياً: (طيور غريبة). تلاحقنا العيون حتى ندخل الدار. وكان على الريفي القادم من حوران أن ينزع العقال عن رأسه، ولباس الرأس شرف حامله، ومعنى ذلك الاخضاع والإذلال. وإذا تلكأ عن ذلك تسابق الزعران يشدون العقال.

من مشاهد أيام زمان أن أحد «اغوات» الميدان، وصاحب أرض زراعية غير بعيدة عن خط «الترامواي»، وجد أن من حقّه نقل خضار مزرعته على حساب الدولة إلى دكان بائع الخضار باستخدام المركبة العامة يضع فيها أكياس الخضار «شليف» على مقاعد الركاب. تجاوز سائق الحافلة «الجديد» دكان الخضري بعدة أمتار فاستحقَّ الشتيمة والتهديد بالعصا وألقي به خارج الحافلة ليعيد «الآغا» المركبة ومن فيها بحركة عصبية إلى الخلف، وسقط أو أُصيب برضوض من تهاون أو عجز عن الإمساك بمقعده من الأطفال والشيوخ واعتذر الوجيه الكريم بصوت راعد من الجميع (لا تواخذونا يا جماعة إنه حيوان!!).

كذلك يحدثنا أهلنا في الأحياء النائية كيف يضطر الصغار من التلاميذ إلى ارتداء القنباز فوق البنطلون، يخلعونه ويدسُّون به في المحفظة أمام باب المدرسة. كذلك استمرت عصبيات وعنعنات الأحياء وزعرانها من الوجهاء حتى سنوات الثلاثينات إذا تلكأ ركب العريس الذي يجتاز الحي عن الاستئذان، تعرّض الركب نتيجة التهاون لخناجر وأحجار أهل الحي يعتدون عليه.

دمشق القديمة جزر وعداوات واستقلال وزعامات في حدود الحارة، يتقاسم النفوذ وجهاء الحي في المدينة الواحدة، يعادون ويصالحون، ويسمُّون المرشحين، والصامتون من السكان قطيع تابع لهم وتحت رحمة أزلامهم.

لم تتبدَّل أجواء القرية الكبيرة بعد رحيل الأتراك، واستمرت مفاهيم وعلاقات القرية قائمة حتى العقد الثالث من القرن العشرين وامتدت حتى الخمسينات. أحياء متصلة منفصلة، عزلة إقليمية محلية تجعل من الحلبي

الموظف في دمشق غريباً، والحمصي والحوراني والديري أُناس دخلاء. ويكاد المتعصّبون من الدمشقيين يطالبون بإغلاق الأبواب دون الجميع.

نصحو مع الشمس ونأوي للفراش مع المغيب، تقفر الشوارع بعد صلاة العشاء، فلا يُسمع إلاّ صوت عصي الحراس الليليين يضربونها على الأرض أو الحائط للإرهاب والتسلية، وينادون بالتحية أو المباركة أو التنبيه.

تطوَّرت للأحسن أحوال الدار المعاشية بعد ان استقل والدي باستثمار قطعة أرض هي حصته من إرث والده، مساحتها عشرة دونمات تقع ما بين قرية كفرسوسة وحي الميدان (باب مصلى).

بقي الوالد مخلصاً لطبخ الطعام على الحطب ومصراً عليه، يرفض إدخال وابور الكاز. مؤكِّداً أن نكهة الطعام ونضجه أفضل، ومذاقه متميز، ولو خمدت أنفاسنا في إيقاد الحطب الأخضر الذي يتم تكسيره ايضاً بأيدٍ وطنية أمام باب الدار.

لقد اشترى الوالد (بلطة)، وبدأ يدرّبني ويشجّعني على استعمالها كرياضة قبل الذهاب صباحاً إلى المدرسة. تحمّست للهواية النافعة، وأتقنت بسرعة المهنة الجديدة، وقد عادت عليّ بفوائد، منها نمو عضلاتي، واستعادة الثقة بالذات، فقد أنهيت ايضاً وصاية أخي وهيمنته عليّ بالضرب كلما خالفت تعاليمه كتابع يدور في فلكه. تصدّيت له ورميته أرضاً، وقامت بيننا بعد ذلك علاقات حياد إيجابي، ترقّب حذر من دون استعمال العضلات في الإقناع.

تعلقت مع بدء المرحلة الإعدادية بهواية لعبة كرة القدم أُمارسها في مرجة الحشيش (مكان معرض دمشق الدولي حالياً). وكانت سهلاً تغمره مياه بردى أيام الفيض. كنا في البدء رفاق صف، نتعاون في شراء الكرة وصيانتها بالخياطة إذا تفتّقت. وخياطة الجلد تحتاج أدوات اشتريتها (أبر معكوفة، خيوط، شمع). كانت وظيفتي الجديدة إسكافي الكرة! اندفعت في الهواية الجديدة بحماس عجيب، واستأثرت بقسط كبير من اهتمامي. أحمل الكرة وحيداً في الصباح الباكر، وقبل بزوغ الشمس في الشتاء الصقيعي، حتى أبلغ

مرجة الحشيش، وقد أبقى وحيداً ألاعب الكرة، أُباري في ارتفاعها مآذن التكية السليمانية المجاورة.

استمر في الركض واللعب فأعود إلى الدار، أدس في جيبي رغيف الخبز وقطعة الجبن أو القمردين، وأسرع لأصل إلى بوابة المدرسة قبل الثامنة.

واستمرت وظائفي في الخدمات المنزلية كما كانت سابقاً: (العجين، الخبز، النفخ تحت الحطب شراء الفواكه في موسمها الخ). أجوب دكاكين الحي والأحياء المجاورة لشراء رطل (٢,٥ كيلو) من العنب. أسعى في رحلتي هذه لتحقيق معادلة اقتصادية صعبة خلاصتها: أحسن الموجود في السوق بأرخص الأسعار!

لا أزال أتمتع بلذة النصر في الشراء، أتفحّص النوعية والسعر والمقارنة قبل الشراء. ينتقدني الأولاد ويتساءلون: لماذا لا تعتمد بقالاً يحمل للدار حاجاتها اليومية؟

حاولت الرضوخ، وتمرّدت بعد فترة، وعدت إلى قواعدي الأصيلة. تتقلص مع الأيام تدريجياً متع الحياة، ويخف الاهتمام بالصلات الاجتماعية ومسايرة موجباتها، ويعود الإنسان إلى جذوره التربوية النفسية في الطفولة. ولن أتخلى بسهولة عن متعة انتقاء الفاكهة والخضراوات وكل ما أحتاجه أو لا أحتاجه أحياناً كثيرة، ذلك أن الارتداد إلى الذات هو المحطة قبل الأخيرة في قطار لم يبلغ نهاية مطافه، ولا تزال فيه طاقة البخار وحرارة الحياة.

يتساءل البعض بالإشارة أو الغمز عن هدف حرص الكبار في السن: لماذا ولمن يوفرون وعلام هم حريصون؟ كثيراً ما يحاول معارفي في الطريق، على ندرتهم، مساعدتي بانتزاع ما أحمل من حاجات البيت، فأرفض بإباء. إنها متعتي وهوايتي الباقية أُمارسها ما بقيت قادراً على ذلك.

قبل أشهر من دخول الفرنسيين كان حديث الناس، أو الأصح ما ترسب في ذاكرتي مما سمعت في حينه، يتعاطف باحترام مع الانكليز ويخاف الفرنسيين خوفاً شديداً.

يردّد المتحدثون بأن الفرنسيين أوغاد يقتحمون البيوت ويغتصبون النساء بينما الانكليز بملابسهم المزركشة الملونة، وخيولهم المطهمة الضخمة مهذّبون ومحترمون شبعانون أكابر!! يضعون جزماتهم على صناديق ماسحي الأحذية بصلف وترفع، ويغدقون البخشيش للأطفال الذين يلاحقونهم ويمسكون لهم أعنّة الخيل. ذلك أنهم يقبضون ويدفعون بالليرات الذهبية، وقد نعمت دمشق بدخولهم مع الجيش العربي بالرخاء النسبي إذ استوردوا الرز والسكر بعد شدة وحرمان أيام الأتراك.

وتصبح بريطانيا، صاحبة وعد بلفور ورأس أفعى الاستعمار، والعدو المتربّص، تصبح برشوات رخيصة مفضوحة وأخرى أكبر مستورة، الدولة المفضّلة. إذا كان لا بد من الأجنبي (كما يقول استطلاع وتقرير للجنة كراين عام ١٩١٩): إذا رفضت أمريكا قبول الانتداب فلا بأس ببريطانيا بينما فرنسا مرفوضة بما يشبه الإجماع.

رغم كل ما ذكرت، ورغم أن فرنسا اجتاحت سوريا بعد حرب استشهد فيها الكثيرون، فقد شهدت بأم عيني بعد مرور شهرين تقريباً على الاحتلال الفرنسي، شاهدت في حي القنوات قرب دارنا تهافت وتزاحم وجهاء الحي من أبناء العائلات وأزلامهم من الزعران، يستبدلون خيول مركبة الجنرال الفاتح (غورو) الذي تحيط به مفرزة الخيالة المراكشية (سباهي) في أثناء زيارة للحي، ويسحبونها بدلاً عن الخيل ويهزجون بالتحية والترحيب!

■ شؤون مدرسية

تمّ بعد رحيل الأتراك إنقلاب في كل المجالات، فقد أصبحت هويتنا عربية، وأناشيدنا قومية. كتبت هذه الأناشيد على عجل استجابة للموجة الصاعدة الهادرة: (بلاد العرب أوطاني، نحن لا نرضى الحماية، إلى الحرب إلى الحرب هلمُّوا يا بني العرب!). أغنيات ألحانها مائعة، وكلماتها كسيحة، أقرب للاستجداء والاستعطاف الغزلي، خاصة وأن المنشدين صغار دون العاشرة، وأصواتهم رفيعة حادة.

شاركت مع قطيع الصغار، يسوقهم معلموهم في المسيرات الطلابية الاستعراضية، وقد أصبحت مناسباتها يومية تقريباً، شاركت قرب محطة الحجاز مع صفوف المدرسة وبحضور خيزرانة المعلم، يهزّها فوق رؤوسنا، ويضرب بها الأرض بين أقدامنا، شاركت في تظاهرة مؤلّفة من عراضات لكل حي على حدة، وكل فئة تهتف بشعاراتها الخاصة. كانت المناسبة الاحتجاج على اللورد (بلفور) نزيل فندق فكتوريا (قرب المرجة). كنا ننادي: فليسقط واحد فرفور، ونسمع هتافات الآخرين تنادي: يسقط قرقور. والطاسة ـ كما يقول المثل ـ في الحمام ضائعة، مع أناشيد الحماسة لمدرسة أخرى: (سيروا للمجد طراً. . سيروا للحرب).

أصبحت طريقنا إلى المدرسة بعد انتقالنا إلى القنوات أطول مما كانت عليه، ولكن الأجواء العامة في المدينة أكثر راحة، ولا أقول أمناً. لم تتبدّل أساليب التعامل المدرسي إلاّ في حدود الأوامر والنواهي وعدّ العصيّ بالعربية لا بالتركية، وبقيت الإجراءات الأخرى جميعاً صامدة على التغيير.

أنهيت دراستي الابتدائية عام ١٩٢١، وتقدّمت شخصياً بورقة سجل النفوس مع الشهادة الابتدائية لمتابعة الدراسة في مكتب عنبر (السلطاني)، ولم يرافقني أحد من الأهل لإتمام ذلك. أخبرني موظف التسجيل أنّي صغير السن ولا يمكن قبولي بالإعدادية لأنّي من مواليد ١٩١٤ كما تؤكّد الوثيقة. عمدت في الدار إلى حك رقم أربعة وكتبت صفراً مكانه، وراجعت بعد أيام الموظف المختص، تغاضى عن الحك والتزوير. والهدف من تصغير أعمار الأطفال الذكور تأجيل سوقهم للعسكرية.

يدير مكتب عنبر الحكومي ضابط متقاعد، والمدرسون خليط من غير الأمّيين، بعضهم متقاعدون عسكريون، وآخرون يتم انتقاؤهم بالخاطر والأنسب.

مثال ذلك قصة سمعتها بعد سنوات عن الطريقة التي تمّ فيها انتقاء مدرّس الحكمة الطبيعية (الفيزياء).

ففي الفترة ذاتها بعد رحيل الأتراك أُنشىء المعهد الطبي العربي،

واجتمع عدد من علماء ووجهاء دمشق لتوزيع المواد الدراسية ومنها (الحكمة الطبيعية). كان بين الحضور شيخ هو خطيب الجامع الأموي. فلما قيل (الحكمة الطبيعية) اتفقت كلمة الحضور بالإجماع: (وأمّا الحكمة فلهاشم الخطيب) ولم يعترض أحد من الوجهاء ممن يعرفون بأن المادة هي فيزياء وبيولوجيا وحيوان وليست حكمة الهية.

شهدت في السنة الأولى للإعدادي ثورة طلابية على المدير الذي يحاول فرض نظام الثكنة على الأغرار. اعتصام وإضراب وصخب في الباحة، وساطات من مديرية التربية، ووفود بين المتمردين والادارة. وتمّ بعد أيام إخراج المدير من غرفته تحت الحراسة، تلاحقه قطع الحطب يلقيها الطلاب الصاخبون المنتصرون.

سوف أستعرض يوميات مكتب عنبر في سنواتها الخمس مجتمعة، والصور والمشاهد فيها مختلطة ومتشابهة ايضاً.

فالدراسة خلال جميع هذه السنوات شكلية، المعلمون غير مؤهّلين. يدرّس التاريخ مثلاً ضابط متقاعد شارك في حرب الدردنيل، يسير بين الصفوف يخطب فينا منفوخ الصدر، ويضرب على الطاولة وكأنّه يهوي بسيفه الخشبي (المسطرة) يرفع العقيرة عند الهجوم، وينفعل غاضباً إذا قاطعه أحد يطلب الإذن لقضاء حاجة. يروي لنا معارك الروملي، والصغار اليافعون عندئذ يتفرجون مشدوهين وكأنّهم في قهوة (خبيني) في محلة النوفرة، والحكواتي يقص سيرة الزير المهلهل وعنترة معاً.

وبين الفينة والأخرى، وقد استنفد الجهد النفسي والعضلي طاقاته، يصرخ بنا: «وهل هذا طبيعي، وهل يمكن أن يدوم؟»، فنصحو صارخين: «لا أبداً. هذا غير طبيعي ولا يمكن أن يستمر، فالتاريخ إذاً منطق وعدل وحتميات!!».

ومن طرائف تلك الأيام العجيبة أن أحد المدرسين، وكان ضابط أركان حرب، يعتقد بأنه موسوعي لا يفوته شيء من علوم الأولين والمتأخرين، يدّعي بأنه يعطي نتائج ضرب الأرقام ذهنياً ولو بلغت خمس مراتب. إذا

ابتسم أحدنا أو همس في أذن رفيقه، يقفز المدرس مهتاجاً، يشتم ويبدأ الردح: أبي أفضل من أبيك، أنا أركان حرب للجيش الرابع العثماني، عندي كذا أوسمة، يلي ذلك قصة بطولية.

يحضر مدرس اللغة الفرنسية متأخراً، يتطوّح ساهماً من ثمالة شراب الليلة الفائتة، أو كأس الصباح، يعيد علينا ونحن في السنة التاسعة أو العاشرة تهجية الحروف بالفرنسية. صوته دائماً راعد متوعد ليوم الحساب في الفحص النهائي. وفي السنة الأخيرة، قبل البكالوريا الأولى، بدأ استاذ فرنسي تعليم الأدب الفرنسي وهو لا يعرف كلمة واحدة باللغة العربية، ونحن لا نزال في تهجية الحروف وتركيبها.

في نهاية السنة الدراسية نقلنا ما هو مكتوب أمام أسماء الأدباء والمسرحيين الفرنسيين، نقلنا بحروف وكلمات عربية الجمل الفرنسية، وحفظنا ذلك عن ظهر قلب. فإذا قال مثلاً (موليير) سردنا ما حفظناه بالعربية من النص المكتوب باللغة الفرنسية في قاموس (لاروس). يقوم بنقل هذه الجمل الفرنسية إلى الحروف العربية أحد الرفاق ممن كانوا طلاباً في مدرسة الفرير سابقاً.

لم يتوفر لنا أي كتاب خلال سنوات الدراسة الثانوية باستثناء كتاب (الوسيط في الأدب العربي) المطبوع في مصر، بعضهم يملي علينا مادة الدرس، وآخرون يكتفون بالخطابة أو الكتابة على اللوح، وعلينا أن ننقل ما يكتب أو نكتفي بتسجيل الذاكرة.

يستثنى من المشاهد المسرحية، درس الرياضيات وكان المعلم هو الأستاذ جودت الهاشمي. كنا نهاب مواجهته رغم عاهته الجسدية (قصر في أحد طرفيه وتشوه واضح في العمود الفقري). كان يعرف أسماء معظم الطلاب، والانضباط في ساعة درسه كامل دون صخب ولا شغب.

نبدأ درس الموسيقى بالتصفيق والصراخ: «كمنجة كمنجة». يحاول المدرس التهدئة ليعلّمنا النوطة الموسيقية، فيزداد الصخب، ويضطر إلى العزف، ونحن نهلّل ونصفّق ونتمايل كأنّنا في ملهى.

كان من بين رفاق الصف تلميذ ضخم الجثة من أبناء عائلة حاكم دمشق في حينه، يتخلّف عن بدء الدرس استخفافاً بمعلم الموسيقى. يدفع الباب برجله، ويعكف الطربوش إلى الأمام تحدياً، مع نظرة ازدراء للمدرس الذي يصفرّ وجهه وينكمش على نفسه مرتجفاً.

في حالات نادرة كنت أرافق هذا الزميل في طريق العودة إلى الدار. كان يحمل في جيب الجاكيت مسلة (إبرة كالمسمار الطويل) يخز بها النساء أو البنات، ويقهقه وهو يشاهد رعب الطرائد وهي تهرب.

معلم العربية شيخ يضع العمامة على رأسه، يصرخ التلميذ ابن العائلة الكريمة بينما المدرس منهمك في شرح الصرف والنحو: «ما بتعلّم من أبو لفة ولو حطُوني على الدفة». يتجاهل المدرس ذلك ويلتفت إلى اللوح متابعاً.

كذلك كان شأن تدريس الكيمياء، ومؤهلات المدرِّس انه طبيب متخرج قبل عامين. لا يكاد يجلس إلى المنضدة حتى يضج الطلبة، يدقون بأيديهم وأرجلهم: «كرخانة كرخانة» ومعناها بالتركية (حي المومسات)، والمقصود منها تحريف وإشارة إلى (الكيمياخانة) أي مخبر الكيمياء. ويخضع المدرس للإرادة العامة والديمقراطية!!

يضع المعلم في الأنبوب سائلاً أبيض وفوقه قطرات من سائل أبيض أيضاً، ويرفع الأنبوب على النار يقول سلفاً: سيظهر لون أحمر. يحدث ذلك فعلاً في بعض الأحيان. نهلل ونصفق للساحر، أو يخفق أحياناً أخرى. ويبدأ الضحك العلني والصراخ: «ما صار ما صار، أعدها أعدها».

نجلس للفحص في نهاية العام ومعنا دفاتر مما أملاه المدرسون، ننقل ما نشاء والمعلم خلف منصته العالية يقرأ ما تيسّر.

التدفئة شتاء في غرف الدرس (صوبا) وقودها حطب مخزون في قبو المدرسة، ولكل غرفة كمية معينة منه توزع صباحاً. قد ينفد المخصّص فيحطم أبناء المدعومين المقاعد الخشبية التي نجلس عليها لتصبح وقوداً للنار، ويدير الناظر أو المراقب وجهه، لم يشهد، ولم يسمع شيئاً.

يتناول المعلمون مع الطلاب الداخليين وجبة الغداء ظهراً، ويطلّ المطبخ والمطعم بشبابيكه وأبوابه على الباحة حيث جماهير الطلبة الجياع، تشم رائحة الطعام والخبز الطازج الذي يصل لتوه من الفرن، تثير الشهية والأحقاد معاً، ذلك أن عدداً من أبناء الميسورين من أصحاب النفوذ، إمّا داخليون ينامون ويأكلون على حساب السلطان، وإمّا نصف داخليين، أي يتناولون طعام الظهر مجاناً.

يحمل خدم بعض بيوت الأكابر (المطبقية)، وفيها طعام ساخن أو يكلّفون البواب أو مساعده بشراء صحون من الفول والحمص الساخنة، وقيمة الوجبة مع رغيفين (أبو المية) أي ما يعادل فرنكاً واحداً (خمسة قروش).

كنت أنفرد مع بعض الرفاق أروي لهم ما قرأته من قصص طرزان وأرسين لوبين أو شرلوك هولمز. لست أعرف ولا أتذكّر طبعاً كيف بدأت رحلتي الطويلة مع الكتاب والمجلة والصحيفة، الشيء الأكيد أنّي مع مطلع العشرينات، وبالتحديد ١٩٢٢، بدأت أوّلاً بشراء مجلة (اللطائف المصورة) المصرية. دوافع هذا المنعطف السلوكي غير متوفرة في البيت ولا المدرسة، وقد يكون السبب صور المجلة الاجتماعية المثيرة التي تهتم بأخبار المجتمع المخملي في مصر. وهو مجتمع متحرّر نسبياً، ومختلف جداً عن المجتمع الدمشقي المغلق المحافظ. كذلك انتقلت من المجلة إلى الجريدة، أنتظر أحياناً أمام المطبعة في الدرويشية صدور (حط بالخرج) الأسبوعية. ومنها تدرّجت إلى جريدتي (ألف باء) و(فتى العرب).

كنت أستغرق بالقراءة ساعات طويلة، أعيش فيها مع الكتاب أجواء أحلام بطولية، وخوارق، وعالماً زاخراً بالأحداث بديلاً تعويضياً عن الاستكانة والعزلة.

وزاد من حدة اندفاعي للقراءة إلحاح رفاق الصف وطلب المزيد الجديد مما قرأت من روايات جرجي زيدان، فكان عليّ تحضير ذخيرة لجلسة الملتفّين حولي في باحة المدرسة، أو في الصفوف الأخيرة في أثناء الدرس والمعلم يصرخ.

أقرأ في الليل على نور الكاز الضعيف، تفاجئني الوالدة عندما تبدأ حملتها اليومية ضد البق، فتطفىء الكاز وتلزمني بالنوم.

تدبير (المجيدي) لاشتراك المكتبة شهرياً، وشراء مجلة وصحف، أكبر من طاقتي على الادخار، مهما كبحت نوازع شراء كعكة من السوق مما يشتهيه كل طفل. كنت أجمع ما يمكن تدبيره بطرق ملتوية كالقول بأن سعر الحاجة أكثر من حقيقتها أو وزنها، وأحياناً بطريقة غير مشروعة كلياً بالسطو على مدّخرات اخوتي البنات، وليس لهن أي مصروف خارج الدار. تحتفظ الوالدة (بمكمورة) علبة تنك مشقوقة، يضعن فيها الموارد المتاحة، وتدسها الوالدة بين ملابسها في خزانتها. أدخل خلسة والوالدة وراء طبق الغسيل مثلاً، افتح الخزانة، أُباعد شقّي العلبة وأُدحرج ما يخرج منها وأحصل على ما أحتاج إليه دون زيادة!

قامت الوالدة بنصب كمين متقن: أخبرتني في صباح يوم الاثنين، وهو يوم وصول مجلة (اللطائف)، بأن شقيقي يسأل هل اشتريتها ويودّ الاطلاع عليها، فلما أجبتها بالنفي، راقبتني في عملية السطو، ولم تكشفني متلبساً بالجرم المشهود: سألتني بعد عودتي والمجلة بيدي: «وكيف تدبّرت قيمتها؟»! ارتبكت، فقالت: «لا تكرّر ما فعلت»، ولم تخبر أحداً بالذي جرى بيننا.

وتطورت بل تنوعت ميولي للأدب والشعر والرواية احياناً، لتنقلب بعد فترة إلى ميول للرياضيات أو للجغرافيا والتاريخ. حاولت خلال فترة زمنية مديدة كتابة كلام مسجوع وخطابات حماسية اقرأها أمام المرآة في غرفة مغلقة. وانتهيت في نهاية الدراسة الثانوية بأنّني لا أعرف لنفسي ميولاً ثابتة، واستقر في يقيني وحتى الآن بأن الميول ظروف وممارسة.

الموهبة استعداد وتقبُّل، ومع ذلك يبقى الإصرار والتصميم والصبر حتى في المواضيع المرفوضة في البدء عاملاً حاسماً في التعلُّق ثم التمسك والنجاح.

■ ذكريات عن أيام الثورة السورية

بدأت الثورة السورية عام ١٩٢٥ باضطراب الأمن ليلاً بادىء الأمر، بعد عصيان وتمرُّد في جبل الدروز، ومعارك ضارية هُزم فيها الجيش الفرنسي وطُرد من جميع قرى الجبل تقريباً.

بدأت مناوشات في غوطة دمشق، وقد تسرَّب إليها عدد من الثوار إلى قرية جرمانا والقلمون يحملون معهم أسلحة غنموها في معارك الجبل.

كنا نسمع ليلاً إطلاق النار والرشاشات ونشاهد دوريات الجيش والدرك والشرطة مدجَّجين بالسلاح، يجوبون الأحياء لاعتقال المشتبه بصلاتهم بثوار الغوطة.

كان الحماس والإعجاب بالثوار وبطولاتهم شديداً خلال الأشهر الأولى من قيام الثورة، وكانت كذلك مقبولة مبالغات ما ترويه الألسن الهامسة، أو مجالس سهرات الرجال في الدور، بعيداً عن المقاهي وعيون السلطة.

لا وجود للإذاعة، وبلاغات السلطة كاذبة دائماً لا تُصدّق. نستمع لروايات (التلفون العربي) من الفم إلى الأذن، عن الهزائم والضحايا من الجيش الفرنسي، ومعظم أفراده من الجزائر ومراكش والسنغال، وضباطهم فرنسيون.

كان حسن الخرّاط بطلاً قومياً أسطورياً، وقد كان قبل الثورة حارساً ليلياً. كان استعدادنا النفسي كافياً لتصديق المبالغات: بضربة من سيفه تمّ تعطيل جنازير دبابة، أو أنه قد قطع نصفين ضابطاً فوق حصانه، وهزم كتيبة أغار عليها هادراً في وضح النهار. وكذلك روايات بطولات عن الثوار، يركبون دبابة معادية وهي تطلق النار، يفتحون بخناجرهم غطاءها الحديدي ويقتلون سدنتها ويرقصون فوقها هازجين!

أقام الفرنسيون في بادىء الأمر نقاط تفتيش ومتاريس في باب الجابية، وكانت مفصلاً رئيسياً في وسط المدينة القديمة. وتحصّن الجند والشرطة في قلعة دمشق، وأقاموا في أبراجها قنّاصين يصطادون من يصعد إلى سطح داره

لنشر الغسيل أو كش الحمام. يطلقون النار على كل ما يتحرك في مجال الرؤية.

من صور الذاكرة قافلة جمال تحمل جثث فلاحين من الغوطة قالوا إنَّهم ثوار ومجرمون، رمت السلطة بهم عبرة للمتفرجين في ساحة المرجة. كانت جميع قرى الغوطة تقريباً محرَّرة، لا وجود لقوى الأمن فيها، إلاَّ أثناء مرور حملاتها العسكرية لتمشيط المناطق.

المدينة بكاملها باستثناء المركز مسرح ليلي لنشاط الثوار الذين يعودون الى بيوتهم، يحملون منها الطعام والذخيرة وينطلقون قبل طلوع النهار، أو يناوشون مخافر الشرطة او متاريس مراكزها إذا حاولت التعرُّض لهم.

رغم ما يبدو من فلتان الأمن وانكماش السلطة في حدود ضيقة، لم تحدث خلال أشهر الثورة المديدة اعتداءات أو سرقات أو تجاوزات على سكان الأحياء الشرقية، وخاصة حارة اليهود أو باب توما. وكذلك لم يحدث اقتتال اطلاقاً على أساس طائفي بين قرى مسيحية متجاورة أو قرى مختلطة، واستمر التفاهم والتعايش والأخوة سائداً بين الجميع رغم محاولات قامت بها السلطة لإثارة الفرقة بين المواطنين.

أُعيد الاعتبار أيام الثورة إلى بوابة الحارة وفي جميع أحياء المدينة. يتمّ اغلاق البوابة مساءً لمنع الدخلاء أو المارقين، إذا حاولوا النهب أو السرقة أو العدوان.

لست أتذكر تاريخاً محدداً ليوم وجدت نفسي مع رفاق الصفّ نتراكض مذعورين والرصاص يلعلع بكثافة في أسواق مدحت باشا والبزورية حتى وصلنا إلى بيوت أهلنا. اشتد اطلاق النار مساءً، وبدأ القصف المدفعي من قلعة (غوابية) التي تقع فوق رابية على يسار مدخل الربوة.

اشتد اطلاق النار والقصف المدفعي ليلاً، واشتعلت الحرائق في حي الحريقة التجاري حالياً. كانت تُسمَّى المنطقة سابقاً (زقاق سيدي عامود والحصرية)، وفيها بيوت كبار تجار دمشق ووجهائها.

في الدار التصقنا جميعاً في ركن من غرفة في الطابق السفلي، نرتجف ونبسمل وندعو مسترحمين. نسمع أزيز القنابل قبل انفجارها المزلزل للأرض بثوان معدودة، وعرفنا بذلك أن أهداف القنابل غير بعيدة عنا، وتأكّدنا من ذلك عندما أضاء نور الحرائق على حائط الجيران.

نتماسك مذعورين، والدار التي نحتمي بها مهدّدة بالتداعي، ونصف أخشاب سقوفها منخور منذ إصلاحها.

ومع أشعة النور في الصباح، تسلّلنا مع الجيران، نستكشف بالسؤال من المارة النادرين عن مشاهداتهم. كانت رواياتهم مخيفة عن الحريق الكبير الذي لا يبعد أكثر من خمسين متراً عن دارنا.

حمّلت دابة الوالد بعض الألبسة والصغار من اخوتي، واتّجهنا إلى حي المهاجرين لاجئين عند الخال والأعمام، وعدنا بسلام من رحلة النزوح لنجد الدار سالمة والخراب في منطقة الحرائق واسعاً ورهيباً. وعلمنا بعد ذلك أنه قد دارت معركة في المدينة القديمة لاقتحام دار العظم في البزورية، وفيها حامية فرنسية.

عمدت السلطة بعد ذلك إلى ارسال حملات تأديب دورية في جميع الاتجاهات بعد أن حصّنت المدن بمخافر على مداخلها. وتمّ فصل الريف عن المدينة، واقتصر نشاط الثورة على مناوشات في محاولات لعرقلة حملات التمشيط والاعتقال والارهاب التي تقوم بها دوريات السلطة، تحرق الدور والبيادر وتقتل أو تعتقل المشتبه بهم، وإذا لم تجدهم فأهلهم رهائن حتى يأتوا تائبين.

ونتيجة لكل ذلك أصبح تموين الثوّار بالذخيرة والمال والطعام عسيراً يعتمد على إخفاء بعض ما يحتاجونه تحت ملاءات النسوة.

كل ما يدخل المدينة من الريف يخضع لضريبة (دخولية)، تختلف بحسب نوعية ما تحمله وسائل النقل على الطنابر والحمير والجمال. وبحجة معرفة نوعية ما تحمل الأكياس يعمد جباة ومرتزقة السلطة إلى غرس سيخ

حديدي حاد، وفي جميع الاتجاهات، داخل الأحمال، والهدف الحقيقي التأكُّد من عدم وجود الرجال مختبئين، أو الطعام أو الذخيرة بين التبن والخضار والقمامة.

انقطعت مع إحكام الحصار مصادر تمويل ثورة استمرت فترة أطول مما تحتمل أعصاب المتحمِّسين المتطوعين، وأصبحت قيادات التجمعات الثائرة محلية اقليمية، ومناطق نفوذها محدَّدة، ولا يقوم بينها أي تنسيق أو تعاون إلاً في حدود النجدة والنخوة للمساندة التي تصل متأخرة أو لا تُلبَّى.

وأثار كل ذلك حساسيات واتهامات بلغت حد الصراع في تجاوز حدود مناطق النفوذ والحماية. وتدريجياً أصبحت تصرفات الجماعات المحلية مزاجية وتناحرية. وعمد البعض للتهديد والوعيد والابتزاز لتأمين العيش والذخيرة للمقاتلين وأهلهم. واضطر الوالد خوف النهب، وبعد أن تعرَّض له أكثر من فصيل، يريد كل منهم فدية وأتاوة شهرية للدفاع عن سلامته وأبقاره في بستان مستأجر قريب من شركة الكونسروة حالياً على طريق قرية المليحة في الغوطة. . اضطر الوالد فقَبِلَ استضافة قطيع البقر في دارنا.

فتحت البوابة الكبيرة في دار القنوات، وأفرغت القاعة الأوسع من الأثاث لتحل مكانها أبقار وعجول دواب البستان، مصدر العيش ورأس مال العمل. حلَّ الضيوف في أفضل غرف المنزل مع ذبابهم وفضلاتهم وعلفهم، وروائحهم العطرية تنعش سكان الغرف العلوية!

وبقينا مع البقر جيراناً حتى استتب شيء من الأمن (بعد دفع الأتاوة) قبل أشهر من نهاية الثورة.

وعمدت بعض الفصائل من الثوار التي تُمارس الارهاب إلى اختطاف الرهائن مقابل الفدية المالية إذا تأخّرت عن أداء ما فرضته تقديرات أجهزة النهب الثورية.

انقلب الرأي العام تدريجياً من الحماسة والتأييد، لتطغى على الجماهير مشاعر الاشمئزاز والاستنكار، وانتهت الثورة اختناقاً باحتضار بطيء بعد ان

فقدت تدريجياً قاعدتها، ولم تحدِّد منذ البدء أهدافها.

وجَّهت فرنسا بعد ذلك رصاصة الرحمة بحملة قادها الجنرال (ويغان)، اكتسحت جبل العرب، واعتمدت سياسة الأرض المحروقة، تنهب وتهدم، وتقتل البشر والماشية. وجاء بعد ذلك مفوض سام جديد (دي جوفنيل) يهدِّىء بكلام معسول، ويجزل الوعود بإصلاحات وآمال كاذبة.

من ذكريات أيام ما بعد الثورة زيارة قام بها المفوض السامي (دي جوفنيل) لمكتب عنبر: اصطف الطلاب على طرفي الباحة. وكان عليهم كما أبلغهم المشرفون أن يصفِّقوا للزائر عند وصوله. دخل الباحة وارتفع الصفير والصراخ واختلطت الصفوف. ومرَّ بسرعة محاطاً بحراسه إلى قاعة فسيحة ليستمع إلى خطب الترحيب. وقد كتبت الادارة خطاباً بالفرنسية يلقيه أحد الرفاق. وفُوجىء الجميع بالخطيب المكلّف يرتجل خطاباً يهاجم به المفوض السامي مع أعوانه، فنهض الزائر غير الكريم وغادر المدرسة.

أذكر للإنصاف أنه لم تُغلق المدرسة، ولم يُطرد الطالب أو يُسجن أو يُسأل عمَّا فعل، والمدرسة حكومية؛ كذلك لم يتعرّض المدير والمشرفون للسؤال أو التحقيق.

توجّهت السياسة الفرنسية بعد الثورة، تحاول احتواء البلد بتقسيمه دويلات طائفية: (دولة العلويين، الدروز، دمشق، حلب ولواء اسكندرون).

ولم تتمكن فرنسا من توفير الدعم المحلي الكافي لتمرير مشروع التفتيت رغم إعلانه. وكذلك لم تستمر حكومات يرأسها أغراب مثل صبحي بركات والداماد أحمد نامي إلاَّ فترات قصيرة.

عادت السلطة المنتدبة للاعتماد على التقليديين من رؤساء الطوائف عساهم يقودون السفينة في اتجاه ريح فرنسية.

وأخيراً استقرَّ الرأي في وزارة المستعمرات الفرنسية على إقامة حكم ديمقراطي ليبرالي، يجمع مجلس نواب الزعامات المحلية وشيوخ العشائر، والسلطة التنفيذية حكومة وطنية!!

يتمّ ترشيح النواب من قبل جهاز الأمن العسكري (المكتب الثاني)، ونواب العشائر أزلام السلطة، وتملأ صناديق الاقتراع الشرطة العلنية أو السرية.

الوزراء موظفون تمَّ ترفيعهم من مرتبة المدير العام، أو أصدقاء موثوقون من المفوضية، وإلى جانب كل منهم مستشار فرنسي.

يخضع الشارع لزعماء الأحياء وأصحاب العمائم. وقد ترأس الدولة الشيخ تاج الدين الحسيني لفترتين، وهو ابن المحدث الأكبر الجزائري، أحاطته سلطة الانتداب بالأنصار والمريدين.

عجزت الزعامات المحلية، والمشايخ معهم، عن قيادة الشارع واخضاعه لتوجهاتها في احتوائه. وبالمقابل توطّدت تدريجياً سلطة زعماء الكتلة الوطنية في قيادة صمود الشعب ضد الانتداب وعملائه، خاصة بعد فشل إبرام معاهدة لاستقلال سوريا عام ١٩٣٦.

وهكذا استمر التظاهر والاضرابات، خاصة عندما تنازلت فرنسا عن لواء اسكندرون، وقدَّمته رشوة لتركيا بغية كسبها إلى صف الحلفاء، وبوادر الحرب العالمية الثانية بادية للعيان على الساحة الدولية.

لم يستقر المقام بالفرنسيين خلال ربع قرن من الانتداب فقد واجهوا الثورات المسلحة في جميع المناطق السورية ودورياً. وقد كانت هذه الثورات كانفجارات عفوية من دون تنسيق وتعاون بين قياداتها.

واستمرت دون انقطاع حركات الشارع في المدن ترفض الوصاية والأجنبي والعميل. يتحرك الشارع بحساسية سياسية مذهلة، ظاهرها غالباً مطالب معاشية، وخلفياتها دائماً سياسية.

تصبح التظاهرات الطلابية عنيفة عندما تكون انتصاراً وتضامناً مع أحداث فلسطين في تحركاتها ضد الاستيطان والسلطة البريطانية، أو تضامناً مع تحركات سياسية قمعية في مصر والعراق.

كان مكتب عنبر بؤرة لتحريك الشارع قبل أن ينتقل مركز الثقل إلى

الجامعة. وأعترف أنّي لم أُشارك ولم أُساير رفاقي في تحركاتهم خارج بوابة المدرسة، أتسلّل من الجمع المتظاهر لأذهب إلى الدار وأنفرد مع كتابي.

لا يُخلق الانسان بطبيعة محدَّدة، والتكوين تربية، وكذلك تكوَّنت! يشدّني من يدي أحد الرفاق بعد ان تجاوزت التظاهرة باب المدرسة. اكتفيت فانكفأت، إذ رأيت ظلال عصي الشرطة الطويلة تلوّح وصراخهم بالشتيمة يدوِّي! كان المنظر السينمائي البعيد كافياً ليجعل قدميّ تسابقان الريح المعاكسة، وأصبحت بعد ذلك حالة ميؤوساً منها، فإذا سمعت مسبقاً بتنظيم تظاهرة أتمارض وأبقى في الدار.

لست أتذكّر أو أُدرك سبباً لشعوري بضرورة تعلُّم لغة أجنبية (الفرنسية طبعاً).

قصدت مكتبة في ساحة المرجة تبيع الكتب الفرنسية، ونصحني صاحبها برواية (غرازيلا)، وهي رواية عاطفية مثيرة. القاموس دليلي وسندي في كل كلمة، وأنا أقرأ وأبحث عن معنى عدة كلمات في السطر الواحد، أكتب المعنى على الهامش، ولا أنهي في القراءة أكثر من صفحة في الساعة تقريباً أو دون ذلك. قرأتها للمرة الأولى ثم أعدت قراءتها للمرة الثانية والثالثة. استهوتني الرواية الرومانسية العنيفة وأنا في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر.

انتقلت بعدها إلى روايات أخرى، وتحسَّن رصيدي من القاموس، وبقيت إمكانياتي بالنطق والكتابة محدودة جداً.

لم يكن الأتراك مستعمرين بالمعنى العلمي للاستعمار في استغلال وعبودية مستعمراتهم، فقد كانت الولايات العثمانية جميعاً في البؤس والتخلُّف والظلم سواء، كنّا وإياهم غارقين في الظلام والتبعية. أمّا الاستعمار الفرنسي فشيء مختلف تماماً. ومع ذلك فلم تكن فترة الانتداب شراً مطلقاً بل إن لها جوانب مضيئة، ومن أبرزها ديمقراطية التعليم ونشر المدارس الحكومية ببرامج موحَّدة. وقد منع ذلك ازدهار التعليم المذهبي الطائفي كما حدث في لبنان. وإنّي أعترف بأنه لو لم يتوفّر في دمشق بالذات مدرسة

فثانوية فجامعة، لكنت والألوف من أبناء جيلي أُمّيين أو قريباً من ذلك.

تقدّمت في نهاية السنة الحادية عشرة من الدراسة إلى فحص البكالوريا الأولى، (وكان يطبق نظام للبكالوريا للمرة الأولى في سوريا)، ونجحت من دون عناء.

بعد مرور ما يزيد عن الستين عاماً وأنا أكتب هذه السطور ما زلت أتساءل: ماذا تعلمت خلال دراسة امتدت خمس سنوات؟ لا أتذكّر من تلك السنوات سوى أجواء الفوضى والاستخفاف والضياع.

انتقلنا من الابتدائي، نتعلم بالعصا والقمع والشتيمة كالقرود والبهائم الأخرى، تدرّب على أداء حركات وتتجاوب مع فرقعة السوط، انتقلنا من أجواء الحفظ عن ظهر قلب من دون فهم إلى مرحلة المعلِّم الذي لا يعلِّم، والادارة الضائعة العاجزة عن ضبط الأمور.

واستمرت أجواء الفوضى الكاملة خمس سنوات، لا أتذكّر خلالها وظيفة مسائية أو فحصاً أو مذاكرة نستعد لها ولا كتباً مطبوعة.

أعود أسأل نفسي: كيف أُحاسب الدراسة والمدرّسين والمدرسة السلطانية وقد أُنشئت في مطلع القرن لتخريج موظفين مدنيين للدولة العثمانية، وإلى جانبها ثانويات لتخريج ضباط للجيش؟

ويبقى الشيء المخيف حقاً ان مدارسنا حالياً لم تختلف إلاّ في حدود الكم بينما لا تزال أساليب الدرس والتدريس ثابتة حفظاً ونقلاً وتخزين معارف، وتقويماً بالعصا أو التهديد بالفحص النهائي. تخزين المعرفة شبيه بتخزين أي شيء ليصبح بعد فترة غير بعيدة غير صالح للاستعمال بعد أن تجاوزته الأيام أو أصبح فاسداً.

الفصل الثالث

دراسة الطب

١٩٢٨ ـ ١٩٣٤

قبل أن تُسمَّى كلية الطب كأحد فروع الجامعة السورية، لم تكن الجامعة سوى المعهد الطبِّي العربي ومعهد الحقوق فقط. ولم يكن الإقبال شديداً على الدراسة الجامعية. يتم القبول في المعهدين بمسابقة يتقدّم إليها الذين أنهوا السنة الحادية عشرة، قبل انتهاء الدراسة الثانوية.

طلب إليّ أحد الرفاق مساعدته في تحضير مواد المسابقة، وقدَّم طلباً باسمي على أن أكتب على ورقة الفحص اسمه ويكتب على ورقته اسمي.

وأُعلن بعد الفحص الشكلي نجاح جميع المتقدّمين.

انتسبت إلى كلية الطب بالمصادفة والتزوير، ولم أتطلّع قبل ذلك إطلاقاً إلى أبعد من معهد متوسط للزراعة في السلمية كخيار أفضل من ترك الدراسة لمساعدة الوالد في أرضه وبهائمه. لم أُفكِّر أبداً بمعهد الحقوق، فقد كان الوقوف خطيباً أمام القضاة والمراجعة والمواجهة أموراً بعيدة عن تكويني النفسي.

بعد مرور ثلاثة أشهر، وأنا مواظب بحماسة في السنة التحضيرية. استوقفني الوالد يسأل: «ماذا تفعل هذه الأيام؟!». قلت: «أداوم في المعهد الطبِّي بعد أن قُبلت فيه طالباً». قال: «وهل يعني ذلك أنك ستصبح طبيباً؟!». قلت: «هو كذلك». قال: «عجيب أمرك! أنت إذا صادفت جنازة

في الطريق تبقى مؤرقاً سوداوياً عدة أيام، ودراسة الطب تعامل دائم مع المرض والموت».

تعاون عدد من الأقارب ومنهم جَدّ وأعمام على إقناع الوالد بأن يتّخذني عكازة أُساعده في شيخوخته، فقد كان من حقّ الوالدين ترشيح الطيّعين من الأولاد للمساعدة. كذلك تقرّر أن تحتفظ الأم بإحدى بناتها لتبقى سنداً رفيقة ومعاونة! وهكذا كنت المرشح لوظيفة تابع للوالد في عمله الزراعي.

يجوز للآباء التصرُّف بمستقبل الشباب من الجنسين، فالأطفال كالعقار والأشياء، ملكية خاصة، يتصرّف الأهل بها تأديباً وتدجيناً واستعمالاً. وقد بقي شبح هذا المصير البائس ماثلاً أمامي في صورة الوالد يشقى طوال يومه، ولا يكاد يضمن لعائلته لقمة العيش العادية.

يقترض أحياناً على حساب أسبوع الحليب عشر ليرات سورية ليضمن المصروف اليومي، وفي أضيق الحدود. كانت هذه الصورة وهذا المصير كابوسين مرعبين ومرفوضين، أُحاول المستحيل للهروب منهما.

كان موقفي الرافض بعناد للمصير الذي يريدونه لي دون أخي، وقد انتسب لمعهد الحقوق، كما أن دخولي إلى بيوت رفاق في المدرسة للمذاكرة، والد أحدهما طبيب، ووالد الآخر صيدلي، قد فتح عينيّ وشهيتي وتأكّدت، وقد دخلت بيوت المنعمين الذين انسلخوا عن طبقتهم بالتعليم.. تأكّدت أن هناك املاً وإمكانية للعيش الأفضل والطعام الأنفس. وازداد إصراري على متابعة العلم للخلاص والوصول.

أفهمت الأهل عن طريق الوالدة بأنّي عازم مهما كلّفني ذلك على متابعة الدراسة. واجهني الوالد، يحاول أن يبدِّل قراري، فقال إنّه عاجز عن الإنفاق على دراستي بعد الآن. أجبت بأنّي سأتدبّر أموري، ولا أريد منكم أكثر من اللقمة والمأوى.

وسمعت بعد ذلك كلاماً يتجدّد أمامي: «الطب لا صنعتنا ولا صنعة

أهلنا». طرح جدّي لأمّي السؤال، قال: «ماذا تنوي أن تفعل؟! سمعت أنّك تقرأ بالفرنسية أخشى أنّك تستهدف منصب المفوض السامي!».

مجتمعات التخلُّف مستنقع، علاقاتها الاجتماعية ثابتة، يرث الأولاد آباءهم بأخلاقياتهم ومهنتهم ولباسهم، ويتدرَّبون على القيام بكل ذلك قبل انتهاء حياة الآباء والأجداد، ويخلِّدون بذلك ذكر العائلة!!

أصبحت بعد انتسابي للمعهد الطبِّي نجماً كروياً، ظهيراً في نادي بردى، وألعب مع الفريق الوطني في دمشق وبيروت. وعدد نوادي الكرة اثنان، لا أكثر.

كان ملعب النادي في قطعة أرض زراعية ترابية بجوار المشفى الفرنسي حالياً. تأخّرت في أحد الأيام عن الوصول إلى الدار قبل الغروب، ونحن نعود من اللعب مشياً على الأقدام طبعاً، وأنا طالب في السنة الثانية من كلية الطب. فُوجئت بأخي يصرخ خائفاً: «وأين كنت؟! أبوك ثائر» قابلني الوالد وراء الباب يتهدّد وتدفعه الوالدة ترجوه أن يعفو عن الجريمة المنكرة في العودة بعد غياب الشمس.

اندفعت بحماسة للدراسة في المعهد الطبِّي، أتمتع بتسليخ الضفادع والديدان والأرانب في السنة التحضيرية. ثم بدأت بالتشريح والتسليخ البشري في (المشرحة) في السنة الأولى. كان علينا تدبير الهيكل العظمي بوسائلنا الخاصة، وهي باختصار السطو ليلاً على المقابر، ولا سبيل لتداركها إلاّ كذلك. يرافقني ليلاً رفيق، نحمل علبة كبريت، وننزل إلى قبر جماعي هو كهف واسع في مقبرة (الشيخ رسلان) في أطراف المدينة شرقاً، نحمل في كيس على ظهورنا ما نحتاج إليه وما يزيد عن الحاجة من عظام الأموات، نبيعه لمن يحرص من الرفاق الأكابر على راحته ودفء فراشه. وأكثر هؤلاء من الطلاب العراقيين، وكان من بين رفاقنا عدد منهم قبل وجود كلية الطب في بغداد.

نملأ الجمجمة بالحمص وننقعها في الماء، فتفرقع صباحاً وتتفكّك عظامها الملتحمة.

لا وجود للكتب الطبيَّة والتدريس باللغة العربية، والدروس إملاء من الأساتذة، يتكلمون عربية تركية مكسّرة، مترجمة عن أصل فرنسي. ثلاث لغات لا يتقنون أيًا منها.

كنت أنسخ في العطلة الصيفية النوتات، وأبيعها مع مطلع العام للقادرين على الشراء، كما كنت أقوم بعمل معيد لجمع من الطلاب العراقيين بشكل خاص، يشربون البيرة وأنا أشرح الدرس، يصبون الشراب في كأسي، فأُلقي بها تحت المقعد، لأبقى صاحياً وهم غافلون.

وكذلك أقوم بدور المدرِّب المعيد للمقصرين في التسليخ. المشرحة قاعة فسيحة فيها مناضد رخامية، وفي زاوية منها باب ننزل منه لقبو بدرج حجري ضيق ينتهي ببركة تسبح فيها جثث بشرية يفصل بين حوض الذكور والاناث حائط من القاع حتى السقف، ورائحة الفنيك (لحفظ الجثث من التفسخ) تزكم الأنوف في الصيف اللاهب، وعشرات من الجرذان تتراقص على أطرافها أو تسبح، تنهش وتتبرد، يعطيني آذن التسليخ مفتاح المشرحة لينعم بإجازة صيفية، وأتمتع بدلاً منه بحمل الجثث السابحة، أستخدم عصا في رأسها كلاب ثلاثي، أرفع الجثة تقطر ماء الفنيك إلى الطابق العلوي، وأقوم بدور المعلم.

تدعم هذه الدروس بمردودها ميزانيتي السنوية في الحدود الدنيا من الإنفاق، وقد كنت عند وعدي للوالد بأنّي سأتدبّر أموري المالية.

لا يقبل في الفحص التكميلي من الطلاب غير السوريين خاصة إلاَّ مَنْ يدفع للأستاذ خمس ليرات ذهبية لقاء دروس خاصة. وهي ضريبة أو رشوة، كما تريد أن تسميها، تساعد في الانزلاق وتسهيل المرور من سنة إلى أخرى. وإذا تمرَّد البعض ولم يدفعوا، فإنَّ عليهم إعادة السنة الدراسية، ويرسبون في الفحص الشفهي إذ يطرح عليهم الأستاذ الكريم أسئلة مفخَّخة، يعجزون عن الاجابة عنها، والشهود لجنة المميَّزين، تأخذهم سِنة من النوم بعد الغداء الدسم الأميري ظهراً أيام الفحوص.

عدد قليل من الأساتذة يتعاملون مباشرة أو بالواسطة مع السوق السوداء

للنجاح، يهدِّدون الطلبة طوال العام بالاستحقاق في نهايته، وتعمد الأكثرية من المدرِّسين إلى أسلوب أرفع مستوى شكلياً، بأن يرفض الأستاذ دخول الطالب الفحص النهائي إذا لم يشتر الكتاب المترجم للمادة.

وصدرت قرارات تلزم الطلاب بشراء كتب الأساتذة تشجيعاً للتعريب، وتُجدد الطبعات سنوياً قبل نفادها.

شهدنا طرد طلاب من جلسة الفحص أو المختبر عندما اكتشف المدرِّس أن الطالب المحتال لم يدفع ثمن الكتاب. لا تقدّر قيمة الكتاب إلاّ بالذهب، ولا يطمئن بعضهم إلاّ بعد استخدام ميزان الذهب، خوف أن تكون الليرات ناقصة، يرفضون القطع خفيفة الوزن أو الممسوحة، فالكتاب السمين بالمعدن الثمين.

يقوم بترجمة بعض الكتب طلاب مقرَّبون من الأساتذة يعطى لكل منهم ملزمة، والأستاذ الموزِّع الفؤاد، اللاهث بين عيادته وتدريسه ومشاغله غير الطبيَّة أحياناً، يضمّ ما ترجم الطلبة الأذكياء، ويدفع برزمة المسودات إلى مطبعة الجامعة. بعض هذه الكتب تحف نادرة تجمع أخطاء الترجمة والطباعة والاستهتار، والقليل منها مقبول.

معظم أساتذة مواد التدريس من خريجي (استامبول)، ولغتهم العربية تكسير وتهشيم، وتبدو لغة طلابهم العربية والفرنسية أحياناً أفضل من لغة الأساتذة.

كثيراً ما كانت تنتهي السنة الدراسية من دون أن يتسلم الطلاب إلاّ النذر اليسير مما طبع من الكتاب (ملزمة أو اثنتين لا أكثر)، أو يؤجّل التسليم لأجل غير مسمًّى، ويبقى إلزامياً دفع قيمة كامل الكتاب نقداً ومقدماً وقبل الفحص، كل هذا فداءً للعرب والتعريب!!

اهتديت مصادفة إلى عنوان الكتاب الذي يُترجم منه أستاذ الأمراض الباطنية، فاشتريت المصدر الفرنسي، أقرأ الدرس وأترجمه بالقاموس قبل جلسة إملاء الدرس، والخطيب المدرِّس يتبختر على المنصة العالية، يرفع

الصوت ويخفضه، يملي علينا ما كتب من ورقة بين يديه. واكتشفت صامتاً طبعاً أخطاء في الترجمة كما فهمتها.

لا يزيد عدد رفاق الصف عن خمسة وعشرين من أبناء المدن السورية وبعض العراقيين وقليل من الأردنيين والمصريين.

يفترض أن تكون علاقات هذا العدد المحدود من الطلبة مع أساتذتهم رفاقية وديّة، وأن تكون ذكريات أيام الشباب والجامعة من بين أجمل ما في حياة الانسان.

نقيضاً لجميع هذه الفرضيّات، كانت أجواء المعهد الطبّي مزيجاً كريهاً من الخوف والإرهاب، والحذر يحكم جميع علاقاتنا الاجتماعية.

بين الرفاق غربة إقليمية، يلتف فيها، ويتحصّن حولها أبناء كل بلد بعضهم حول بعض، العراقيون، الحلبيون، الحمويون، والدمشقيون. ولا أذكر يوماً دخل فيه دارنا رفاق الدراسة لقضاء سهرة، أو أننا قضينا يوماً في نزهة او رحلة معاً.

كذلك كانت علاقاتنا مع الأساتذة إرهابية. وبمناسبة ومن دون مناسبة، نستمع لمعزوفتهم: سنلتقي في نهاية العام.

الأستاذ في حينه امبراطور وبطريرك: كرش ضخم، وبذلة سوداء، وحذاء لماع، ونظارات، وعصا (بسطون)، وخطوات ولفتات موزونة.

يملي الأساتذة مادة الدرس، يتأخّرون أو يغيبون دون اعتذار، ويستعجلون نهاية الحصة، تلاحقهم مشاغلهم العديدة المتنوعة، تجارية في السوق أو في العيادة المزدحمة.

والخلاصة: استنفد التكالب المادي عند معظم المدرِّسين ثمالة الاحترام الافتراضي من نفوسنا، وتمت تنشئتنا أطباءً في حدود الرضوخ والإذلال والنفاق.

كذلك كانت أجواء التعامل مع الرفاق تناحرية غير ودودة. والمعهد الطبّي لا يتسع إلاّ للذكور من الشباب، والأنثى الوحيدة في المعهد ظلٌّ باهت لإنسانة مذعورة في سن متقدمة عنا.

■ طبيب مقيم في المستشفى

قضيت سنوات الدراسة الطبيّة محتفظاً بالمركز الأول، وأتنازل أحياناً إلى الثاني، ثم نجحت قبل السنة الأخيرة بمسابقة لانتقاء المقيمين. يتم تعيين اثنين من الناجحين، وهما مرشحان بعد ذلك لوظائف هيئة التدريس.

انتقلت فجأة بعد نجاحي إلى عالمي الجديد، أشارك مع ثلاثة من الرفاق المسؤولية عن شؤون مرضى المستشفى بكامله وجميع اختصاصاته. ليلاً ونهاراً، باستثناء ساعة أو اثنتين يتواجد فيها الأساتذة المعلمون المدرّبون.

نتولى شؤون الإدارة والطبابة، ونتصرف بأرواح ومشاكل الطعام والأمن لـ ١٥٠ ـ ٢٠٠ انسان مريض، ورهط من الخدم والممرضين والممرضات، في فترة تمتد من ظهر كل يوم وحتى صباح الغد.

نستقبل حالات الطوارىء الوافدة من جميع أنحاء المدينة، بل من رقعة جغرافية تشمل المحافظات الجنوبية في سوريا: حوران وجبل العرب وحمص أحياناً. والمستشفى الوطني مركز طبّي حكومي وحيد في هذه الحدود.

يقوم عدد من الخدم بخدمة السادة الأطباء الذين يشغلون أوسع غرفة مع بلكون واسع يطل على المدينة، ويقدم لنا طعام متميِّز يسعى متعهد توريد مواد إطعام المرضى والموظفين مع الطبَّاخين، ليؤمنوا لنا أفضل ما يمكن لنسكت ونغضّ العيون على أسوأ ما يمكن.

بين ليلة وضحاها ارتفعت بي الدنيا إلى السماء السابعة مرة واحدة، من كسار للحطب وإسكافي للفوتبول، ونباش للقبور إلى ديكتاتور دوكتور، صغير الحجم، ولكنه صاحب سلطات لا حدود لها. طفرة انسلاخية حقيقية، تماماً كما تقع طفرة دودة زاحفة فتصبح فراشة تطير متراقصة بألوان أجنحتها الزاهية، لا تستقر على غصن تتهادى طرباً لخلاصها من عفن الأرض ولزوجتها.

أصبحت على يقين بأنه لا يجوز ولا يمكن أن أساير ميولي القديمة في

التواضع والقبول بأيّة نوعيّة من الأحذية والألبسة والكرافات. وبدأت بحماسة ودون بذخ تمثيل مواقف الترفُّع والاستعلاء لتأكيد الهيبة، إنسجاماً مع المرتبة الجديدة، محاولاً إسدال ستار كثيف على الماضي القريب البغيض.

فالانسان الجديد في مواقع السلطة يتصرف بأرواح المئات، ويشرف مع فريقه على إسعاف حالات طوارىء الوافدة، وعلى الحالة الصحية للمقيمين داخل المستشفى من مرضى قد يتعرَّضون لاختلاطات بعد الجراحة، يدير ويصرِّف أمور الجميع، والمشاكل الطارئة، في حدود مملكة واسعة وبصلاحيات غير محددة. لو لم يكن هذا الانسان شيئاً غير عادي لما بلغ كل ذلك!!

كنا نتشاور ونقرر ضرورة فتح البطن أو الجمجمة أو بتر الأطراف، ونقوم بعد استشارة الأستاذ المختص، أو دون ذلك أحياناً، وننتظر الجواب الشفهي إذا وفّق الرسول في الوصول إلى المركز الأعلى، ويكون الجواب غالباً بالموافقة على الرأي السديد، ليرتاح المتعبون أو الغارقون في أحلامهم أو مشاغلهم العديدة.

الأساتذة الكرام يثقون بنا وبغيرنا ايضاً، إيثاراً لراحتهم، ومصاعب الانتقال ليلاً عديدة، أقلها عدم وجود سيارات الأجرة، وتستأثر ملاهي الليل ومقاصف دمر بعربات الخيل النادرة ليلاً.

في عالمي الجديد مفاجآت يومية وحسابات والتزامات في الحركة والابتسامة والتعامل مع الناس وخاصة التابعين لنا. قبضت في نهاية الشهر خمسة وعشرين ليرة سورية غير منقوصة تذرعت في البدء بالسكينة والوقار حتى تجاوزت باب المستشفى ثم ركضت أضحك وأحدِّث نفسي لا ألوي على شيء، حتى وصلت الدار ولوَّحت بالأوراق في وجه الأهل المبهورين بالنجم العظيم.

تجمعنا المائدة العامرة ظهراً في بهو خاص مع رجال الإدارة في المشفى وبعض الأساتذة أحياناً، واستعمال الشوكة والسكين جديد عليّ، والمضغ من دون فتح الفم، وشرب الشاي من دون صفير، والضحك من

دون شخير، والأناقة من دون تبذير، كلها من سلوك المهذبين الأكابر، وقد أصبحت منهم.

والأهم من كل ذلك أننا نعيش مجتمعاً فيه قطيع من الإناث، قابلات وممرضات وطالبات تمريض وقبالة. هذا الجنس الآخر عالم مسحور لم يسبق أن عرفت منه إلاّ وجه الوالدة وأخواتي البنات. والصبايا الممرضات في المستشفى حور عين يَسْعَيْنَ بين أيدينا.

التزمت في البدء ظل مدرِّبي المتقدم عليّ كطبيب مقيم أقلده كظله، وإذا فوجئت بتحية أنثى عابرة في مماشي المستشفى وزواياه، يحمرّ وجهي وترتجف أوصالي وأتلعثم، وأرد التحية، فإذا رافقتها ابتسامة فهناك مؤامرة مدبَّرة، أو أن المسكينة عاشقة. تذرعت في بادىء الأمر بالاستعلاء لا أوجّه تحية عند دخول القاعة، والممرضات بانتظاري للقيام بالجولة اليومية، والعبوس والحركة البطيئة الموزونة، دليل الرفعة والمهابة ألتزم حدودها ولو أنّها نقيض طبيعتي.

لم تكن مواقف الإناث أفضل مما كانت أحوالنا، ومع ذلك فالمتقدمات منهن أحسن تصرفاً بعد سنتين أو ثلاث من العيش في المجتمع الذكوري. ورغم ذلك كان حرصهن على تجنب الاقتراب منا شديداً خوفَ الدنس أو على الأقل الهمز واللمز ورصد الكلمة والابتسامة والشائعة.

قد يبدو كلامي شطحات قلم وخيال، لذلك أعود فأؤكد بأن ما أصفه بسطور كان شاغل يومنا وأمسياتنا في الحديث والإشارة. أجواء الحذر والتقوقع وشرود الذهن، نتائج منطقية لأول خطوة في السير على الكوكب الجديد. نتعامل مع الجنس الآخر من المرضى والممرضات، متذرعين بالوقار والعبوس. كان يكفي أن يطلب أحد الأطباء الشباب خدمة أو أداء عمل من ممرضة، ويكرّر ذلك وهو يبتسم أو يشكر، لتنطلق الأقاويل. وتنفرج الأسارير، ويتهاوى العبوس والاستعلاء إثر أول ابتسامة او تحية حارة أو ملامسة عفوية غير مقصودة.

لا يمكن حصر أسباب حيرتنا وسلوكنا المعقد، ومن الجنسين معاً، بأنّه

نتيجة مواجهة حديثة تاريخياً بين جنس غريب وآخر غريب وجديد عليه، بل تمتد جذور المشكلة إلى أعمق من ذلك، فالأنثى العاملة طبقة من الإناث دونيّتها مزدوجة.

تقضي مفاهيم وأعراف وسلوك تلك الأيام أن السيد الأب وصاحب العمل، والحاكم وما فوق ذلك هم أصحاب حقوق غير محدَّدة على الأبناء والأجراء العاملين في خدمتهم، يتصرَّفون بهم كمتاعهم وعقارهم وقطيعهم، يرعون شؤونهم أفراداً وجماعات، وكل وصي راعٍ لما دونه. التفاتة كريمة من الأعلى إلى الأدنى تَفَضّل وحظوة لا تتوفر للجميعِ. والممرضة العاملة هي في مستوى أخفض بكثير من مستوى الطبيب والمدير والأستاذ. هذا هو التراتب والنظام التقليدي الاجتماعي الوظيفي، وهذه هي العقلية والتعامل السلوكي السائد. ولا يزال الكثير من كل ذلك قائماً أو غير مستنكر في مفاهيم مجتمعنا حتى اليوم، وهي بقايا غير أثرية لحق مالك الرقيق في ما ملكت يمينه من عقار أو إنسان.

كان الحجاب تاريخياً أيام (سومر وبابل) لباساً للنساء الحرائر، وحصانة المرأة بحجابها، يؤكِّد بأنّها ملكية خاصة لا مشاعة، ولا يجوز للنساء الأخريات ممن يتعاطين أقدم مهنة في التاريخ (الدعارة) ارتداء الحجاب.

يُطرح الحجاب، وتخرج للعمل نساء طبقة محدَّدة من العبيد والمنبوذين الفلاحين، يلوث أيديهم وثيابهم طين الحقل وسباخه. وهي أعراف سائدة وفي جميع أنحاء عالم الظلام التاريخي.

والخلاصة، كانت تربيتنا وبيئتنا وتكويننا النفسي، على الرغم من ميولنا الطبيعية المكبوتة لإثارة الإعجاب والافتتان، هي دستور تصرفاتنا السلوكية مع المُساعِدات، استعلاءً خجولاً وانتظاراً للفرص في نزوة أو متعة عابرة مع بضاعة متاحة.

لا نزال نعاني جميعاً الكثير من المشاكل ومواقف الحيرة والتردُّد في المواجهة بين الجنسين نتيجة للخلفية التربوية التي تفرض ازدواجية متناقضة بين الظاهر والباطن، بين التهافت والازدراء بين المخدع وما يراه الأهل

ويسمعه الجيران، مزيج من الاستخفاف والعبادة.

إن تواجد الأنثى في حياتنا العامة خارج أسوار الدار ظاهرة حديثة، لا يزيد تاريخها عن نصف قرن فقط.

وعلينا أن نتكلم بصراحة ومن دون مواربة عن واقع نظرتنا إلى مهنة متميزة إنسانية حقيقية حيث يصنّف التمريض والقبالة بين مهن الخدمات الوضيعة. وعليه فالعاملون فيها من طبقة خاصة دونية.

اتخاذ الأنثى للإسعاف والمواساة مهنة تعيش منها هو هبوط وانتماء إلى مستوى أدنى بدعوى أن الممرضة تتعامل مع الانسان من الجنسين على السواء، فالطبيبة تتعامل أكثر منها مع الجنس الآخر، وتطّلع أعمق منها على أسرار التشريح والفيزيولوجيا وعلم الأحياء؛ ورغم ذلك فالطبيبة إنسانة من طينة وطبقة أخرى، نعاملها زميلةً وبإعجاب وانبهار أحياناً.

تنتسب إلى مدارس التمريض نوعيّة طبقيّة محدّدة، عجزت موارد الأهل عن إمكانية متابعتها الدراسة الجامعية المديدة نسبياً للالتحاق بالطبقة الأعلى. إنّها طبقة متوسطة من الناس الذين يرفضون العمل في مستويات أدنى، ويقبلون بالحلول الممكنة.

ذُهلت في أول زيارة لمستشفى في باريس كيف توقّف الأستاذ، وقد تجاوز السبعين من عمره، مع معاونيه وطلابه، أمام قاعة المرضى يستأذن رئيسة الممرضات أن تسمح له بالدخول، وسارت أمامه تسجل ملاحظاته، ولقبها (الأخت) كبيرة كانت أمْ صغيرة في السن.

لو تفتح أبواب كليات الطب أمام المتفوّقات من الممرضات والقابلات، لساهم ذلك كثيراً في تبديل سريع لنظرة المجتمع وتقويمه للمهنة الانسانية الحقيقية، أعني بها مهنة التمريض.

انتقلت خلال العامين من عملي كطبيب مقيم بين شُعَب عديدة متباينة، وكلما انتقلت من شعبة جديدة إلى أخرى، شعرت بالانسجام السريع مع الجديد، فأقول هنا الميل الحقيقي والاستعداد للتخصُص والنجاح، والفوارق

بعيدة بين عمل جراحي يتطلب مهارات يدوية، وأمراض النفس كدراسة فلسفية فكرية، وتقلّبت بين مخابر التحليل الحيوي والتوليد بعد الأمراض العصبية والجراحة العامة.

وراء الحماسة لكل جديد اندفاع محموم للوصول، وإقبال على أية فرصةٍ خوفَ ضياعها.

وأنهيت العام الثاني كطبيب مقيم، وقد نجحت في إعطاء صورة مقبولة عن إنسان دؤوب نشيط، وكذلك مساير غير متعب، وهي جميعاً شروط ضرورية تجعلني مقبولاً من الأساتذة، يرغب كل منهم في أن أكون مساعداً له وخليفة.

في مطلع عام ١٩٣٤ وقد انتهت سنوات التدريب، وأنا في حيرة مع العروض العديدة من عدد من الأساتذة، وصلتني في مطلع كانون الثاني برقية من الصليب الأحمر الفرنسي بأن عليّ أن أكون في منتصف الشهر في باريس للالتحاق بدورة كفاح السل. والمنحة الصَدَقَة المخصَّصة ثلاثة آلاف من الفرنكات، تعادل في حينه (١٥٠ ليرة سورية لا غير) للإنفاق منها على السفر والإقامة في فرنسا لفترة ثلاثة اشهر، أي خمسون ليرة سورية في الشهر، وهو مبلغ تافه حتى في حساب تلك الأيام. فقد دفعت ثمن بطاقة السفر في الدرجة الثالثة على الباخرة من بيروت إلى مرسيليا مئة ليرة سورية ومثلها إياباً. حملت البرقية أسأل، فلما أطلعت رئيسة الممرضات الفرنسية على البرقية (وهي عجوز في الستين من عمرها) أخبرتني بأنها بدأت في بناء مستوصف للصليب الأحمر في دمشق من أجل معالجة المسلولين، وأنَّها رشَّحتني للمنحة الكريمة.

بدأت استشاراتي مع الأساتذة، وقد تبدّلت كاملاً صلاتي بهم، واتفق رأيهم على أن الموضوع لا يستحق الاهتمام، فالمنحة ضئيلة رمزية، والسل مرض لا يعالج إلاّ بالهواء النقي والشمس والغذاء الدسم.

أهملت آراء العقلاء واتبعت هوى النفس، فمنذ فترة الدراسة الثانوية، لا أكاد أصدق أو أتصوّر نفسي أسير في شوارع باريس، الجنة الموعودة.

وعزمت الاستجابة للفرصة المتاحة رغم أنّي لم أوفر من راتب الخمسة والعشرين ليرة كطبيب مقيم ما يمكن أن يساعدني على تحقيق الأحلام، فقد كنت أنفقها على هندامي وأناقتي.

أخبرت الأهل بالعزم على السفر، ولم أستشرهم. وما ضرورة ذلك وأنا كيان مستقل؟!

استدنت من أخي مئة ليرة سورية لأجهز نفسي، وركبت البحر بعد عشرة أيام بالدرجة الدنيا، ولزمت فراشي في قاع السفينة وبجوار مطبخها، وكاد دوار البحر ان يبدِّد ضباب الآمال والأحلام معاً، فقد انهارت قواي، والقيء والدوار يلازماني طوال ست وثلاثين ساعة، هي الفاصلة الزمنية قبل رسو الباخرة في مرفأ الاسكندرية المحطة الأولى، وأيقنت قبل ساعات من بلوغها بأنّي على أبواب النهاية مدفوناً مع أحلامي الجنونية.

زارني طبيب الباخرة، ورجوته أن ينزلني إلى البر في أقرب فرصة ممكنة، فالدراسة في الكتب والمجلات تُغني بل تفيض عن حاجة الراغب في التعلم والاستزادة.

مع رسو الباخرة، انتصبت على قدمي صحيحاً معافى، وتابعت الرحلة طبعاً.

الفصل الرابع

في مهب الرياح العاصفة

١٩٣٤ ـ ١٩٤٠

فرضت الصيام على نفسي خلال أسبوع الرحلة البحرية، والتزمت الزنزانة في قاع المركب الذي تتلاعب به أمواج كانون الثاني.

كان طبيب الباخرة كريماً بالمخدرات، أنام معها طويلاً، ويفوتني أحياناً نهار بكامله أو أكثر.

وأخيراً أوقفت الباخرة محركاتها والتصقت بالرصيف في مرسيليا. هبطت مسرعاً، أرتمي على الأرض، وأنعم بثباتها تحت قدميّ، وفكّت عقدة لساني عندما وجدت الصديق رشاد فرعون بانتظاري من دون موعد.

فرحتي بالأرض الثابتة والصديق القديم والعالم الجديد من حولي، ساهم كل ذلك في فوران شعور عارم مخزون من النشوة والانطلاق.

دخلت مرسيليا، أقذر مرافىء المتوسط وأكثرها ازدحاماً، بقلب مفتوح وعيون جاحظة، أريد ابتلاع واستيعاب كل شيء جديد، فقد كنت لا أرى إلاّ ما أشتهي وأريد رؤيته في خيالي المسبق الصنع. ملابس البشر الأنيقة المتجانسة، انسجام البناء والشارع، والقطار النظيف ينساب دون ضجيج، خضرة في السهل والجبل، يشتهي الإنسان أن يرى لون الأرض العارية. كنت مبهوراً بكل شيء، ولم أُشاهد السواد والفحم والأقذار، والمتسكعين

والمجرمين المتربصين على الأرصفة إلاّ بعد تسعة شهور، وأنا في طريق عودتي إلى دمشق.

نزلت من القطار، وشدّني رَفيقَي عندما وقفت مشدوهاً أتابع منظر العشّاق في زوايا المحطة والطريق متلاحمين، أنتظر نهاية للقبلة التي لا ترتوي. وعجبت بل شعرت بالإحباط، بعد عدة أيّام، كيف لم ترتمِ عليّ غادة من العابرات، كما كان يوحي إليّ خيالي المريض عن مدينة النور.

بدأت بزيارة تعارف لمركز الصليب الأحمر، عندما دخلت على مدير المكتب، قابلني مشدوهاً بصفير، يتأمل قيافتي. ارتعدت واحمرت الوجنات، إلى أن قال: «أنت أنيق اكثر من إنسان يستحق الصدقة!!». هدأت وطربت وأدركت بأنه كان ينتظر أن يدخل عليه قرد هارب من أدغال الشرق البعيد، واعتدت بسرعة نظرات الاستخفاف والدهشة، تظهر على الوجوه في كل مرة أُقدّم نفسي بأنّي من دمشق.

بدأت أُتابع بشوق وانتظام دروس السريريات ملتهماً كل ما يُقال في مدرجات المشفى وقاعات المرضى. أدهشتني أجواء النقاش المنساب بين الأساتذة ومساعديهم للحالات الصعبة. يستمع الأستاذ لآراء معاونيه، يشرح كل منهم في مجال اختصاصه وجهة نظره، وتدوم الجلسة ساعات هانئة، سمفونية رائعة وديمقراطية علمية صحيحة، وهي أجواء غريبة تماماً عمّا اعتدت عليه خلال عملي في المشفى الوطني، حيث لا وجود لأي تعامل مع الأساتذة إلاّ في حدود النفاق وتكرار كلمة نعم نعم!! فقد استوعب كل منهم محتكراً علوم الأولين والآخرين؟!

لم يكن انبهاري بأجواء النقاش في المشفى والجامعة في باريس امتداداً لما وصفت من حالة عمى الألوان التي أُصبت بها عند وصولي إلى مرسيليا.

إيضاحاً لذلك أضيف في السطور التالية صورة عن زيارة أستاذ لمرضى القاعة في المشفى الوطني بدمشق:

يدخل الأستاذ الكبير الحجم والسطوة، وأسعى بين يديه ممهداً، أُتابع

خطواته المتسارعة، يشخِّص الحالات فوراً دون أن يمسّ المريض، يكتفي بالنظر في سحنته! شطارة وإلهام وخبرة! هذا تشمع، هذا التهاب كلى، هذا قصور قلب... الخ، أهز برأسي منافقاً، وأكيل المديح مؤكِّداً صواب التشخيص العلمي الدقيق.

والخلاصة نقيض لما يمكن أن أنتظر وأتوقع شخصياً، أو يتصوّر الأهل والأصدقاء، لم أشعر أبداً بالاغتراب، بل العكس من ذلك، كنت منذ الأيام الأولى مقبلاً متحمساً، ومعجباً بالبلد الجديد، مندفعاً أحاول اختزان أكبر قدر ممكن من المعارف، في سباق محموم مع الساعة. أبدأ عملي في الصباح، وأتنقّل متابعاً برامج مكثفة بين عدد من المستشفيات، وفي اختصاصين معاً: التدرن والتحليل الحيوي المخبري، ولا أعود إلى غرفتي قبل أن تغلق مكتبة كلية الطب أبوابها في العاشرة مساءً.

قبل انقضاء أشهر المنحة الثلاثة، أبلغني الصليب الأحمر، تجديدها، وبعدها منحة ثالثة حصيلتها جميعاً تسعة شهور، والمنحة الصدقة بمجموعها أربعمائة وخمسون ليرة سورية لا غير.

حاولت خلال نشاطي الدراسي وبحذر شديد التقرُّب من رفيقات الدراسة أو الممرضات، وفشلت جميع محاولاتي غير الجريئة. لغتي في اللفظ ركيكة، وفوق ذلك أتلعثم مرتجفاً ويحمرّ وجهي خجلاً، وأخشى أن أتهاوى إذا طلبت محدّثتي إعادة الجملة أو الكلمة التي لم تفهمها، والطفل في مجتمعاتهم لا يرتبك عند السؤال. والمغامرة مع رفيقة من صيد الرصيف فوق إمكانياتي السلوكية والمادية معاً. ومن حسن حظّي أن تأخَّر بل لم يحدث أبداً أن وقعت المعجزة التي كنت أنتظرها خائباً، فلم تهاجمني أو تجرّني من يدي إلى زاوية، أنثى يائسة أو بائسة مهجورة.

قبل انتهاء أجل المنحة الأخيرة، وقد بدأت العطلة الصيفية، اتفقت مع الرفاق (بلغ عددنا أربعة)، وقد أنهينا المهمة العلمية، على أن تبدأ الرحلة السياحية، وأول خطوة فيها الالتحاق (بأكاديمية) الرقص. بعد جلستين من التمرين، ندور حول المدرِّبة وبيدها سوط، كالدببة في السيرك، انفجرنا

نضحك من حركاتنا في المرآة. زجرتنا فلم ينفع معنا سوى الطرد بعد أن أعادت لنا ما دفعناه.

عزمت على إنهاء اقامتي في فرنسا خوف الضياع، وقد صادفت عدداً من رفاق المدرسة الثانوية ممن أقاموا طويلاً في فرنسا، يحتالون متسوّلين ليطيلوا أيام إقامتهم، ومهمتي وهدفي محدّدان، وقد تمَّ الإنجاز، وبقية ما في الجيب تكفي ثمناً لبطاقة العودة.

عدت إلى دمشق في بحر صيفي هادىء، وآمال وطموحات واثقة، ولم أشعر أبداً بالأسى والأسف على ترك البلاد التي كانت جنة الخلد في خيالي.

قضيت في فرنسا ثمانية شهور مشدوهاً ومشدوداً بالأجواء العلمية، ولكني لم أعرف فرنسا ولا الفرنسيين. عشت ورفاقي الثلاثة في شقة واحدة نتكلم العربية، ونأكل عربياً، ونسهر أو الأصح ننام ونصحو فلاحياً، مع غروب الشمس وطلوعها.

عشت الأشهر الثمانية ولغتي وأنا أغادر فرنسا أسوأ مما كانت عليه عند وصولي. لم تكن صلاتي مع الفرنسيين إلاً في حدود التحية بهز الرأس، وليس لديّ ما يكفي من الوعي والوقت والمال لشراء جريدة أو مجلة.

الاندماج الرفاقي في مجتمع الاغتراب انسجام ولغة مشتركة ومنطلقة. الاختلاط الطبيعي خارج العمل لا يكون إلاً بين الجنسين، والرّفقة بين الذكور في حدود العمل والوظيفة فقط. وأمّا النزهة والمطعم والرحلة، فلا يمكن تصوّرها إلاً مع رفيقة أو أكثر، وعليه يستحيل ان يتعلم اللغة إنسان معزول يعيش مع رفاقه ويخاف على عذريته! عشنا هذه الفترة نعوم متفرجين على واجهات المجتمع الفرنسي، وباريس بلد الأغراب من كل جنس وقومية، ومنهم الفرنسيون. والعائلة الفرنسية محصَّنة، عنصرية، خاصة تجاه القادمين من الشرق والجنوب، فالصورة عن غير الفرنسيين مشحونة بالخوف والحذر التاريخيين والتعامل مع الشرقيين مغامرة خطيرة، وجذورها تاريخية في صراع الوجود والاختلاف.

■ الظروف المستجدة الشخصية

بعد عودتي من فرنسا، تقدمت وحيداً لمسابقة مساعد مخبر وبسهولة ودون عراقيل تمَّ تعييني في مخبر الشعبة الداخلية.

بعد شهرين من ذلك كنت أستقبل المراجعين في غرفة دار الأهل. وبعد سنة تقريباً استأجرت عيادة قريبة من المشفى الوطني، أتنقل بخفة ورشاقة بين العمل الوظيفي الذي لا يأخذ من وقتي إلاَّ ساعتين او ثلاثاً يومياً، وبين العيادة الخاصة التي تستأثر بكل اهتمامي. واشتريت بعد ذلك بالتقسيط المريح جهازاً ألمانياً للأشعة.

مغريات العمل الخاص كبيرة، وبدأت أقارن حسابياً بين راتب الوظيفة الشهري ومردود يوم واحد من العمل الحر. واعتماداً على نتائج حساب الربح والخسارة عزمت على أن أترك الوظيفة، وعرضت الفكرة على الأصدقاء، فاستنكروا واقتنعت، وبدأت أعيد التوازن بين الطرفين.

تبدلت بعد ثلاثة سنوات أحوالي المادية، فقد أكملت دفع أقسام ديون لتجهيز العيادة، وبدأت أتطلّع للرفاه والوجاهة والأناقة، فاشتريت سيارة مستعملة صغيرة أبدلتها بعد سنتين بأخرى جديدة.

تبدلت جذرياً أحوالي الشخصية، ولكني لم أبدل شيئاً من تعاملي مع الأهل في البيت، فلم أحاول إطلاقاً المطالبة بتبديل نوعية الطعام أو الغرفة، وبقيت دار الأهل وأجواؤها حميمة دافئة خاصة بعد ولادة ابن لشقيقي، يملأ على أهلي برودة أيام شيخوختهم، وكنت أنعم معهم قضاء ساعات أداعبه في أحضان البيت الهانىء. لم يطالبني أحد بالمساعدة إلاَّ في مجال الطب طبعاً. دعوت الوالد مرات عديدة أوصله إلى بستانه بالسيارة، فكان يعتذر دائماً بأن لديه مقابلات في طريقه إليه. كان يرفض خجلاً أن يركب سيارة ابنه أمام معارفه، وقد تجاوز عمر الوالد في حينه الخامسة والستين. كذلك لم تطلب الوالدة ولا الأخوة جميعاً نزهة أو رحلة.

ترفّع من دون كبرياء، مني ومنهم على السواء، وحدود عفوية صادقة

لعلاقات وديّة خالية من الطمع والغيرة. كان الجميع على مثال الوالد راضين وقانعين حامدين شاكرين، لا يرون من الكأس إلاّ نصفها الممتلىء، ولا يشيرون إطلاقاً للنصف الفارغ منها. كنت أخبرهم، أو يفهمون من خلال ما أحمل إلى الدار أحياناً، بأنّي أقضي عطلة الأسبوع في بيروت مع رفاقي، أو أذهب لتناول طعام الظهر في شتورا لنعود إلى عياداتنا. وتفجّرت خلال هذه السنوات طلائع نشاطات رياضية تعويضية متبرجزة (التنس، السباحة في البحر وبعد ذلك الصيد).

كانت دمشق في هذه الفترة حقلاً للحصاد وجمع المال تنفقه طبقة معيّنة بسخاء في زحلة وبيروت، والطريق مفتوحة دون عوائق بين البلدين. كانت بيروت عاصمة فعلية لسوريا ولبنان معاً، وفيها مقر المفوضية مصدر السلطات جميعاً. ودمشق بل وسوريا ريف لبيروت، ينعم الهابطون إليها بأنهم جميعاً غرباء لا هوية لهم، ولا رقيب على تصرفاتهم.

نقصد بيروت مساءً برفقة صديق خبير يعرف الملاهي، ويعرفه روّادها وأصحابها وسدنتها، ينتقل بنا غالباً لأكثر من ملهى في الليلة نفسها، نتناول شراباً ونغادر للطواف على الجميع وإثبات الحضور لتوثيق العلاقة، والكشف عن البضاعة الجديدة المستوردة من الارتيستات.

وظيفتي وموقعي من كل ذلك سائق سيارة سائح ومتفرج على العالم السفلي، منكمش لا أشرب إلاّ في حدود ضيقة، حذر لا أُقارب إطلاقاً سوق الرقيق الأبيض.

لم نكن كمجموعة حالة شاذة أو بدعة في حينه، كانت الوجاهة الليلية تقضي بأن يرحِّب أصحاب الملهى بالمستجدّين من الزبائن الدسمين، يطرب قائد فريقنا بأنه معروف بالأسم. وتقضي الوجاهة الليلية توثيق الصلات بحياة الليل، وبضاعتها المستوردة، وتجارها ووسطائها. إذا طلب الزبائن الأصدقاء مجالسة فنانة أعجبتهم، أو أية خدمة أخرى سعى أصحاب الدار يخدمونهم، ويقدّمون لهم أفضل ما لديهم لينفقوا كل ما لديهم أو يستدينوا.

توفر بيروت المفتوحة على البحر غرباً، بمباذلها وبضائعها وخدماتها. توفّر للوافدين إليها مرتعاً ينطلق في أجوائه القادمون إليها، يتمتّعون بما لا توفره قرى الداخل الكبيرة جميعاً، كما كانت مرجعاً طبياً أرفع مستوى مما يتوفر في المشافي السورية. ويتخفف الجميع من أجواء التزمُّت ورقابة المعارف والألسنة الطويلة، فيضيعون متحرِّرين بل متحلّلين.

أحب الطعام الجيد طبعاً، ولكني لا أرفض ما دون ذلك، أشرب قدحاً وبهدوء مسايراً، وأفضِّل عليه كأس ماء بارد. وإذا أُكرهت أو خجلت وشربت الكأس الثانية، أنام على المائدة، وأُداري حالي خوفاً من القيء والأرق والانزعاج لأكثر من ليلة بعد ذلك.

أسمح لنفسي بالتعليق على هامش هذا السلوك المضحك الذي مارسته عدة سنوات، فأتساءل: كيف احتملت وسايرت سلوكاً يناقض بشكل صارخ طبيعتي وعاداتي، رغم أنّي تجاوزت في حينه سن المراهقة، وعمري ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين؟!

في إحدى السهرات التي أشرت بلمحات إلى مجاريها، انتهينا مع أضواء الفجر ونحن نسبح على الشاطىء، وقبل أن نفترق اتفق الرفيق إياه مع فنانة قضت السهرة على مائدتنا وأكملتها معنا في البحر، اتفق معها على أن تجرني من يدي لأكمل الليل في سريرها. استمر الشد والرفض فترة من الوقت، أدركت المسكينة بعدها أنها بضاعة غير مرغوب فيها، تركتنا نتحاور غاضبة، ولعنات الرفاق اللاذعة تلاحقني فأدركت بعدها أنّي هائم في صحراء التيه، وبدأت الصحوة.

وعليه إذا كانت هذه ثوابتي، فما دوافعي للقبول في التنقل الداعر بين الملاهي؟

بصدق وتبسيط: كانت دوافعي حتماً زيادة الإسراع في الهروب، والالتحاق بطبقة الحضاريين والمتمدنين! محاولة انسلاخ مستحيلة لأنها زائفة لا تمت لجذوري التكوينية بأية صلة.

■ عواصف مدارية

في خلفيات سلوكي غير المنطقي في سهرات بيروت ازدواجية في السلوك والتفكير. كنت أعاني في هذه الفترة من نكسة حادة لميول عاطفية، كنت أعتقد مخطئاً بأنّها قد انطفأت قبل عودتي من فرنسا. وإليكم القصة من أولها:

في العام الثاني، وأنا طبيب مقيم في المشفى، وعمري عندئذ في الثانية والعشرين. لاحظت أنّي أُتابع باهتمام، وأرصد خفيةً تحركات ممرضة ممشوقة القد، وأشعر بالرجفة والخفقان عند سماع نقرات كعب حذائها، وأُميّز هذه النغمات عن بُعد حتى أتأكّد من مرور طيفها. تتلوى مستندة وهي تصعد درجات سلم المشفى العريض. تُلقي التحية هامسة، فتتهاوى مفاصلي هرباً من المواجهة خوف الفضيحة.

كانت من جانبها، كما تهيأ لي، تترصّد المناسبة للانفراد بي، وتسألني عن خدمات خاصة، وأنا أُجاهد مذعوراً من المفاجآت خوف ملاحظة العابرين لاحمرار الوجه أو الرجفة على الشفاه، أخاف نزع القناع وانكشاف زيف القامة المشدودة، والعبوس الصارم.

وتأكدت غير واثق بعد غيابي تسعة شهور في فرنسا بأن كل هذا الذي عانيته لم يكن أكثر من نزوة عاطفية عاصفة. ذلك أنّي خلال فترة ابتعادي عن دمشق لم أسأل ولم أكتب ولم أفكر بالتي استأثرت باهتمامي الصامت خلال سنة قبل ذلك. لقد طردتها من ذاكرتي أجواء الانغماس المحموم بالبلد الجديد والأجواء العلمية الدّسمة.

عدت إلى دمشق وفي يقيني أن ما كان قبل السفر لا يتجاوز حدود فوران الكبت والحرمان.

ذهبت مسافراً مكبوتاً وخجولاً، وعدت كما ذهبت، أُحاول إغراق نفسي في العمل بين المشفى والعيادة.

وفجأة وجدت نفسي في مواجهة حيّة مع ذكريات لم تنطفىء جذوتها

تحت الرماد. وجدتها أمامي في المشفى وأنا أسهر كل ليلة في تحضير قوائم مخبر حديث للشعبة الداخلية، تتسلّل بهدوء لتسأل عن أية خدمة. واتسعت بعد عودتي إمكانيات التستر والسهر والانفراد بين المشفى والعيادة الخاصة، وتأجّجت العاطفة أشد مما كانت عليه.

في رحلاتي الاسبوعية الى بيروت كنت مرتبطاً عاطفياً بدمشق بينما أسير مع الرفاق أحاول الهروب من واقع الحيرة، والتردُّد يمزق توازني الفكري.

وبدأت أُمهِّد لزواج متسرع للخلاص من الدوامة الرهيبة.

أخلاقيات تلك الأيام قاسية لا ترحم، وأنا في حقيقة تكويني ابن لعقلية القروي المتصوف.

والمشكلة في أبعادها الحقيقية ليست لأنها ممرضة، فقد زارت دار أهلي، ورحَّبوا بها من دون تردُّد. محور الحيرة والتردُّد أنَّ التي أرشّحها لتكون رفيقة عمري مجدورة (أصيبت في طفولتها بالجدري)، وآثار المرض المشوّه للبشرة في الوجه ظاهرة بوضوح على الوجنتين.

رغم قبول الأهل ورفض الأصدقاء، كنت أتساءل: وكيف سأواجه المجتمع الأوسع والأرفع؟!

هدَّدني الرفاق بالأسوأ إذا صممت وتماديت، وتحركت في داخلي نوازع الانسانية الأنانية: ممرضة لا تكفي، ولا تدعم الطبيب الشاب المتأنق والمتسلق صاعداً.

تصرَّف الرفاق بشكل مباشر، وقد اتفقوا على أنّي صريع غرام الحرمان، وأنَّهم اذا تمكنوا من تحطيم قيودي السلوكية المحافظة، فسوف يتم شفائي من حمى فقدان الوعي.

دعاني بعد ذلك أحدهم إلى رحلة استجمام في القاهرة وسافرت لفترة اسبوعين، وذهبنا لقضاء سهرة عند معارف له، فوجدت نفسي بعد منتصف الليل في بيت للدعارة السريَّة.

حاولوا استدراجي للشراب أولاً، ثم بالإغواء، وأنا أشعر بالمزيد من القرف والنفور. رفضت بغضب وتركت الدار فوراً إلى الفندق.

رغم كل ذلك تركت رحلة الاستجمام اثراً عميقاً في نفسي، أدركت بعد ذلك أن الزواج الذي أزمع أن أتحدّى به مجتمعي مغامرة، وأن موقف الأصدقاء كاشف يؤكّد أن المجتمع الأبعد منهم لن يتقبّل زواجاً غير مناسب، وأن الزواج علاقة شخصية واجتماعية معاً.

لا بدَّ من أن العديد ممن يقرأون ما أكتب يبتسمون إشفاقاً، أو يضحكون استهزاءً بمواقف القديس المترهّب! بالتأكيد انِّي لست كذلك إلاّ في حدود الرهبنة التي هي مشتقة من الرهبة من علاقة الامتهان والعدوان في موضوع الدعارة والعبودية، وتقضي بأن تكون العلاقة الجنسية تجارة، تفحص وتنتقي البضاعة عياناً في السوق المفتوحة او المغلقة تحت ستار تقاليد الزواج الأصولي، يقوّم فيها كل من الطرفين المتعاملين الطرف الآخر بميزان الثروة والسلطة وبأسعار السوق الرائجة، أو احتمالاتها المستقبلية، وهي سوق متقلبة غير مستقرة.

إنِّي ولأسباب لا أدرك جذورها، أكره بعناد وأرفض بشدة كل ذلك، وأعترف كما قلت بأنّي عاجز عن تفسير هذا الموقف الأخلاقي، إذا أردتم، والمتعصب المتطرف غالباً.

فالعلاقة بين الجنسين كما أعتقد، وأتصرّف أيضاً، محكومة بمبادىء التعامل الإنساني المتكافىء الحقيقي، ولا بديل عن ذلك.

يناقض هذا الموقف الفكري والسلوكي المتزمّت ذرائعية تصرفاتي الحياتية الأخرى، كما يناقض ايضاً إيماني بالفيزيولوجيا والغرائز الحيوانية، والتي لا تخضع لأحكام المنطق والعقل والواجب، مهما حاولنا الترفُّع والتسامي. الإنسان حيوان ناطق وعاقل. ولا بدَّ للإنسان من تعقيل اندفاعاته الفيزيولوجية، كما يفعل واعياً لعقلنة سلوكه العام.

الإنسان البدائي جداً، أو الفاقد للوعي الكامل بالشراب أو المخدّر،

يعطّل مراكز اللجم والنهي النفسانية، وكذلك الإنسان الخاضع في تكوينه الهورموني البنيوي للجموح غير الواعي، جميع هذه النماذج تهبط مع العلاقة الجنسية إلى مرتبة الفيزيولوجيا الحيوانية البحتة.

وفكرة الخطيئة والدنس دينية أخلاقية وغير قديمة في التاريخ البشري، وثلاثة أو أربعة آلاف عام هي مجرد لمحة بقياس ثلاثة ملايين ونصف المليون من وجود الانسان العاقل على الأرض. والمشكلة بأبعادها وتموّجاتها في التشدُّد والتحلُّل، كما نعرفها في العالم المتحضر، غير مطروحة اطلاقاً في افريقيا السوداء أو بين القبائل البدائية من سكان اوستراليا وأميركا الأصليين. ثم إنَّ قواعد السلوك الجنسي وعادات الشعوب في هذا المجال مختلفة ومتطورة أيضاً جغرافياً وتاريخياً. وأخلاقيات قبائل الطوارق المسلمة شاهد على اختلاف السلوك بين الأقوام ولو انتسبت إلى دين واحد، وتأثير جوارها الأفريقي واضح في كل ذلك.

رافقني زميل في سفر لعدة أيام في أوروبا، ولاحظت أنّه يترك غرفته قبل النوم، ويهوم باحثاً على الأرصفة عن أنثى شاردة مثله تقبل أن تشاركه فراشه. ويؤكّد دائماً أنه لا يمكن أن يغفو إذا لم يفعل ذلك، وكأنّه يبحث عن طريقة للتخلص من فضلات حاقنة كالبول من المثانة أو الغائط من الأمعاء.

كذلك أعرف بعضاً من رفاق الدراسة ممن يرون في العدوان والتحرش والاستباحة تعويضاً عن الخيبة في الدراسة أو في العمل المهني وتأكيداً للتميز، يرون في عدوانهم الداعر انتصارات وفتوحات يسجلونها.

بعد الاسهاب في موضوع يستأثر بقسط وافٍ من تفكير وتساؤل شبابنا وكهولنا منذ اليفع وقبل الشيخوخة، أعود إلى نهاية المغامرة العاطفية الفاشلة. أنهيتها بعد العودة من القاهرة دون ضجيج، وساعدني على ذلك اتساع علاقات اجتماعية جديدة، وميل مع ريح ذات اتجاه مختلف، وتصميم متجدّد على التركيز على ضرورة تحقيق طموحاتي اللولبية الصاعدة.

أتوقف قليلاً لإيضاح وتصحيح فكرة قد تراود بعضاً ممن لا يعرفونني. إنّي عندما أقول (تصميم على تحقيق طموحاتي المتسلقة مثلاً) لا أعني إطلاقاً

أنّي كنت في حينها أُخطِّط لذلك عقلانياً، وأتصرف في حدود الخطة المرسومة. إنّي أُحلّل، وأنا أكتب الآن بأنه كان نتيجة توجه لاشعوري كامل للخلاص من رواسب متاعب الماضي، وتثبيت الانتماء الجديد إلى ما أصفه بالارتقاء والتسلق. كما اكتشفت وأنا أستعرض هذه المرحلة، والمراحل السابقة واللاحقة أيضاً، أنّي كنت عشوائياً ضائعاً ومناقضاً لما أريد الاقتناع والإقناع به من أن تصرفاتي كانت صادرة عن عقل كبير!

ازدادت قناعاتي بأنّي أعيش أيام التيه وأن في الحياة الزوجية الخلاص. لقد تهيأت لي فرص وتلميحات بإمكانية الزواج من عائلات ميسورة. كنت أرفض من دون تردُّد، فإنّي لا أتصور نفسي صهراً لعائلة من طبقة الوجهاء.

أخاف من نظراتهم المشفقة على المتسلق، ووجهاء زمان طبقة مغلقة على نفسها وسلوكياتها تقليد للأجانب العثمانيين ثم الفرنسيين والأميركان أخيراً.

مرد الرفض اعتداد مفرط بالذات ورفض التبعية، وشعوري الواثق بأنّي لست منهم ولن أكون مقبولاً إلاّ ملحقاً بهم.

كان السبيل الوحيد تقريباً للزواج من خارج دائرة بنات العم هو أن تطرق الوالدة أبواباً لا بدَّ من ان يكون ارتفاع عتباتها معقولاً، فإذا تساهلت في تقدير نفسها، وتطلّعت إلى أعلى من مواقعها (والبلد قرية كبيرة يعرف الناس بعضهم بعضاً أبًا عن جد)، ودفعها الغرور والإعجاب بـ (الله يسلّمه!) فالويل لها من الألسنة الحادة التي لا ترحم في مجالس نساء (النادي والبريدج والاستقبالات) لا يتردَّدن في البحث عن الجذور، وتصبح موضوع حديث تسلية وتندّر مع قصص الفضائح الاجتماعية.

وقد يتم الانتقاء والموافقة بين أهل الطرفين اعتماداً على الوصف الشفهي، والسؤال عن الثروة المتكافئة. ويعقب ذلك المساومة في حدود الأصول التقليدية. وعلى العريس وأهله دائماً تقديم ما يليق وفي مستوى زواج أخواتها وبنات عمّها، القريبات والبعيدات معاً، يبدأ ذلك بالمهر المقدّم

والمؤخر، ثم بالدار والمفروشات وصانعها، والمجوهرات والهدايا وتسعيرها، ولا ينتهي مع ثمن الشعر صبيحة ليلة الزفاف!

شريط هذه الصفقات التجارية البحتة، وأحاديث القبض والدفع والتأثيث والشروط الممكنة، والمستحيلة احياناً، كان كل ذلك يباعد بيني وبين أي تفكير بزواج تقليدي.

وفي أعماق ذاكرتي في حينه أنّي هارب من الاضطهاد والتبعية في سن الطفولة، ويرفض المنطق والعقل أن أسعى بقدميّ لأعود تابعاً خاضعاً مرة ثانية لإرادة أسياد من طبقة لا ترحم واقع الدخيل عليها. وإذا تغاضت عنه شخصياً بعد تدجينه فلن توفر منابته وأصوله، وإنّي رافض لدونيتي أمامهم.

■ من صور خداع الذات

أعود مرة ثانية إلى صور من التناقض اللامعقول في سلوكي.

عشت خلال وجودي سنة دراسية في فرنسا مع رفاق الدراسة، نتكلم العربية، ونتقاسم الشقة المستأجرة. كان نصيبي من الخدمة جلي الأوعية وتنظيف أدوات الطعام. كنا نطهو طعامنا من المحاشي والبامية والباذنجان، نبحث عنها في بقاليات يونانية. عشنا في فرنسا أجواء سوريا، فلما عدت إلى دمشق وتوفرت لدي إمكانيات مادية كافية، بدأت مرحلة الفرنجة، أبحث عن الطعام في بقاليات الفرنسيين في دمشق. وكذلك أتصرف في اللباس والسلوك بشكل عام وكأنّي انسان عائد من المهجر. تعرّفت خلال هذه الفترة، أو الأصح أنّي التصقت متجاوباً مع توجهاتي المتفرنجة، بزملاء متزوجين بأجنبيات من جنسيات مختلفة. كنت أشعر بالراحة في دعواتهم وأجواء بيوتهم، الزوجة الأجنبية صاحبة حق تمارس السيادة في مواجهة الزوج الأدنى مرتبة! والطعام الغربي مبهر، ويؤكّد المذاق المغترب الضائع بأنه لذيذ ايضاً، كذلك كنت أُحلّل وأُبرّر!

وترسّخت لديّ تدريجياً قناعات بأن رفيقة العمر اللائقة للانسان التائه، لا بدّ من أن تكون أجنبية. وقد يكون وراء ذلك نيّة مضمرة بأن هذه الأجنبية

سوف تقودني مكبّلاً، تفتح أمامي أبواب نوادي الطبقة الأعلى، تدخلني إليها طائعاً مستسلماً، وقد يجزى المرء رغم أنفه.

كنت أصرح بيقيني الجديد، أؤكّد بأنّي لا أرى ولا أتصور وجود أنثى في دمشق يمكن أن تنطلق متحررة من وصاية الأهل والتقاليد، وكأنّي شخصياً ولدت جديداً وانسلخت من جذوري البلدية المحافظة والتقليدية.

عندما كنت أروي متحمساً قناعاتي الجديدة كان ينصحني الرفاق السوريون وزوجاتهم الأجنبيات أيضاً، محذّرين: «نحن حالة خاصة وشاذة بتفاهمنا وانسجامنا. إيّاك وأن تغامر وتفعل ذلك». وانتهت في الواقع أكثر هذه الزيجات الشاذة بالطلاق أو هروب الزوجة بأولادها، أو بالزيجة الثانية، كما شهدت بعد سنوات من تلك الأحاديث.

كان الصليب الأحمر يدعو سنوياً لحفلة راقصة لمنفعة صندوقه. اشتريت للمناسبة ومثيلاتها بذلة سهرة (سموكن سوداء خاصة وربطة عنق فراشة وحذاء لماع)، فإذا اختلط الحابل بالنابل بعد منتصف الليل، وارتخى الفك والمفاصل وعقدة اللسان بفعل القدح الثاني، أدخل حلبة الراقصين، ولي الحق في أن أدوس ثياب أو أرجل المسكينة رفيقة دائرة الرقص، أو تدفيش الآخرين من دون اعتذار. لا أتميّز بين الأنغام والإيقاعات المختلفة (كله عند العرب صابون) إذا كنت في كامل الوعي، فكيف يكون ذلك ممكناً وأنا أتماسك نشوان خوف الفضيحة؟! أسأل رفاق المائدة قبل أن أندمج في الحلقة: ما هي هذه الرقصة؟ فإذا قالوا: تانغو، أسرعت، وإذا بدّلت الموسيقى إيقاعها، ثابرت على الخطوات الرتيبة الأولى، بعد أن تكون الكأس الثانية قد أتت على ثمالة الحذر والحيطة والاتزان.

وبصدق وصراحة، أتمنى أن أتذكر ليلة واحدة كنت فيها منسجماً مع نفسي، ومرتاحاً في هذه الأجواء الكرنفالية.

شعوري الحقيقي في مجالس الملاهي هو الوحدة والغربة والانكماش على الذات. يدعو الرفيق إياه في بيروت فنانة للجلوس إلى مائدتنا، ويجلسها عامداً بجانبي، فلا أجد موضوعاً للحديث إلاّ السؤال عن أهلها، ودوافع

عملها في المهنة، وتضيق ذرعاً بالباحث الاجتماعي، أو الواعظ العجوز المتنكّر في أوكار الدعارة، وتبتعد عني.

واليكم مشهداً قبل عودتي من فرنسا:

تشجع رفيق لنا ودعا لمائدة الغداء مع الفرسان الأربعة واحدة ممن يسمونهنّ (بنات الرصيف)، فلما انتهى الطعام رشّحني الصياد للانفراد بها. قالت في الطريق إلى الغابة القريبة إنّها عطشى. قلت: أرى في زاوية الشارع سبيل ماء عام. وبدأت الحديث كأنّي محقق أو باحث اجتماعي بالسؤال عن الهوية والوضع العائلي، ودوافع الاغتراب.

أخرجت الانسانة الشاردة رسالة من أهلها، وبدأت تقرأ فقرات وتترجم حال أمها المريضة التي دفعتها للسفر كي تتدارك المال اللازم للعلاج. وسالت دموعها حنيناً، واشتد انفعالي المشفق، وعدنا إلى الرفاق وقد تركناهم ينتظرون نتائج المغامرة، داريت خيبتي وهم يهزأون من الضمير والأخلاق.

سلوكي بكامله تمثيل بمعنى التهريج الفاشل، غير المقنع، والمال في أعمق جذوري النفسانية كالروح لا يجوز التهاون والإسراف في هدره، واليد مقبوضة في حدود الحساب، والعقل ينتفض صاحياً لا يسمح للشراب أن يعطل سلطانه. كنت في أجواء الملاهي والانتقال بينها أدفع حصتي ولا أزيد. وإذا رافقني صديق لشراء حاجة، تنتهي الجولة، فيشتري الآخرون ما لا يحتاجونه، وأعود متفرجاً أراجع نفسي حول النوع والثمن والضرورة.

■ نهاية التيه

في مطلع عام ١٩٤٠، وبعد قيام الحرب العالمية الثانية، عالجتُ في غرفة خاصة في المشفى الوطني سيدة مصابة بحمى التيفوئيد. أدخلُ غرفتها صباحاً، فلا ترفع عينيها عن كتاب تقرأ فيه، وحرارتها حول الأربعين. أُبادرها التحية والسؤال عن الحال فتجيب بترفّع واستخفاف، وبحركة من الرأس أو الجفون، وعلى الوجه تعابير الضيق بالفحص والفاحص والارشادات.

المريضة فنانة (أرتيست) تعمل في أحد الملاهي الليلية في دمشق، هنغارية، عادية في جمالها، تكبرني بسنتين.

بعد شفائها ورغم العلاقة الصقيعية في أثناء المرض وفي طور النقاهة، طلبت مني بواسطة زميل تقريراً طبيًا لإعفائها من العمل الليلي. سألتها في إحدى المرات باستهتار وعفوية أيضاً عما إذا كانت تحتاج إلى خدمة من بيروت، فطلبت مرافقة الركب الأسبوعي اذا كان ذلك ممكناً. قضينا يوماً كانت فيه الرفيقة اللبقة والمحتشمة والمضيفة على مائدة الطعام.

وتكرَّرت الزيارات وأنا أنزلق معجَباً. رجاني أحد الرفاق الذي كان يتكلم معها الألمانية أن أفسح له المجال، فازددتُ تمسكاً، وتكرَّرت الرحلات البيروتية، تنتقي الملابس والهدايا.

تأتي ظهراً، تهيّىء في العيادة طعاماً افرنجياً، تتفنَّن في تنويع أنواعه وأشكاله. وفي غفلة من الزمن، وأنا تائه قبل ذلك وبعده ايضاً، وبتشجيع من بعض الرفاق، وصمت وحياد الآخرين، وبعد شهرين تقريباً، وجدتني معها عند قاضي بيروت الشرعي نعقد القران. وعدنا إلى دمشق، واستأجر العروسان غرفة في فندق الشرق (أوريان بالاس).. أضخم فنادق المدينة في حينه.

أتساءل بعد خمسين عاماً ونيف من تاريخ كل ذلك: كيف تتكرّر رحلة (دون كيشوت) بالزواج من فنانة في دمشق، أتحدَّى بها مجتمع أهلي وعشيرتي، وأُحاول عبثاً بسلاح مغلول ومطيَّة متهاوية أن أقتحم نادي الفرسان النبلاء بأحلام وآمال صبيانية؟

في صبيحة ليلة الزفاف شعرت بنذر العاصفة، بل الهاوية الفضيحة التي سرت إليها بقدميّ وكامل وعيي بينما اعتقدت بأنّه الخيار الحر والعاقل. تعاقبت متلاحقة بعد الصباح الأول، وتراكمت أمور صغيرة تافهة، جعلتني موقناً بعد أيام بأنّني ارتكبت حماقة كبيرة.

من ذلك مثلاً أنّي أصحو دائماً مع نور الشمس ومهما طالت سهرتي.

انسحبت صباحاً من السرير، واستعملت الحمام، حدثت حركة طبعاً، ألقيت بالمنشفة على السرير، نزعت حذائي وسط الغرفة، مشيت حافياً أبحث عن البيجاما والشحاطة. كظمت غيظها في البدء، ولكن السحنة تدل على شحنات من التوتر المتعاظم. ثم بدأت الزمجرة وأعقبها غضب متفجر، وأفهمتني بلغة بلدها دون ترجمة، وبالسحنة المقلوبة أنّي انسان دوني غير متحضر وغير لائق بالأميرة.

وتتكرّر المشاهد المأساوية المضحكة، دعانا صديق للغداء في مطعم، قدَّم لها لفافة دخان سحبها بيده من علبتها، فرفضتها بحدة. أوصت على حذاء، وخالف البائع وعده، ألوان ملابس الناس سخيفة، تفوح رائحة الماشية في الشارع بدلاً من العطور! وفي كل مساء قصة أو أكثر ومواقف صلف واستعلاء.

تابع الأهل أخباري من رفاقي، تجاهل الوالد ما حدث بكبرياء، ولم يبدِّل شيئاً من تعامله معي، بقي صامتاً، يداري بصبر عجيب جراحه، وهو شيخ معمَّم ابن السبعين ونيف، وابنه يسكن عل بعد مئة متر من داره مع زوجته الفنانة!

زارتني الوالدة في العيادة مبتسمة، تكفكف دموعها، وتؤكِّد بأنَّ الزمن كفيل بتسوية الأمور. موقف عمِّي الضابط سابقاً إيمان مطلق بحكمتي. فاجأني بعد أيام من الزواج بالسؤال عن صحة ما سمع، قلت: صحيح، خدعته ابتسامتي العريضة التي كانت تتستّر على الضيق المكتوم والجحيم الذي أعيشه في مخدع الزوجية. فقال إنك انسان عاقل وموثوق، وانتقاؤك لا بدَّ وأن يكون كذلك صائباً أتمنى لك التوفيق.

لازمني شقيقي يزورني يومياً في العيادة يهدىء من خاطري، ويؤكِّد بأن أجواء البيت طيبة وأنهم على استعداد لاستقبال العروس الهابطة.

أشاعت هذه الأجواء العائلية الحنون، والترحيب بالانسان الذي استهان وتجاوز جميع الحدود. . . أشاعت في نفسي الثقة بأن الملجأ لا يزال متوفراً

للعنزة الشاردة التي أصابها الجنون، وشعرت حسياً وربما للمرة الأولى بأنّني أنتسب إلى عائلة من العاقلين والمحترمين.

احتملت صابراً مرحلة تمثيل الزوج السعيد لفترة ثلاثين يوماً فقط، أكشّر مبتسماً وأنا أهبط سلم الفندق، وأسير تائهاً مستغرقاً في عملي اليومي، أخاف مرتعداً من ساعة الغروب. أعود للغرفة الزوجية ساكتاً، أرد التحية ولا أُبادر بها، ولا أسأل كيف قضيت السيدة الوقور، وكتابها بين يديها، كيف قضت يومها، خوف إثارة بركان الشتائم. وفي لحظة هدوء غير عادية، قالت إنّها اكتشفت كنيسة كاثوليكية في محلة عرنوس، تعرّفت فيها على رفيقات أبناء جلدتها، وأنّها تذهب طالبة المغفرة عن الخطيئة... خطيئة الزواج من العربي المسلم، لا خطيئة سلوك الملاهي الليلية، ولا خداع الآخرين والكذب عليهم!

وانتهى شهر العسل المر بعد الأيام الثلاثين، وسافرت العروس بالاتفاق والموافقة إلى أهلها، تراجع حساباتها.

استمرت رسائلها بعد السفر تعلّل وتجدّد العهود، وتأمل أن تعود مع ما يليق من الأثاث لدار الزوجية.

دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا في منتصف حزيران ١٩٤٠، وكنت أنتظر مع رفيق على رصيف الميناء في بيروت وصولها بناءً على برقية تحدّد الباخرة. منعت السلطات الفرنسية دخول المركب الإيطالي، وتأكّدت بعد اتصال برقي مع القبطان بأنها غير موجودة بين ركاب السفينة.

كان ذلك قطرة الماء التي طفحت بها الكأس، وعدت إلى دمشق. وبعزم جديد باشرت فوراً معاملة إنهاء الزواج. وفي ساعة صفاء تحت ماء الدوش الحارة، عزمت على أن أتزوج ومن بلدي، ومستوى أهلي وعشيرتي، وبالتحديد من إنسانة كانت أثارت الوالدة انتباهي لوجودها، وقد رافقتنا مع ابن عمتها الصديق منير شورى في رحلة إلى بيروت.

ارتديت ملابسي فوراً، وذهبت لصديق الطفولة أطلب منه أن يسأل ابنة خاله ريمة كرد علي ابنة أحمد كرد علي إن كانت تقبل بالخائب العائد إلى الحظيرة وتمَّ الزواج بعد أسبوعين فقط في الرابع من شهر تموز ١٩٤٠، وذهبت مع رفيقة العمر نقضي أياماً في لبنان.

اختتمت بزواجي خمسة أعوام من التخبُّط في التيه، أتهادى مع الأنواء والسراب والرمال المتحركة، فوجدت نفسي من دون ميعاد على الشاطىء الأمين الذي حاولت خائباً القطيعة معه، وآمنت بأن دوامة الحياة لا ترحم من يتحدّى قوانين الجاذبية وعمق الجذور والعودة إلى الأصول.

أتمتّع وأنا أكتب، أسجل وأستعيد رحلة الذهاب والإياب مع نوازعي الصبيانية وسلوكي العشوائي، أتساءل وأنا أراجع كشف حسابي الحياتي، كيف أجد لكل لحظة على اختلاف وتناقض اتجاهاتها مبرّرات أجدها حالياً معقولة ومقبولة بعد نصف قرن من حدوثها، ومَنْ يدري ويجزم بأنّي في حينها كنت في موضع المخادع أم المخدوع؟!

أعتذر فقد استأثرت قصتي الشخصية في هذه المرحلة بكل ما سوّدت من صفحات كأن مشكلة البحث عن رفيقة العمر هي مشكلة مستقبل الإنسانية وتلخيص لهموم الكون.

الفصل الخامس

الحرب العالمية الثانية

١٩٤٠ ـ ١٩٤٥

اندلعت الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩ بعد فشل محاولات انكلترا وفرنسا استرضاء المحور (المانيا وايطاليا). وتدريجياً بدأ التحضير لحرب حتمية قادمة.

الأجواء السياسية في الشارع والاعلام والقيادات الحزبية جميعاً تعاطف بل وحماس للمحور (موسوليني وهتلر) باستثناء أقلية واعية من الشيوعيين والمثقفين.

كانت دوافع التزام جانب الديكتاتوريات نابعة من عداء للمستعمرين المقيمين بيننا (فرنسا وبريطانيا) ولوعد بلفور للصهيونية في وطن قومي.

حقيقة الصراع مع الصهيونية وطموحاتها الاستيطانية غير معروفة على حقيقتها، واليهود لا يستحقون أكثر من اللعنة والازدراء. والخلاصة: تمنياتنا بانتصار المحور تحقيق لأحلامنا بنهاية جميع المتاعب والأخطار، ونحن مع هتلر في عدائه لليهود. لم نسمع في حينه بكتاب هتلر (كفاحي) وأننا مصنَّفون فيه في مرتبة دنيا بين شعوب الأرض، كما نسينا مطامع ايطاليا في ليبيا والحبشة وبحيرة البحر المتوسط الايطالية.

ولعبت الإذاعة الموجَّهة دوراً كبيراً في حشد رأي عربي، ساد جميع أقطار العروبة، يتعاطف مع هتلر وموسوليني ويصفق لنكسات بريطانيا

وفرنسا. وساد ما يشبه اليقين بأن انتصار المحور (المانيا وايطاليا) هو نهاية للاستعمار الفرنسي والاستيطان الصهيوني، وتحقيق لجميع أحلام العرب من المحيط إلى الخليج بالاستقلال والوحدة والحرية.

بدأت أدرس اللغة الالمانية لغة المنتصر مع بدء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٠. قدّرت وقرّرت بأن المستقبل للسيد الجديد، وآمنت مع الجماهير في الشارع بأن الأمل في الخلاص معقود على انتصار الطاغية.

تعاطف العرب مع ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق وقد أعلن التزامه جانب هتلر وموسوليني، وفتح أجواء العراق للطيران الألماني. كذلك سافر الحاج أمين الحسيني مفتي الديار المقدَّسة، وزعيم الثورة الشعبية الفلسطينية، ليصبح مستشاراً عند الديكتاتور.

كان التأييد الجماهيري لانتصارات المانيا النازية تعبيراً عن وجدان المقهورين تاريخياً، يعبدون السلطة والقوة والمال.

العرب مع قياداتهم التقليدية غائبون عن عصرهم، لا يدركون بأن الحرب القائمة ليست أكثر من حرب (أهلية أوروبية)، يقتتل فيها الشياطين للهيمنة على العالم.

لم تعترض أي دولة أوروبية على وعد بلفور، ذلك ان هذا الوعد يحقق للجميع مصالحهم، ويرمي سرب عصافير بحجر واحد في الخلاص من الأقلية اليهودية البغيضة. ويزرع في قلب العالم العربي البغيض لديهم ايضاً، الغرسة الأوروبية التي تفتّت الأرض والشعوب وتمكّن للطامعين.

قدّرت وقرّرت مرة ثانية ١٩٤٢ خلال عامين فقط الانتقال من اللغة الألمانية إلى لغة الفاتح الجديد الانكليزية. بدأت الدراسة اعتماداً على اسطوانات مسجلة وبالدوام في المركز الثقافي البريطاني.

■ أيام الحرب وبعدها

تفرض تحديات الاقتتال من اجل البقاء والهيمنة في الحروب سباقاً للكشف عن الجديد ومعالجة المشاكل باندفاع محموم، كانت الملاريا مثلاً

وباءً مستقراً في المناطق الاستوائية في الشرق الأقصى وينقلها البعوض، وتعرضت جيوش الحلفاء لإصابات كادت تشل قدرتها على الحركة. أنتجت المصانع ومخابر البحث في الوقت المناسب مادة DDT تقتل الحشرات من البعوض والقمل والذباب والبراغيث الناقلة لعدد من الأوبئة التاريخية، وأعقب ذلك الكشف عن البنسلين والستروما يسين، وسلسلة متصلة لا تنتهي من «الصادّات» (أنتي بيوتيك).

لست في مجال تعداد التبدلات التي لا يمكن حصرها في العلوم جميعاً، ولكن الطاقة الذرية والصواريخ العابرة للقارات والترانزستور والتلفزيون وآلاف غيرها من الكشوف، جميعها كانت أجنة أيام الحرب، أو مشاريع قيد التجربة قبل التطبيق. وكان من أبرز نتائج تناقص الأبعاد، وتقارب ما بين الشعوب في انتقال الأشخاص والأخبار والمعرفة، نهاية عصر العزلة، والتحصن وراء البحار والصحارى للحفاظ على التفرُّد والأصالة. وقد مهدت ورافقت حرب الساحات بالدبابات والغواصات والصواريخ حرباً اذاعية كلامية مخادعة ومضلّلة، تبعث وتثير الآمال والأحلام، أو تنشر الذعر والرعب في النفوس.

وبدأت الطفرة أو الطفرات الانسلاخية المتلاحقة تنهي النعيم والسعادة التاريخية بالخلود للسكينة والتأمُّل!!

كنا نتابع أخبار الحرب من محطتين اذاعيتين باللغة العربية، واحدة بريطانية (الشرق الأدنى)، أسلوبها رصين هادىء، تذيع من قبرص. والأخرى صاخبة تذيع من برلين في المانيا وقد اصبح مذيعها شخصية مشهورة جداً يستمع إليه الجميع، اسمه (يونس البحري). يتحلّق عامة الناس حول الراديو في المقاهي او عند الجيران، ويبدأ مسلسل الردح بالشتيمة والتهديد والوعيد والرثاء. يخلط النثر بالشعر، ولا يتورع عن الفاحشة من الكلام كما يمكن ان يفعل أي سفيه، والمستمعون اليه يهزجون مصفّقين يحفظون أقواله، يرددونها ويستشهدون بها ويرقصون على أنغامها.

من المؤكّد بأنّ جزءاً كبيراً من التعاطف الشعبي مع هتلر وموسوليني

كان بفضل هذا العربي الأصيل، يحرّك مشاعر الجماهير الانفعالية البدائية بالشعر والأمثال في الشحن والتنفيس.

وفي ظل ضباب وغبار المعارك وصراخ المذيع، كانت المراكب من جنسيات مختلفة تنقل أعداداً من اليهود الأوروبيين، في أكبر حركة هجرة جماعية منظمة من قبل الوكالة اليهودية، وبتواطؤ الدول المتقاتلة من الطرفين بادلت المانيا النازية عدداً كبيراً من يهود معتقلاتها في أوروبا الوسطى بآليات وسيارات وأموال؛ وتوجهوا يتدرّبون على الحرب الفعلية في كتائب الجيش البريطاني. ومع ذلك فقد صفّقنا طويلاً عندما اجتاح هتلر باريس، وكأنّه يفعل ذلك لحسابنا أو نيابة عنا. لم يتورّع مذيع العروبة المأجور وبعض الزعماء عن القول بأن هتلر وموسوليني موشكان على إعلان إسلامهما بعد النصر، ليكون أحدهما خليفة المسلمين. تماماً كما أعلن نابليون ذلك من القاهرة في مطلع القرن التاسع عشر.

بعد احتلال سوريا من قبل الحلفاء عام ١٩٤١، اشتد الصراع السياسي وتنازع السيطرة بين الفرنسيين الديغوليين والبريطانيين. وتولّى الجنرال البريطاني (سبيرس) قائد الجيش المنتصر إدارة شؤون البلاد مفوضاً سامياً جديداً، تزحف لمقابلته والاتصال به قيادات البلاد الوطنية، عساه ينهي الوجود الفرنسي ولو كان ذلك لحساب بريطانيا حليفة الصهيونية وحاميتها في العالم.

الخطة البريطانية للحلول مكان فرنسا في الهيمنة على المنطقة خطة خبيثة طويلة النفس لضمان الأمن والراحة للوطن القومي الصهيوني، وهي سياسة بريطانية استراتيجية ثابتة.

في عام ١٩٢٢ خطب (ونستون تشرشل) في مجلس العموم، وكان وزيراً للمستعمرات، يدافع عن اعلان بريطانيا فصل الضفة الشرقية باسم إمارة شرقي الأردن، وحاكمها الشكلي عبدالله بن الحسين. اعترض بعض الصهاينة من أعضاء مجلس العموم، يقولون بشمول الضفة الشرقية للأردن ضمن وعد

بلفور. قال تشرشل في الجواب على المعترضين: «إنَّ شرقي الأردن العربية ضمانة أساسية لأمن اسرائيل في المستقبل، ويستحيل على الدولة الصهيونية الفتيّة أن تدافع عن خاصرتها المكشوفة في حدودها الشرقية (وتمتد ستمئة كيلومتراً) إذا لم يتولَّ ذلك حكّام عرب، مرتبطون ببريطانيا، ويحتاجون لبقائهم على عروشهم إلى السند الكامل البريطاني، مالاً وسلاحاً وغذاءً وسياسة، يقاتلون لنصرة السياسة البريطانية في المنطقة الحساسة». وقد فعلوا كل ذلك وأوفوا بالعهد، فأين موقعي من كل أجواء الغليان والتطورات المتلاحقة؟

كان اهتمامي بالعالم الخارجي (أي خارج حدود ومصالح الذات) قبل الأربعينات محدوداً جداً، متفرج غير متابع، ومشاهد لما يجري على السطح، اقرأ الصحف وأُتابع الإذاعات كما يفعل الجميع. وتأتي أحاديث الرفاق في الشؤون العامة بعد السأم والانتهاء من الشؤون الخاصة.

في يقيني في حينه أن السياسة حرفة الذين لا يتقنون أية مهنة أو عمل، والاختصاص بالسياسة للوجهاء المترفين، يدعمون عن طريقها نفوذهم الشخصي والعائلي، ويحتفظون بل يزيدون من مكانتهم وامتيازاتهم، جهاز الدولة في خدمتهم، ولو تجاوز أزلامهم المنطق والقانون، أو أنهم هناك للتستر على التجاوز.

الثروة سلطة تورّث غالباً، ولا بد لبقائها والاستزادة منها لوجه العملة الآخر، وأعني به السلطة والتسلُّط.

كانت هوية الإنسان في التعامل اليومي قبل فترة الأربعينات إقليمية محلية وقبلية عائلية. وكانت مهمة ووظيفة النائب فيما يسمّى (مجلس النواب)، القيام بدور المحامي وموظف العلاقات العامة، يقدّم بطاقته ليفتح أمامه باب الوزير أو القريبين منه أو قائد المخفر، يطلب تعبيد طريق او نقل قريب او تعيين آذن، او الإفراج عن موقوف إرضاءً لناخبيه، ليضمن استمرار المهنة التي أتقن أساليبها.

كان معظم النواب مستقلين، أي أحراراً غير مرتبطين بأي حزب او كتلة، يصوِّتون في حدود مصالحهم الذاتية، ومبادلة المنافع والمساومة قائمة وعملة دارجة.

وعليه بقيت الحزبية ومفهوم الالتزام وانسلاخ الأفراد من حدود انتماءاتهم السابقة، بعيدة جداً عن الممارسة الحزبية السياسية.

دعاني في الثلاثينات للانتساب للحزب الوطني ابن العم نبيه العظمة، فاعتذرت من دون تردُّد، وسألته: «ولماذا أنتسب؟». وكذلك فعلت في الخمسينات دعاني أُستاذي مرشد خاطر للانتساب لحركة التحرير، قلت: «وما ضرورة ذلك؟». قال: «أنت نشيط ولديك مؤهِّلات لوظائف رفيعة في الجامعة أو الوزارة». أجبت مستهجناً: وزير؟! لماذا تريد أن تنزل مرتبتي؟ إنِّي سلطان على نفسي وتصرفاتي».

وتبقى الديمقراطية من دون أحزاب، أو من خلال الحزب الواحد الحاكم، وكذلك الديمقراطية في بلد أكثرية مواطنيه غائبون وأميُّون، هياكل كرتونية تخفي حكم وتسلط الأقلية أو الأفراد، وتعتمد على الكتلة الهلامية الشعبية، تحركها أجهزة السلطة في الاتجاه الذي تريد.

حدث انقلاب حسني الزعيم ١٩٤٩، وكان رئيس الجمهورية شكري القوتلي زعيم الكتلة الوطنية مناضلاً منذ الحكم العثماني، ويكاد يجمع المواطنون في حينه على ان القوتلي نظيف اليد واللسان وبطل الاستقلال والجلاء. رغم كل ذلك وضعه الانقلابيون في عربة مصفحة تدور في شوارع دمشق، يستمع للأهازيج تشتم العهد وصاحبه. التزم المواطنون جميعاً بيوتهم في أول انقلاب، وفي جميع الانقلابات الظاهرة والخفية بعد ذلك. . التزموا بيوتهم متفرجين كأن الأمر مشهد عادي لا يعنيهم.

بلاؤنا بالانقلابات العسكرية في العالم المتخلف نتيجة حتمية لترك ساحة العمل السياسي للقوة الوحيدة المنظمة المطيعة، تحمل السلاح وتمارس السياسة بالعصي والسجن والبنادق والدبابات من حين إلى آخر.

الاستقلال حدود لا بدّ من الدفاع عنها، فالجيوش ضرورة وطنية، ومبررات الفساد أو الاتهام به متوفرة للطامعين الانقلابيين. ومن أعجب ما يلاحظ في بلاد الانقلابات أن الأجهزة الحديثة الوحيدة والفعّالة هي الإعلام بإذاعاته وأقنية تلفزيونه، وصحفه ونشراته، ثم جهاز حديث متطور للمخابرات وأدواتها وشبكاتها التكنولوجية المتطورة جداً.

والسؤال بعد هذا التمهيد الطويل: ماذا تريد أن تقول؟

أقول: الديمقراطية تربية وكفاح واقتصاد وعلم متطور وإيمان بالإنسان. الديمقراطية التي نريد نقل مؤسساتها، لا تتوفر لها التربة للعيش في مجتمعات التخلف والجبرية والتواكل.

الديمقراطية ممارسة تبدأ في الدار، وتستمر في المدرسة وفي المصنع والنقابة والاتحادات، يمارس الفرد والجماعة التعامل في مستوى مقارعة الحجة والرضوخ للأكثرية.

وكل استعجال للقفز فوق المراحل بهلوانيات وقفزات في الفراغ. ويبقى التوجه الوئيد في التربية العائلية والمدرسة والمصنع والاتحادات والأحزاب، ورفع مستوى تحمل الرأي المناهض والمناقض، درجات لا بدَّ من ارتقائها لبلوغ مرتبة إنسانية ديمقراطية مقبولة وثابتة.

والديمقراطية الحزبية التي نراها ونسمع عنها مبهورين في العالم الغربي ليست عطاءً من الحكام مهما كانوا طيِّبين بل هي وليدة كفاح جماهيري تاريخي مديد انتزعت فيه الشعوب حقوقها في المشاركة والرقابة والنقد.

الفصل السادس

الممارسة الطبيّة

١٩٣٥ ـ ١٩٥٨

اندفعتُ بحماسة انفعالية محمومة بعد عودتي من فرنسا لتأثيث عيادة أستقبل بها المراجعين، فقبلت عرضاً من الأهل بإصلاح باب الدار والدهليز مع غرفة وراء الباب لتؤلِّف غرفة انتظار، وأخرى للمعاينة بانتظار ظروف أفضل.

حملت في حقيبتي من فرنسا مع أدوات المعاينة، عدداً من الشهادات حصدتها بالجملة، والحصول عليها غير عسير، لقاء دفع عدة مئات من الفرنكات عند ممرضة ومن دون الهوية الشخصية ايضاً. يكتب الطالب الاسم، ويحضر أو لا يحضر المنتسب للشهادة بعد ذلك، إلاّ عند نهاية فترة دوامها بعد شهر أو يزيد، ويتم تسليم الشهادة من دون فحص أو مسابقة أو تحقُّق من أن حامل الاسم في الأصل طبيب.

شهادات الدوام المزركشة بأختامها وألوانها وشرائطها ثمينة، ودليل على ان حاملها قد اغترب وغرف من العلم الغزير.

جهّزتُ الشهادات وعدّة العمل البسيطة (سماعة وجهاز ضغط وجهاز لحقن الريح الصدرية وعدد من الإبر والمحاقن). رشقت الشهادات في أطرها الجميلة الجديدة التي تزيِّن الجدران متألقة في غرفة الانتظار والمعاينة.

بدأت نشاطي الطبّي موزعاً في ثلاثة اتجاهات متناحرة، أبحث جاهداً

للتوفيق بينها. صباحاً بين مستوصف الصليب الأحمر والمشفى الوطني، وظهراً وبعد الظهر حتى المساء في العيادة الخاصة. وقد أزوغ خلال عملي الصباحي إلى العيادة القريبة إذا بلغني وجود مَنْ ينتظر.

بقيت عائماً في توجهات متناقضة بين العلم والمعرفة كما رأيتها تطبق في جلسات مدرجات ومشافي فرنسا، وبين الحرص المتزايد لنجاح جهودي في ارضاء الزبائن والجيب في مملكتي الخاصة الجديدة.

كنت أُعاني من مشاعر الدونية والتبعية في العمل الوظيفي، وبالعكس أشعر بالبهجة والانتعاش بعد الظهر وأنا سيِّد على المرضى وخادم العيادة.

كنت في الصباح ممسحة للمسؤولين وغير المسؤولين في الادارة، تُحال إليَّ مهمات تافهة يرفض أن يقوم بها الزملاء الآخرين، أصحاب العيادات الناجحة. أُكلَّف مثلاً بالتثبت من تمارض خادم، وكتابة تقرير كاذب للإجازة، أو العناية برفاق رجال الإدارة وأزلامهم ممن لا يليق حشرهم بين المنتظرين في العيادة المجانية، أو حضور دروس الأساتذة أسعى بين أيديهم.

واستقر تدريجياً في يقيني بأنّي سأبقى رخيصاً مهيضاً، ما بقيت في حدود أحلامي الطوباوية، في التوفيق بين العام والخاص، بين العلم والتجارة.

وانزلقت تدريجياً أسارير التيار السائد، فاستأجرت بعد عام ونصف العام عيادة لائقة قريباً من المشفى الوطني، واقترضت واشتريت تقسيطاً جهازاً للأشعة. وتقلّصت حماستي لوظيفتي الحكومية فإن دخل يومٍ أو أثنين في دكان الطبابة يعادل أو يفوق راتب الحكومة الشهري.

وكما انطمَسَت بل انمحت تماماً من الذاكرة مشاعر الخوف من الموت والمرض عندما بدأت دراسة الطب، كذلك تجاوزت بسرعة وسهولة مشاعر الأسى والتعاطف الحنون مع المرضى في محنتهم بحجة أنّي منقذ ولست مسؤولاً عما أصابهم! وتحدَّدت بوضوح أهدافي من الممارسة الطبيّة بضرورة النجاح والشهرة والاستزادة!

يتلقّى الطبيب مأساة الحياة والألم والموت جرعات متدرجة متلاحقة، تترك في النفس تحصيناً مناعياً، لتصبح ممارسة الطب روتيناً مهنياً عادياً، ومشاهد المرضى بعدئذ ومآسيهم والرعب في عيونهم مشاهد طبيعية.

لا تتفجّر المأساة وتبلغ ذروتها عند الطبيب إلاً اذا كان موضوع المرض والموت إنساناً قريباً أو عزيزاً.

لولا هذا التحصين المناعي لاستحال على الطبيب الإنسان ان يستمر في عمله واكتفى بأن يتأسى ويلتاع حزناً مع مصائب الذين يتعامل ويعيش بينهم.

أبدأ حديثي عن طبيعة الممارسة الطبيَّة بعرض موجز لموضوع اختصاصي وعملي في السل الرئوي Phtisiologie. كان السل الرئوي وباءً وسبباً رئيسياً للموت الباكر خاصة بين الأطفال والشباب. ويأتي السل على رأس قائمة أسباب الوفيات بشكل عام حتى العقد الخامس من هذا القرن.

■ الطاعون الأبيض

في الصفحات التالية عرض لواقع السل طبيًا واجتماعياً قبل الكشف عن الأدوية الفعالة: سُمّي السل الرئوي تحديداً بالطاعون الأبيض تفريقاً وتشبيهاً له مع الطاعون الأسود Peste المشهور تاريخياً بجائحاته العالمية وقد قضت في القرن الخامس عشر وخلال عامين او ثلاثة على نصف سكان الأرض او ما يقرب من ذلك.

مشكلتي مع اختصاصي بالسل الرئوي أو الوباء التاريخي الذي أتصدّى لعلاج إصاباته أنه مرض وبائي مقيم، لا يأتي كجائحات تنتهي بعد سنوات، بل إنه داء فتاك ومستمر دون انقطاع. شوهدت آثار إصابات السل وفي جميع أنحاء البدن على المومياء المصرية، أي قبل ستة آلاف عام.

قديم! لا بأس، فالأمراض القديمة لا تدخل تحت حصر، ولكن المشكلة مع السل أنه مرض مخادع مزمن شفاؤه غير مؤكّد وغير ثابت، ينسلّ للأبدان دون إنذار فلا تظهر أعراضه إلاً متأخرة، وتخبو الأعراض فترة قد تكون طويلة ثم تتفجر، أو يشتد المرض ثم يتحسن وينتكس.

معظم وفيات السل وإصاباته بين الشباب والأطفال. وتبقى مزمنة غير مميتة إصابات الكهول والشيوخ. إنها عندئذ حالات من المرض المديد الذي لا يشفى ولا يميت. وهو بذلك بلاء مقيم بالدار وبين الجوار، ومصدر خطر مستمر يجعل من صدور المرضى مشاتل توزع غراس وبذور المرض مع كل ريح، وبين أهل المريض ومعارفه الأقربين قبل غيرهم.

جرى عام ١٩٣٧ مسح واسع طبّي بالتصوير الشعاعي، للكشف عن مدى انتشار إصابات السل الكامنة غير المعلنة، بين مواطني كل من هولندا وبلجيكا وفرنسا.

أُرسِلَت جموع العمال والطلاب والمارة من الناس في الطريق العام، لإجراء صور شعاعية في مراكز رئيسية.

تبيَّن بعد التنسيق أن نتائج الحملة الإحصائية مذهلة؛ إذ بلغت نسبة حاملي الاصابة الدرنية الرئوية بين الأصحاء ظاهرياً، (٢,٥ ـ ٤٪) في الألف للذين أُخذت لهم الصور الصدرية. وتأكَّد ان اصاباتهم فعَّالة رغم احتفاظهم بنشاط يسمح لهم بمتابعة العمل اليومي. لا يشكو المصابون المجهولون من أية أعراض، فإصاباتهم كامنة، تهدِّدهم وتهدِّد أهلهم بشكل مستمر.

أخطر ما في مشكلة كفاح السل في حينه الكشف عن الاصابة وتشخيصها. فالإصابة بالسل أو الشبهة بالإصابة فضيحة تزلزل كيان الأسرة. وعليه فإنكار المرض وأعراضه والتستُّر عليه، والإمتناع حتى عن لفظ الاسم، بالإشارة إليه بتعابير: (المهجور، الملعون، الخبيث، الذي لا يذكر... الخ) هي لغة شائعة على لسان الجميع. ويخادع الجميع أنفسهم والآخرين، يتستَّرون على الأعراض المشبوهة كالنحول والسعال والقشع والحمى ونفث الدم بشكل خاص، فيؤكِّدون بأنه رعاف من الأنف أو من الأسنان ولو تكرّر.

يعتمد المريض طب التسكين والتأجيل، وسدّ الفم لكتم الأنفاس، والسعال وابتلاع القشع. وتعزى الحمى والسعال إلى زكام متجدد والطقس اللعين والتدخين والبرد والرعب! وأخيراً كيف يمكن لمن يخشى مرتعداً المرض والفضيحة، أن يراجع الطب ليطمئن او يتأكّد؟! ولنفترض أنه اقتحم

بجرأة كل ذلك، فكيف يواجه نفقات الكشف الشعاعي والجرثومي وتكرار المعاينة والأدوية، والمرضى غالباً فئة من أهل القاع؟!

يستمر الخداع والضياع حتى تتفجر الأعراض، ويزداد سوء الحال، وتتسع الإصابة حتى تصبح فعلاً غير قابلة للشفاء.

حقيقة معضلة المرض أنه يكاد يكون طبقياً، أكثر إصاباته بين المعدمين من سكان البيوت المزدحمة غير الصحية، والطعام غير الكافي والعمل غير المريح. بينما تندر الاصابات أو لا توجد تقريباً في البيوت المريحة والأوساط المرتاحة.

دعاني عام ١٩٤٧ أمين عام وزارة الصحة للإشراف على مصح ابن النفيس، وهو الملجأ الوحيد في حينه لإيواء الإصابات التي عجز الأهل عن العناية بها.

حاولت عبثاً تنظيم قواعد معقولة لتحريك المرضى والإفادة من الأسرّة المحدودة التي يمكن أن تكون أكثر نفعاً، عند قبول حالات الإسعاف، وبدء المعالجة؛ ثم يخلي المريض سريره للمحتاجين من ألوف المصابين المنتظرين.

تعرضت خلال الأشهر الأربعة من المحاولة الإصلاحية للتهديد، واصطدمت بجدار لا يمكن اختراقه من رجال الإدارة القائمة، يحرّضون المرضى والمستخدمين على مقاومة التبديل، وجميعهم منتفعون من الفساد، سيد الموقف.

رفعتُ تقريراً عن الحالة الشائنة في المصح، فأجابني الأمين العام بأنه يطلق يدي أفعل ما أريد، شريطة أن لا يسمع شكوى ولا احتجاجاً، فاعتذرت.

مجتمع المنبوذين في المشفى الوحيد مرضى مزمنون، إصاباتهم غير قابلة للشفاء، وهي كذلك عصيّة على الموت. يؤلّفون عصابات متماسكة ترفض أي تبديل في أوضاعها المستقرة، تمارس الابتزاز والانحراف. وعليه

فقد تحوّل المشفى إلى ملجأ يضم عصابات المنبوذين المنتفعين الهاربين من ظلم الأهل والجيران.

لا يفكر المريض وأهله بالمشفى إلاّ بعد يقين يائس من الخلاص بالتستُّر، أي بعد الفضيحة بوجود إصابة في الدار. يقبلون بعدئذ مكرهين البحث عن سرير للخلاص من المريض وأعبائه، فيواجهون المستحيل مرة أخرى.

يبلغ عدد منتظري السرير الشاغر في المشفى الوحيد في سوريا عدة آلاف من المرضى. يستحيل إخلاء سرير يشغله مريض مقيم منذ أشهر أو سنوات بالإقناع والرضا. وقد تعرّض بعض العاملين في المشفى عند الاصرار على إخراج مريض مزمن، او حتى تبديل غرفته للعدوان وبالسلاح أحياناً.

ذلك أن عودة المريض إلى أهله في مجتمعه القديم، وحتى تبديل من اعتاد عليهم من الرفاق، محاولات خطيرة النتائج، تفتح جراحاً منسية لم تندمل عند إنسان منبوذ حاقد على الجميع.

يرفض المريض وأهله وبعناد العودة إلى أجواء الحذر منه، والابتعاد عنه، والهمس عند رؤيته، ويفضّل الأهل حمل جثة قريبهم من عودته اليهم مع مرضه وعلى قدميه.

اعتاد المريض العيش بين رفاق البلاء، وتخلّص من مشاعر الذل والعزلة منبوذاً، فكيف يريدون له العودة إلى الوسط العدائي ومن أقرب الناس إليه، الرافضين لوجوده بينهم؟ ثم كيف يمكن للمريض بالسل سابقاً، والمهدّد بالنكس دائماً، ان يتدبّر عملاً يعيش منه، وقد اعتاد البطالة والراحة ومائدة السلطان؟

والعمل المريح المناسب لمريض أصيبت رئتاه، بالعطب، غير متوفر في محيط القرية. سمعت ورأيت في قرى المناطق الريفية النائية، وفي جبال الساحل السوري خاصة، كيف تجري الأمور عادة اذا اشتهر او اشتبه بوجود اصابة بالطاعون الأبيض.

تنصب خيمة للمريض مع متاعه بعيداً في التلال بين أشجار الغابة. يحملون للمريض يومياً الطعام والماء يضعونها بعيداً، يتركونه مع الهوام والكلاب والذئاب، في صراع البقاء مع الجسد المريض والنفس الحاقدة، وعلى مدار فصول السنة في حرها وصقيعها وأنوائها. فهل يكون شذوذاً أو جنوناً إذا تفجّرت النفس البشرية، بعد كل ذلك، أحقاداً ليصبح الإنسان المريض وحشاً، لا يرحم مجتمعاً ألقى به بعيداً كنفايات خطيرة تتفسّخ ولا تدفن؟!

يحاول الإنسان المريض المستكين المسالم أصلاً أن ينتقم، ويصبّ أحقاده على أقرب الناس إليه، فيدسّ خفيةً في طعام أولاده وأهله ما يمكن أن ينقل إليهم عدوى المرض، يتقشع في طعامهم، أو يحتضن خلسة أطفاله يبادل الجميع حقداً بأحقاد.

وروايات عن بيوت تسد أبوابها بحائط إذا اشتهر أن في الدار اكثر من إصابة بالسل، فيتفق الجيران للخلاص من الخطر الزاحف، يسدُّون جميع المنافذ على البيت وساكنيه، يحاولون دفنهم أحياء او يرحلون بعيداً!

لقد حدث ما يشبه ما ذكرت في بريطانيا في وباء الطاعون الأسود عام ١٥٥٢. تسير عربات في أزقة لندن كل صباح تقرع الأجراس، تدعو السكان لإلقاء الأموات من النوافذ إلى عربة قمامة البشر. وقد يعمد الأصحاء إلى إلقاء عاجزين من الشيوخ أو محتضرين قبل وفاتهم، أو مرضى عاديين ضعافاً وغير مصابين بالوباء المميت، وينادي سائق العربة بأعلى الصوت يستنزل الرحمة لخلاص أرواح الجميع.

سلوك الانسان في الكوارث الحقيقية متشابه، إن لم يكن متماثلاً، رغم البعد الزمني او المكاني.

قصة السل ليست فريدة في التاريخ الطبّي. تكشف سجلات تاريخ الجدري والجذام والطاعون والكوليرا والتيفوس، أبشع وأعجب مما يمكن للخيال الروائي في جموحه أن يتصوّر إمكانية حدوثه.

والصور التي نعيشها حالياً مع السرطان وأشكاله تشبه في بعض مظاهرها الخوف من الفحص والمراجعة لئلا تكون الاصابة بالمهجور والذي لا يذكر اسمه! كل هذا والسرطان مرض غير سارٍ إطلاقاً، ولا خوف ممن يعايشون المريض من انتقال اللعنة إليهم.

لا بدَّ وأن يتساءل قارئي بعد ذلك: وما موقع الطبيب الشاب الطموح، وما هي مشاعره في حينه وسط كل ذلك؟!

اندفاع الشباب وحماسته للعمل والنجاح المهني هما مرحلة فطام عن الأهل، مرحلة استقلال وانطلاق وتحقيق للذات، فالعمل طفرة إنسلاخية وتأكيد للوجود المستقل، وانتقال من مرتبة الدونية إلى التعادل ثم الفوقية.

يبدأ الشاب الجامعي متأخراً في عمله المهني، والجامعيون (أطباء ومحامون) في مطلع القرن وحتى منتصفه، طبقة جديدة تحاول أن تجد مكاناً لها بين الوجهاء والأكابر بالوراثة. يشعر حامل الشهادة الجامعية بأنَّ من حقه العيش في مستوى يليق بالشهادة التي يحملها، وأنه جدير بالإحترام الذي يلقاه من الجميع. إنَّه يتكلم ويكتب لغة او لغات بينما الآباء والأمهات أمِّيون يقرأون بصعوبة ولا يكتبون. إن مؤهلات الجامعي وشهاداته ترفع من مقامه درجات بدءاً من وسطه العائلي.

يتقبَّل المجتمع الحقوق المزعومة للطبقة الجديدة كفئة صاعدة من الطبقة المتوسطة غالباً، تخترق أسوار عائلات البشوات والبكوات وأصحاب الثروات المالية والعقارية والامتيازات الموروثة.

فالشاب الذي تابع الدراسة الجامعية تخلَّف سنوات عن تعاطي العمل والربح في التجارة والمهن الأخرى. وعليه، فإنَّ من حق الجامعي أن يتقاضى أجوراً متميِّزة، والعيش في مستويات أرفع من غيره. وكلما اشتهر بالبراعة كان تسلقه السلم الإجتماعي لولبياً متسارعاً.

التعامل بين المرضى والأطباء في أجواء السوق الحرة للعرض والطلب تعامل تجاري، فالعيادة زبائن ومورد رزق، والطبيب إنسان عليه أن يدفع

مقدماً ليؤثّث ويشتري أجهزة، ويلبس بشكل لائق، ويعيش في مستوى الطبقة الجديدة التي انتمى إليها. والإنسانية الخالصة نقد لا ينفع في التداول اليومي، والمجاني والرخيص مبتذلان، والإحسان صدقة، ترضي غرور اليد العليا وتؤكّد حقارة المتسولين.

تعاملت مع المراجعين في الصليب الأحمر والعيادة الخاصة وقاعات المشفى من المصابين بالوباء الرهيب بطيشٍ واندفاع واستهتار. كان الهدف محدداً وهو النجاح بأي ثمن. ويستوجب الإندفاع الاستخفاف بأخطار المهنة في العدوى والتعرُّض للأشعة الخطيرة. كنت أفحص يومياً عدداً من المراجعين يتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠ بالتنظير الشعاعي. ونادراً ما كنت أرتدي الصدارة الرصاصية التي تحمي من الإشعاع المتناثر في الجو في أجهزة غير محكمة الاغلاق.

كذلك كنت شديد الحرص على ان أتحرك من دون حذر بين المرضى، أصافحهم من دون تردُّد، وأُحادثهم دون مواربة، ولا أضع المنديل على الأنف والفم وهم يسعلون ويتقشعون. بل كنت أتعمّد الظهور بسحنة المطمئن الواثق مما يفعل، والابتسامة المرسومة قناع يخفي مشاعر القرف والرعب.

تقبّلت الواقع بذرائعية لا علمية ولا منطقية، فافترضت بأن عشوائية الأقدار قد جعلت من نصيبي التعايش مع الاختصاص اللعين.

وعزائي أنّي تابعت معالجة عدد من الاصابات بالسل عند احد الزوجين، يستمران في العيش معاً، وأحدهما مصاب، أو أُصيب بعد الزواج، ويمارسان الحب والإنجاب مستسلمين للقدر المكتوب. وكذلك كنت أفعل!

استمر اندفاعي وحماستي للعمل خلال عشر سنوات تقريباً بينما بقيت في كلية الطب خلال ذلك (مساعد مخبر) أي انساناً ثانوياً تابعاً، أعمل في حدود تشغيل الطلاب اذا غاب مدرِّسهم.

وبدأت أتحمس للمطالعة باللغة الإنكليزية في تحضير دروسي النظرية والسريرية معاً، وازداد اهتمامي بنوعية الدروس وتشخيص المرضى،

وأصبحت شديد الحذر من أسئلة بعض الطلاب ممن يراجعون ويدقّقون ويعارضون أحياناً. كان يدفعني كل ذلك إلى المزيد من الحرص على دراسة المريض قبل يوم أو أكثر من تقديمه في الدرس السريري. وتدريجياً أصبحت أشعر بالنشوة والطرب بعد الدرس الناجح، أناقش الحالة ولو امتدت ساعة الدرس أو تجاوزت مواضيع النقاش المجال الطبّي إلى شؤون اجتماعية وعامة أحياناً.

وبدأت أشعر بالضيق من تعاملي مع المرضى في العيادة، وأشعر بالمزيد من الحرج وأنا أُحاول الإجابة عن أسئلتهم. وأنا عاجز فعلاً عن مصارحتهم بثقة عن مستقبل مريضهم، ومتى وكيف تنتهي مصيبتهم معه.

كانت حصيلة التجربة والممارسة في علاج المرض المخادع، وعدم وجود علاج فعّال يشفي الإصابة، أنّي اعتمدت لغة التطمين واعتماد المصير القدري نقيضاً ليقيني العلمي.

تعلّمت كذلك من التجربة والممارسة بعد سنوات ان اعتماد الصراحة في تعامل الأطباء مع المرضى وأهلهم هي الوقاحة، ومعها نهاية سريعة للممارسة الطبيّة الخاصة.

بدأ أحد الرفاق عمله في عيادة فاضطر الى إغلاقها بعد أشهر فقط لأنه اعتمد الصدق والصراحة المفزعة للمراجعين.

فالصراحة أخلاقية عند اليقين، والمعارف الطبيّة في حينها تخمين احتمالات وشكوك، والأدوية ملطّفات ومسكنات غير فعّالة.

بعد معالجة مريضة مصابة بالسل الرئوي المتقدّم، نصحت الأهل بلباقة بأن لا نفع ولا ضرورة لإزعاج المريضة أكثر مما فعلوا.

ذهلت بعد مرور سنتين عندما وصلتني دعوة لعقد قران المريضة الميؤوس منها سابقاً، فقد تحسّنت أعراضها تدريجياً وبعد إيقاف الأدوية.

كان التشخيص قبل نصف قرن تخميناً، والمعالجة تجارب، والممارسة

الطبيَّة في حقيقتها ايهاماً وابتسامات مع مناقيع شراب، ومركبات لا تنفع إلاً بائعيها ومروجيها جميعاً.

تستمر الاصابة بالتيفوئيد عدة شهور احياناً، يتحسّن خلالها المريض أو ينتكس، وقد يُصاب بأمراض أخرى او اختلاطات، وقد يموت من العناية المفرطة جوعاً بالحمية الشديدة على مرق اللحم والحليب المصفًى لفترة قد تمتد عدة شهور!

حدَّدتُ أجوري في العمل الخاص كمرجع اختصاصي متفرد، وكفدائي يعمل في وسط أخطار محسوبة وغير مرئية. أجور الأطباء خدمات لا تكون متميزة اذا كانت رخيصة. وكنت أُبرِّر ذلك أو أجد الأعذار لتبرئة الوجدان بأني أعمل في الصليب الأحمر مجاناً، فعلى العاجزين عن احتمال أكلاف التعرفة المفروضة ان ينتظروا في الطبابة المجانية مع المتزاحمين.

ونتيجة للمنطق المتهاوي فإنَّ كل مراجع للعيادة الخاصة إنسان قادر على الدفع، ودعواه أو محاولاته في التملص من الدفع موقف غير مقبول.

أمثولتي في السلوك المهني ما يفعله أساتذتي وزملائي في فرنسا ولبنان وسوريا، ولست أقل منهم شأناً. وكل ذلك سلوك سليم وقواعد مريحة للتعامل في ازدواجية قانونية مبرَّرة وسائدة، ومنسجمة مع قواعد العرض والطلب في السوق التجارية.

بقيتُ في حدود هذه الصور المسطَّحة للمشكلة أنعم بالدخل المريح، فلا أرى من مشكلة الوباء المقيم إلاً الزاوية الطبيَّة لمشاكل المرضى. وامتدت فترة غفوة الضمير ما بين ١٩٣٥ وحتى أوائل الخمسينات أي حتى تمَّ الكشف عن طرق فعالة لمعالجة السل.

■ نكسات وإحباطات متوالية

بدأتُ أُتابع في فرنسا عام ١٩٣٤ أساليب علاج السل، والصراع محتدم بين أنصار المعالجة بأملحة الذهب تُحقن في الوريد، وثمن العلاج عيار المعدن الثمين، وبين المتحمسين لطريقة تثبيت الرئة بالريح الصدرية، أو

الجراحة بقطع عصب الحجاب الحاجز، أو تكسير ؤضلاع المريض (تصنيع الصدر). وفي جميع الحالات يوجّه المرضى للاستشفاء في مناطق جبلية وسط غابات الصنوبر وعطور أجوائه. ويؤكّد الجميع بأن المداواة ناجعة في مصحات الجبال الشاهقة لأن الهواء مشبع (بالأوزون) ترياق المسلولين!

أُنشئت في معظم جبال أوروبا وأميركا مصحّات هي فنادق طبيّة لا يصل إليها إلاّ القادرون على تسلُّق مرتفعات أكلافها دون حدود، وهي فئة من البشر يندر أصلاً أن تصاب بالسل.

واشتهرت عالمياً مصحّات سويسرا، وسلاسل الجبال في جميع أنحاء العالم، ومنها لبنان، حيث بدأ تنافس بين ثلاث مصحّات تابعة لإرساليات أجنبية، تُعالج فيها إصابات القادرين على دفع أكلافها من أبناء المنطقة العربية.

تابعت في فرنسا وتعلّمت كيف يعالجون المصاب، ولكني لم أُدرك ولم أعلم بأبعاد المشاكل الاجتماعية المالية، عند الإصابة بالمرض الساري والمزمن معاً.

يحق للأطباء في مجتمع متطور غني ومنظم، الانقطاع للاهتمام بالزاوية العلمية التقنيّة عند تعاملهم مع مرضاهم.

فالقطاع الطبّي عندهم جزء من جهاز ضخم للضمان الصحّي وشبكة وطنية تتألف من مستوصفات ومستشفيات كاملة التجهيز، ومصحّات في الجبال ايضاً، وألوف من العاملين الطبيّين والاجتماعيّين، يتابعون تمويل الكشف الطبّي والمعالجة ومساعدة العائلة في كل ما تحتاجه. يتكفل هذا الجهاز العملاق الوطني بكل ما يحتاجه المريض وأهله مادياً ومعنوياً، وينفق الصندوق الوطني بسخاء من موارد طابع وطني للسل. وجميع أبواب المنشآت الطبيّة والخدمات الاجتماعية مفتوحة لجميع الراغبين في الفحص والمعالجة حتى الشفاء وإعادة تأهيل المريض للعمل المناسب.

انتقلت من فرنسا إلى سوريا وأنا أعرف وأحمل ما يمكن نقله من

التطبيقات العلاجية، أحاول وحيداً التصدّي للمعضلة التاريخية العميقة الجذور في مجتمعات التخلُّف والفقر والتواكل.

لم أشعر ولم أُفكِّر في فرنسا، ولم أُتابع البحث عن تنظيمات الجهاز الفعال، الإجتماعي والطبِّي والمالي الذي يتصدَّى لكفاح السل. ولنفترض أنِّي كنت واعياً وراغباً في معرفة ركائز وتنظيمات الجهاز الوطني لكفاح السل في فرنسا، فكيف أنقل تطبيقاتها ومنشآتها؟ لن تنفعني المعرفة والاطلاع إلاَّ في تبرير النكوص والهروب. يتكدّس المرضى مع الأصحاء في بلدي في بيوت محرومة من جميع المرافق الصحيَّة الأساسية، من الماء الجاري أو الصالح للشرب، ومن النور والشمس، يتقاسمون غرفة مظلمة أو أكثر أحياناً، يعيشون فيها مع الأطفال والأحفاد.

كثيراً ما تكون الغرفة وفي الريف خاصةً، مغلقة دون نوافذ، لا يتوفر لساكنيها ثمن زجاج أو ثمن محروقات للتدفئة، والحائط المسدود أضمن للسلامة، وأكثر نفعاً في حفظ حرارة الأنفاس المزدحمة.

انتهت قصة معالجة السل بأملحة الذهب بعد الكشف عن فضيحة علمية أخلاقيَّة مروّعة، أثبت التحقيق بعد ذلك مشاركة أساتذة ومؤتمرين بتزوير مشاهدات.

تؤخذ صورة شعاعية لصدر المريض بأشعة غير نافذة قبل بدء المعالجة، تقارن هذه الصور بعد استكمال أملحة الذهب بصور مأخوذة بأشعة شديدة النفاذ، تخفف أو تمحو ظلالاً شوهدت في الصور الأولى.

وقدمت الصور المزيفة في مؤتمرات علمية برهاناً على نفع الدواء.

وقد يتساءل البعض: وكيف تنطلي الخديعة على الحضور من المحايدين؟

لا يناقش تقرير الشعاعي في تلك الحقبة، واختصاص الأشعة تكنولوجيا رفيعة الشأن، ولا يقرأ الطبيب الصورة بل يعيد قراءة ما كتبه الأخصائي.

كنا في مشفى الغرباء ونحن طلبة وأطباء مقيمين نسترق النظر من بين الرؤوس أمام دريئة الأشعة لنرى حركة القلب والرئتين وتقلصات المعدة والمدرّس يشرح معجباً بآلته وعلمه تماماً كما يفعل صاحب (صندوق الدنيا) وهو يكشف عجائبه.

كان وراء الفضيحة العلمية في التزييف، شركات تدير مصحات، وأخرى تصنع الدواء، ومعهم بعض حملة الألقاب العلمية من الشركاء.

ومن الإحباطات لأيام تلك الحقبة، إيمان عام يؤكِّد بأن السل رفيق الجوع الكمي والكيفي، ولا يتم الشفاء إلاَّ بزيادة الدسم في الغذاء، وزيادة وزن المريض علامة تؤكِّد شفاءه!

وتبيَّن متأخراً خطل كل ذلك، فقد مات الكثير من المرضى بالإسهالات نتيجة التغذية المفرطة، أو بأمراض القلب والكلى وزيادة التوتر الشرياني، والسل لم يتوقف في عمله التخريبي للرئة.

توقف الريح الصدرية تطور السل الرئوي وتغلق كهوف الرئة، وقد تستمر المعالجة بها سنوات. والشفاء رغم الأكلاف والمثابرة غير مضمون أيضاً.

تأخّرتُ في إدراك أبعاد الصورة المأساوية للوباء المخيف. أكتب الوصفة الطبيَّة بعد المعاينة وأسخو بالنصائح المجانية: عليك أن ترتاح تماماً في غرفة مستقلة، مواصفاتها محددة. غذاؤك منوّع من اللحوم والبيض والعسل واللبن والفواكه، إيَّاك وأن تزعل أو تنفعل! نادراً ما كان يعترض المريض أو أهله على الكلام المجاني، خجلاً من عجزهم عن تأمين شيء من ذلك.

وفي أحوال نادرة يتفجرون غيظاً، أو يبتسمون مشفقين من حكمة الطبيب الواعظ الذي يطلب المستحيل. واكتشفت قصاصات للوصفة مرمية على الرصيف أمام العيادة، وتكرّر ذلك. تساءلت وحاولت الإجابة، فقلت: لقد عملت واجبي، ولست مسؤولاً عما يجري بعد عتبة العيادة.

تأخرّت في إدراك أبعاد الصور المأساوية، ذلك أن انسلاخ الإنسان من هموم الذات، وبلوغ مرحلة إدراك حقيقي لأعماق المشاكل عند الآخرين، عملية ولادة غير يسيرة، وقد تكون مستحيلة في حينها، فهي في حقيقتها طفرة انسلاخية ذاتية لا بدَّ من توفر ظروف فكرية ومادية كافية لتفجير التراكمات.

حدث ذلك تدريجياً واكتمل مع نهاية العقد الرابع من عمري، عندما أيقنت بأن المعضلة في حقيقتها اجتماعية اقتصادية، وتعاون وتكافل وطني، للتخفيف من ويلات مرض لا علاج ولا شفاء منه بدون كل ذلك.

وباختصار، شعرت بعد سنوات بأن ما نقلت وتابعت من أساليب العلاج بضاعة غير قابلة للنقل والتسويق والتقليد، إلاَّ في حالات قليلة فردية لأشخاص قادرين على تحمُّل أعباء مشاكلهم مع المرض، في مصحات لبنان أو سويسرا عند اللزوم.

بدأت التساؤل بعد تراكم الصدمات والتعامل مع الواقع الاجتماعي الاقتصادي، ووجدت نفسي واعظاً يحسن الكلام، وممارستي تخفف الأعراض، ولكنها تزيد من تعقيد مشاكل المريض فوق إصابته، بإنفاق إضافي لمرض لا يشفى.

وبدأت اقرأ ما يُنشر عن المشاكل الإجتماعية والنفسية للمسلولين وتنظيمات كفاح السل، وتأهيل المسلولين ومتابعتهم. واكتشفت وجود قرية للمصدورين في انكلترا (باب وورث). فاتصلت بالمركز الثقافي البريطاني أطلب المزيد من التفاصيل عن الموضوع.

ودُعِيت لزيارة القرية المذكورة أثناء وجودي في فرنسا عام ١٩٥٢ بعد إعلان تأسيس الجمعية السورية لكفاح السل عام ١٩٥٠.

حدّدنا الأهداف بإنشاء قرية للمصدورين بعد توفير الموارد المالية الكافية من طوابع كفاح السل. وتمّ تحضير الخرائط للبناء على أرض واسعة اشترتها الجمعية قرب ضاحية حرستا.

توالت قبل نهاية العقد الرابع للقرن العشرين كشوفات دوائية لمعالجة الأمراض الإنتانية وخاصة ضد عصيَّة السل. فكان الستربتومايسين والايزونيازيد وغيرهما من الأدوية الفعالة في الشفاء الحقيقي.

وبدأت بعدئذ مرحلة العد التنازلي لنهاية عدد كبير من الأمراض الإنتانية، ومنها السل التاريخي. وأصبحت معالجة المرضى ميسورة يقوم بها أي طبيب ممارس، وانتهى بذلك دور الاختصاصي والمصحَّات، وجدّدت المصحَّات خرائطها لتصبح فنادق نجوم سماوية.

التزمتُ خلال ممارسة استمرت عشرين عاماً تقريباً في اختصاصي ولم أتعدَّاهُ، واشتهرت بأنّي طبيب المصدورين، ولم أجد الكفاية من الشجاعة للبحث بعد ذلك عن اختصاص جديد، في مجال أمراض الصدر الأخرى أو في القلب، كما فعل معظم الزملاء من معارفي.

وأصبحت الدكان العيادة ملتقى ومرجعاً لطوابع كفاح السل واستقبال الأعضاء في الجمعية والرفاق، وانتهت رحلتي مع الممارسة الخاصة.

■ صور ومفارقات طبيَّة اجتماعية

ليست الانجازات الرائعة الطبيَّة الوقائية والعلاجية التي نسمع عنها ونشاهد صوراً لها مجانية أو ميسورة لجميع المحتاجين إليها، فهي ليست هبات للإنسانية ولجميع شعوبها وطبقاتها. كانت كذلك عندما كان الطب نصائح وبركة وإيماناً ووصفة أو حجاباً، مع فيض من الدعاء والصبر. فلما أصبحت الخدمات الطبيَّة علماً وتقنية، أي أجهزة ومواد وكشوفاً متطورة فقد أضحت شيئاً مختلفاً تماماً. إنَّها عندئذ خدمات حياتية ناجعة ولا غنى لأي إنسان عنها.

شهدت كما يقول الأستاذ (برنارد) في فترة حياتي الشخصية تطوراً في

المعارف الطبية لو جُمعت فإنَّها أعظم كماً ونوعاً ونتائج من جميع ما تراكم من معارف خلال أربعين قرناً من التاريخ الطبِّي المعروف.

وإليكم بعضاً من صور المتناقضات أختار منها ما يلي:

■ أولاً: انقلاب كامل للصور بين الماضي القريب والحاضر

عايشت شخصياً انفجارات متلاحقة من الكشوف والتبدلات والعلاقات الطبيَّة خلال سبعين عاماً تقريباً.

كنت أشكو في الطفولة واليفع من نوبات (حمى الملاريا ومن الزحار «ديزانتري»)، وهي أمراض مستوطنة موسمية تقريباً وناكسة.

الجزء الأول من اللقطات التالية ذكريات عن مشاهد لزيارات عيادات متواضعة وشعبية للمعالجة خلال فترة الطفولة.

عدد الأطباء في حينه محدود جداً، فالحاجة إليهم غير كبيرة لأن الإيمان بإمكانياتهم في الشفاء غير ثابتة؛ وعليه فقد كان اللجوء إليهم واعتمادهم من بين تجارب ما قبل النهاية.

لا يراجع المرضى الأطباء في حينه إلاَّ متأخِّرين جداً، وبعد فشل تجارب ووصفات بلدية من الجيران والعطار والحلاق. يقوم الأخير بالحجامة والفصادة بالعلق (ديدان تعيش في ماء النهر الجاري في البيوت تمتص الدم إذا وضعت خلف الأذن للتخفيف من آلام الرأس والالتهاب في أي موضع كان)، أو يجربون الطبيب بعد فشل وصفات يتبادلها الجيران، او اعتماد رواياتهم عن شفاء حالات مماثلة.

قبل البدء بتعاطي أي دواء لا بد من تنظيف البطن (المعدة والأمعاء)، فهي كهريز البدن ومصدر السموم والانتان. حتى الاسهال الشديد يداوى بمسهل اضافي.

يتم شطف الجوف بزيت الخروع أو بالشلفاطة (سولفات السود).

يُعطى المسهل بعد معركة صاخبة، أو يتم التنظيف بحقنة شرجية بالماء الدافىء، وفي كل شكوى كما ذكرت، من نخرة السن إلى داحس القدم وما بينهما، وفي الحمى خاصة ولو كانت التيفوئيد. أما في الكسور والرضوض والالتهابات فكمّادات ولبخات (بزر كتان، محوّجة. . . الخ).

عيادة الطبيب تتألف من غرفتين، واحدة للانتظار، فيها مقاعد متواضعة، وفي مستوى الزبائن المراجعين، إذا كانت العيادة في وسط السوق التجارية.

الدرج الخشبي إلى العيادة ضيق لا يتّسع إلاّ لمرور في اتجاه واحد ويستريح عليه المتعبون من عناء السفر، والمرض في آخر أيّامه.

في العيادة خليط عجيب من الأعمار والألوان واللهجات، يفترش بعض المرضى المحمولين على الدابة أو الطنبر من الريف، أرض العيادة متدثّرين بالعباءة أو فروة جلد الغنم، وحول العنق والرأس أغطية ولفائف صوفية، وعلى البطن زنار صوفي، وطبقات الألبسة عديدة. إنها احتياطات لا يجوز التهاون بها، ولو كان الطقس جهنم صيفية والعرق يتصبّب وهو عافية، والبرد أساس كل علة.

الغرفة الثانية فسيحة يصول فيها الطبيب بقميصه الذي كان أبيض اللون قبل تمويهه عمداً أحياناً بلطخات الدم والقيح تأكيداً للمهارات غير العادية.

في طرف من الغرفة خزانة بلورية، على رفوفها أدوات جراحية (سكاكين ـ ملاقط كبيرة للتوليد ومقصات معكوفة) مع بعض العيّنات الطبيّة الدوائية وزجاجات فيها سوائل ملونة أو حصيات أو أجنة أو أفاع محفوظة.

في الزاوية الأخرى، موقد (بابور كاز)، عليه قدر معدني (طنجرة)، يُغلى فيها الماء مع محاقن وإبر مختلفة الحجوم.

تعطّر الأجواء غير المريحة روائح الفنيك وزيت الكافور، ورائحة عرق الأبدان المرتجفة. الموسيقى صراخ الصغار، وأنين الكبار استدراراً للشفقة،

وزجر وصياح الممرض والطبيب معاً. أدوات الفحص الحواس الخمس قرع وإصغاء وجس وميزان حرارة في الفم، ونظرات مدققة تعد النبض، وتحملق إلى اللسان مرآة الجسم بكامله.

على وجه الطبيب تعابير القرف والاشمئزاز والإعجاب بالذات، وعبارات لفظية من طرف اللسان، ودعوات طيّبة بالشفاء والسلامة.

لا يكشف المريض أو أهله من جسم مريضهم وخاصة الأنثى إلاَّ موضع الشكوى وفي أضيق الحدود. وما علاقة الرأس أو الصدر إذا كان الألم في المعدة؟! ترافق المريض والطفل العجائز والأمهات، يباعدن الملابس المكدَّسة، يفتحن بينها أو يشققن منها نفقاً لا يتسع لليد ولا للنظر من خلاله. وكثيراً ما يجيب المرافقون بدلاً من المريضة الصبيَّة التي تحرّك رأسها، ويتكلمون نيابة عنها، وصوت الأنثى عورة لا تكشف.

قد يرفض بعضهم الاجابة عن أسئلة الطبيب الساحر، وعلى الطبيب أن يكتشف ما يشكو منه المريض بفطنته ونفاذ بصيرته، ولا مجال للسؤال عن الظروف المعاشية أو العائلية، وما علاقة الطب بكل ذلك؟! وعليه يسارع الطبيب لإنهاء الفحص ويكتب دون تمهل وصفة طلاسم غير مقروءة موجهة للصيدلي المواجه للعيادة، مع تعاليم صارمة بالحمية الشديدة التي تقتصر على السوائل المصفاة أحياناً. وتدوم الحمية القاتلة شهوراً مديدة خاصة في حالات الحمّى.

يكشف الممرض العجوز خلال ذلك عن مؤخرة المريض، او يمسك به اذا كان صغيراً. يغرز الطبيب الإبرة في ذراع ثم أخرى في المؤخرة، وثالثة ورابعة توزع بالعدل على الأطراف الأربعة. مما لا ينفع ولا يؤذي والمتداول الرخيص منها زيت الكافور والمقويات والكلس، أو ما تيسّر غيرها. إنها نافعة في إقناع المريض بأنه أخذ شيئاً مقابل ما سوف يفرضه الطبيب ثمناً لكل ذلك. ترتفع الأكلاف كلما ازداد عدد الحقن، فكتابة الوصفة لا تستحق أجراً.

اشتهرت في حينه فعالية حقن الكينا في الشفاء من الملاريا، وشمل

الإيمان بها كل حقنة تدخل البدن مباشرة! يحقن المرضى أحياناً من دون السؤال عن شكايتهم، فالوقت ضيق، والمرور مزدحم، والمعالجة بالجملة أخفض سعراً من المبيع بالمفرق.

يسوق الممرض جمعاً من المرضى، يطلب منهم الكشف عن الأذرع أو المؤخرات بسرعة، ويدور الطبيب عليهم ينقل المحقنة من مؤخرة لأخرى، حتى نهاية الصف الطويل، أو حتى آخر قطرة في المحقنة في لدغتها الأخيرة، يعيد الطبيب تخزين المحلول من زجاجة فيها المحلول، ويشهر سلاحه بعد تلقيمه ليبدأ جولة جديدة في مؤخرات الوردية الجديدة.

وكلما كانت حقنة الدواء مؤلمة أو تبعث الحرارة في البدن، فإنّها ممتازة وموضع تقدير مادي ومعنوي. يؤدّي الطبيب عمله وهو يصرخ مهدئاً، والممرض يمسك الخائفين ويثبّتهم وصراخ الجميع معاً يصم الآذان.

يوزّع الطبيب على المرضى خاصة أيام الوباء وصفات مكتوبة سلفاً، متّفقاً عليها مع الصيدلي المجاور. والصيدلي بدوره جاهز، فقد ملأ طنجرة كبيرة بمحلول الملح الانكليزي، يصب منه في زجاجة يسحبها المريض من جيبه. كما يحضّر الصيدلي سلفاً كمية من (البرشام) منذ الصباح، يضعها في قمع من الورق المستعمل، يصلح ايضاً لتعبئة البوشار.

هذه اللقطات ذكريات لما شاهدت في بعض العيادات في السوق المزدحمة وأيام المواسم المرضية كالملاريا والنزلات الصدرية.

في دمشق مشفى حكومي وحيد وقديم اشتهر باسم (مستشفى الغرباء)، عدد أسرته مئتا سرير، ولجميع الاختصاصات (داخلية، جراحة، نسائية، توليد، جلدية، عينية، وأنف وأذن وحنجرة). وفي القصاع المشفى الفرنسي، وقريباً منه المشفى الإنكليزي، وفي الصالحية الطلياني.

يشغل معظم أسرة المشفى الوطني من العجزة المقعدين: فهو أشبه بدار للعجزة. وقد اشتهر عنه قول شائع (الداخل مفقود والخارج مولود).

يمثّل الطبّ والمشفى المجاني بعد رحلة المريض المديدة مع عجزه

ومرضه المحطة قبل الأخيرة في سيرة عذابه، والثابت قطعاً عند الجميع ان (البلاش لاش)!

تتسلّط على المرضى الوافدين للمدينة فئة من المحتالين الذين يندسّون بين الركاب في القطار، أو يتربّصون في المحطة، أو في خانات تربط بها الدواب الحاملة للقرويين النازلين إلى المدينة. يتمسك الصياد بعباءة المريض يسحبه ناصحاً، وبالإكراه والاحتيال أحياناً أخرى الى عيادات معينة.

يساوم الطبيب أهل المريض، والوسيط بينهما شاهد وشريك. موضوع المساومة يشمل عدد أيام المعالجة الشاملة، وعدد الإبر لقاء مبلغ مقطوع من الليرات الذهبية يُدفع سلفاً. ويقبل الطبيب ضمان شفاء المريض، إذا كانت شكايته عارضة، وهو واثق من شفائها العفوي (التهاب اللوزات أو حمّى الملاريا أو غير ذلك). وإذا لم يشف فتلك إرادة ربانية!

تغلق العيادة أبوابها مساءً وتصبح فندقاً من دون أسرّة ولا نجوم، ولا خدمات، يُرمى المريض على فراش أو دون ذلك أحياناً، ففي العباءة والفروة الكفاية!

والخلاصة: يُستنزف المريض حتى آخر قطرة في سوق الجهل والخداع والتزوير.

ليس الدجل الطبّي إنحرافاً فريداً في بلادنا، ففي جميع المجتمعات المتطورة وقبل المتطورة مثيل لذلك. بل تجري بعض الأمور هناك بإتقان ونفاق وعنصرية رهيبة. فقد نشرت في الصحف البريطانية تحقيقات مستفيضة عام ١٩٧٧ عن شبكات تتربّص بالقادمين من وراء البحار طلباً للاستشفاء في (هاري ستريت) حي الأطباء في لندن. يتلاقى على رصيف المحطة أو المطار الصياد والطريدة الحائرة التي لا تتكلم لغة أجنبية. يبدأ الحوار باللغة العربية أو الإسبانية أحياناً، ويتم تسويق المساكين إلى عيادات محدّدة اختصاصية، لقاء حصة لائقة تتناسب وامتلاء جيوب الطرائد.

يلتف الأخطبوط باستطالاته الاختصاصية العديدة من فحوص مخبرية

وأجهزة وجراحات لا ضرورة لها إطلاقاً. يشق الجلد أحياناً ويخاط جدار البطن تحت التخدير العام دليلاً مرئياً مقنعاً بأن الزائدة أو الحصاة المرارية قد استؤصلت. ويطوف المريض على عشرات الاختصاصات والعيادات يتبادل أصحابها المنافع.

تستخدم الشبكة العصابة ممرضات أخصائيات للترجمة والعناية بالزبائن، في خدمات خاصة نهارية وليلية طبية وغير طبية.

معظم طرائد شبكات النهب المنظم سلاطين وأمراء وحاشية حكام، وأثرياء متسلّطون من الشرق والجنوب الآسيوي، الأفريقي والأميركي.

يستحيل أن تبقى الأساليب الشيطانية في خديعة الوافدين مجهولة من السلطات الأمنية والأجهزة العديدة الخفيّة الشهيرة عالمياً، لكن التغاضي عن شبكات المحتالين يساهم في تصحيح ميزان المدفوعات البريطانية، من دماء ضحايا غير بريطانية ولا نقية.

■ ثانياً: الإنجازات الصحية الطبيّة مسؤولة عن الانفجار السكاني الحاد

انتهت أو تكاد أوبئة وجائحات تاريخية كالجدري والطاعون والكوليرا والسل والجذام والملاريا، وعشرات غيرها من الأمراض الانتانية الأخرى.

تكاد تكون المنجزات الصحية الطبيّة منذ مطلع القرن العشرين، وما واكبها من ارتفاع مستوى العيش والمعرفة والإمكانيات، يكاد يكون كل ذلك أسباباً مباشرة للتفجر السكاني في العالم أجمع وفي بلاد ومجتمعات التخلُّف بشكل خاص.

كان عدد سكان الأرض في مطلع القرن العشرين مليار إنسان، وسوف يتجاوز عددهم في نهاية القرن ستة مليارات. . أي أن عدد سكان الأرض تضاعف إذاً خلال القرن العشرين وحده ستة أضعاف.

ازداد متوسط العمر خلال نصف القرن الحالي في البلاد المتطورة الصناعية من ٥٥ عاماً للطفل المولود الى ٧٥ عاماً حالياً. وتتراوح زيادة

متوسط العمر في بلاد التخلف في الفترة نفسها من ٣٠ عاماً تقريباً إلى ٦٢ عاماً في بعض هذه البلاد. كان من أبرز نتائج الزيادة في متوسط العمر زيادة عدد الشيوخ في الدول المتطورة بشكل خاص، يقابلها زيادة متفجرة أكبر في عدد الأطفال واليفعان في بلاد الجنوب المتخلّف.

تتراوح نسبة مَنْ تجاوز سن الخامسة والستين في معظم البلاد الصناعية ما بين ١٨ ـ ٢١٪ من السكان، أي أن واحداً من كل خمسة أفراد إنسان متقاعد لا يعمل، ويعيش عالة على أهله ومجتمعه.

تزداد الحاجة إلى العناية الطبيَّة مع تقدم العمر، وتبلغ وسطياً نفقات الخدمة الطبيَّة للشيوخ بعد الخامسة والستين خمسة أمثال ما يحتاجه الشاب في عمر الثلاثين.

زيادة السكان في البلاد المتطورة ضئيلة أو معدومة وسلبية أحياناً (٠,٥ ـ ١,٥٪ فقط سنوياً)، وأعباء الشيوخ المادية المتزايدة مهما بلغت متوفرة مع نمو الإقتصاد المطرد.

زيادة نسبة الأطفال في عالم التخلف تسبب أعباءً رهيبة متراكمة، تتحملها فئة عاملة ليست لها دخول ثابتة وكافية، ومعظم الشباب عاطلون عن العمل كلياً او يعملون في نشاطات هامشية تافهة، وهي بطالة مقنَّعة.

تبلغ نسبة الأطفال واليفعان حتى سن الخامسة عشرة.. أي ما قبل سن العمل والإنتاج، ٥٠ ـ ٦٠٪ في عالم التخلُّف عامة، فأكثر من نصف السكان أعباء على الأقلية وعلى المجتمع بكامله، في تأمين غذائهم ولباسهم وسكنهم ومدارسهم، ومحاولات رفع مستوى عيشهم. وبعد ذلك لن تتوفر للأكثرية الساحقة الشابة وقد بلغت سن العمل والإنتاج فرصٌ كافية للوظيفة أو العمل الثابت ولا الموسمي أحياناً.

تتراوح الزيادة السنوية للسكان في معظم العالم العربي ما بين ٢,٥ ـ ٣,٨٪ سنوياً، والزيادة سلسلة هندسية. ومعنى ذلك يتضاعف عدد السكان كل ٢٢ عاماً تقريباً.

كان عدد سكان سوريا في مطلع الثلاثينات ٣,٥ مليون، ويتجاوز تعدادهم حالياً ١٣,٥ مليون نسمة وعدد غير محدد من المكتومين.

يعرقل التفجُّر السكاني وحاجات الأجيال الصاعدة المتصاعدة، بل يمنع أية إمكانيات للإدخار ولنمو الإقتصاد، ويشتد التباعد بين المحاصيل الضئيلة، والأفواه الجائعة المتزايدة.

فالأجيال المتزاحمة الصاعدة والمتوثّبة، تسمع وترى كيف يعيش الآخرون، فتزداد شراهةً وتقليداً استهلاكياً لا حدود له، وتزداد مع كل ذلك مشاعر الإحباط والضيق المتفجّر.

كذلك تسمح العناية الصحيَّة الطبيَّة في البلاد المتخلفة بزيادة عدد الشيوخ العاجزين ايضاً، وينوء الشباب العامل مسحوقاً بالدخل المحدود، بين الشيوخ والأطفال، ويزداد العجز عن تأمين الضرورات المعاشية اليومية.

ليست الشيخوخة لعنة كاملة في بلاد التخلف إذ تبقى الدار والموارد على ضيقها كافية للشيوخ، يعيشون فيها مع الأحفاد والأولاد. ورعايتهم والعناية بهم واجب أخلاقي أصيل، وقد كان الشيوخ في مجتمعات الأمس بركة وخبرة، ومع ذلك تتطور الأمور في بلادنا نحو الأسوأ تدريجياً.

الشيخوخة في البلاد المتطورة صورة بشعة ونهاية مخجلة لنشاط الإنسان خلال سنوات إنتاجه، فإذا انتهت طاقاته او أُحيل الى التقاعد وهو نشيط، فقد عزل عن الحياة، فعلى الرغم من الضمانات المادية الكافية للعناية بالشيوخ في دور العجزة مثلاً، فإنَّ البيئة الجديدة والغريبة تماماً عما اعتاد عليه الشيوخ لسنوات العمل الزائدة والمديدة، هي الصقيع الجهنمي لإنسان وحيد مهمل.

حدَّثني سكرتير عام الشؤون الصحيَّة الإجتماعية في الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ عن مشاكل الشيوخ والعاجزين. يرمي بهم أهلهم من دون أوراق هوية أمام دور العجزة بعد أن ضاقوا بهم ذرعاً، وعجز أبناؤهم عن العناية بهم.

يتعرّض الشيوخ، نتيجة للعزلة والوحدة في الدار او في دور العجزة، لتوتر نفسي وانطواء حاقد على الذات، او تظهر عليهم عوارض العته الشيخي الحادة.

والسؤال بعد ذلك: هل تكون الإنسانية التكنولوجية في تطبيقها ونتائجها زيادة في سنوات العمر تساوي وتعني زيادة في سنوات البؤس والشقاء؟

يبلغ متوسط العمر حالياً في البلاد الصناعية ٨٠,٦ للنساء، و٧٢,٣ للرجال وسطياً. ولم يعد شذوذاً بلوغ المئة من العمر، فقد تضاعف عددهم ثلاث مرات خلال الأعوام العشرين الأخيرة. كل هذا بشائر طيبة، ولكن الوجه الآخر للمشكلة نقيض لذلك، فإنَّ معظم الذين تجاوزوا الخامسة والسبعين في حالة عجز، وأيامهم آلام وعذاب.

تؤكِّد دراسات كندية أن الصحة لا تبقى مقبولة إلاَّ خلال سنة واحدة تقريباً من أصل السنوات العشر الأخيرة من عمر الانسان، وتدريجياً يصبح الشيوخ عالة يحتاجون الآخرين في كل شيء لاستمرار بقائهم الحياتي.

والسؤال: مَنْ سيعتني بالزيادات العددية الكثيرة في عدد العاجزين من الشيوخ لاسيما وان ضمور الدماغ (داء الزهايمر) وحده يصيب واحداً من كل خمسة ممن تجاوزوا الخامسة والسبعين؟

في الولايات المتحدة منظمات اجتماعية عديدة تُطالب بالحد من السخاء في العناية بالعمر الزائد.

بلغ إنفاق ميزانية الحكومة الفيدرالية في الولايات المتحدة على العناية بالشيوخ فوق الخامسة والستين عام ١٩٨١ ثمانين مليار دولار. وتؤكِّد التقديرات أن الرقم سوف يتجاوز ٢٠٠ مليار دولار بعد خمس سنوات من تاريخه.

يقول السيناتور جافيتس من نيويورك: إن على المهن الطبيَّة أن تحدِّد

بدقة مَنْ يجب أن يعيش ومَنْ يجب أن يُترك ليموت! ويقترح إيقاف العناية المشدَّدة للذين تجاوزوا سن الخامسة والسبعين!

الدوافع وراء هذه الحملة والمقترحات ليست الشفقة والرحمة الإنسانية بل الأسباب الحاسمة الاقتصادية.

■ ثالثاً: نهاية الممارسة الطبيَّة الحرَّة دون قيود ورقابة

انتشر الإيمان بمعجزات الطب وبعمق حتى استقر في يقين الكثرة الساحقة من الناس أن أسباب الموت حالياً هي إهمال أو أخطاء، وكل شكوى مهما كانت بسيطة عادية، تستحق مراجعة طبيب وأخصائي أو أكثر، وإجراء فحوص واختبارات لا تنتهي.

وبدأت تتسرّب الشكوك والحذر من جهل الأطباء، والشكوى من القصور في تأمين الخدمات الطبيَّة في أعلى مستوياتها، كما نشاهد ونسمع في الإذاعات المحلية والعالمية.

طب العصر الحالي كيمياء وفيزياء ورياضيات والكترونيات وبيولوجيا وعلم نفس، بل بين مستندات وتطبيقات الكشوف الطبيَّة الحديثة، المنجزات في علوم الفضاء والهندسة الحيوية، وعلوم القمة الدقيقة المعروفة والجديدة القادمة.

ونتيجة للفوران المتدفّق من المعارف الجديدة، أصبحت معظم المعارف التي اختزنها طالب الطب قبل تخرجه واختصاصه، وقبل ان يباشر عمله، قديمة لا تصلح في العديد من المجالات للاستخدام وغير نافعة في التطبيق.

وعليه، فقد أصبح لزاماً على الطبيب أن يقضي حياته ممارساً وطالباً متابعاً، وإلاَّ تجاوزه الزمن بسرعة، يتدنَّى مستوى عمله ليصبح منسوخاً وخطيراً على المتعاملين معه.

استمرار الاعتماد على العقل الفرد في التشخيص والمداواة، والعيادة الخاصة، والزبائن المرتبطين بساحرهم الموثوق، صور تاريخية تجاوزها

الزمن والواقع. ويفرض التَّسارع المطّرد في تجدُّد المعارف والأدوات ضرورة قيام علاقات جديدة تماماً من التكامل والتعاون في عمل فريق متفاهم، وأجواء زمالة علمية صحيحة لا مجال معها للتناحر والتنافس.

وهكذا نشهد عملياً نهاية للمهنة الطبية الحرة، بمفهوم التراضي والعرض والطلب والقبول الحر التجاري إلاّ اذا ارتضينا الغش والأخطاء في المهنة الحياتية الأولى.

لا مجال في طب اليوم للتجربة الشخصية والأخطاء المحتملة. تُجرى التجارب والاحصائيات، وتُحدّد الأدوية المسموح باستعمالها، والطرائق الواجب اتباعها في مؤسسات علمية عملاقة، والأطباء متابعون يطبّقون ما يقرأون ويشاهدون في مؤتمرات وفي سيل دافق من النشرات المحترمة.

إنَّنا لا نزال نشهد في بلادنا قبولاً طبيعياً لممارسين في الطب والجراحة ممن تجاوزوا عتبة الشيخوخة وفي اختصاصات دقيقة، رغم صلابة العروق وصلابة الدماغ والمفاصل والرجفان في الأنامل.

مهنة تعاطي الطب تعامل مع الحياة الانسانية، ولا يجوز ان تترك حرة دون رقابة وحدود. يخضع طعام البشر ودواؤهم وجميع شؤون حياتهم لأجهزة رقابة اختصاصية، تنظّم العلاقات بين المستثمرين والمستهلكين. وتقع الخدمة الطبيَّة في رأس قائمة الحاجات الحياتية في عصرنا الحاضر، فهي تستحق إذاً رقابة مستقلة ايضاً، ومتابعة دقيقة في العمل الطبِّي في القطاع العام والخاص على السواء. فليس يكفي أن تترك الرقابة على الأطباء عهدة للنقابة من الزملاء من أهل الصنعة! يقوم بالرقابة على الممارسة في عالم التصنيع والتأمين الصحّي جهاز وطني من المتفرغين للعمل، ليست لهم عيادات أو مصالح مهنية أو تبادل منافع. وتتمتع هذه المؤسسة بسلطات إجرائية وقضائية حقيقية.

يقوم صندوق الضمان الوطني بمتابعة ومراقبة ما يجري في المشافي والعيادات، فلا تُترك أرواح البشر لمزاج ورحمة شيوخ المهنة، مهما تقدم بهم العمر، يعيدون باسم الخبرة ويكررون ما اعتادوا عليه.

الطبيب في النظم الاشتراكية موظف ينتقل من عمله اليومي لمتابعة دورات تدريبية لا تنتهي بحسب اختصاصه. وتفرض بعض الدول في النظام الرأسمالي إجراءات تأديبية على الذين لا يستجيبون لضرورات تجديد معارفهم وتدريبهم. وتكون إجازة الممارسة في بعض البلاد محدَّدة زمنياً، وخاضعة للتجديد كرخصة قيادة سيارة، تكون خطيرة على الآخرين من المشاة والركاب إذا كان السائق غير متوازن، أو مصاباً بضعف في حواسه ومنعكساته.

■ رابعاً: تباعد متسارع بين الآمال والإمكانيات

مع المزيد من الكشف والإنجاز الطبِّي تزداد أكلاف العناية الطبيَّة التي تعتمد كلياً على المزيد من الأجهزة الحديثة المتجدِّدة والفنِّيين المدرَّبين المختصين.

تتبارى مراكز البحث والجامعات وشركات عملاقة في الكشف عن الجديد المتطور، وتعتمد جميعاً في الإنفاق على مخصصات ضخمة من موارد الخزينة العامة للدولة أو رأس مال الشركات الصناعية الكيميوية العالمية، وهي من بين أضخم وأوسع الشركات العملاقة وأكثرها ربحاً، وتنافس في أبحاثها وأرباحها صناعة السلاح.

تتراوح نسبة الإنفاق على الأبحاث العلمية عامة ما بين ٠,٥ ـ ٥٪ من الدخل القومي للدول المتطورة الصناعية الكبرى، وهي عشرات بل مئات المليارات من النقد العالمي المحترم.

إنفاق الشركات والجامعات والدول الصناعية في الأبحاث والتطوير التطبيقي لا بدَّ من أن يكون رابحاً، ولذا فهي تفرض عند الكشف عن الجديد أسعاراً تغطِّي النفقات والاحتياط وأرباح المساهمين.

والأجهزة والمنتجات والطرائق الجديدة تصبح في أجواء المنافسة المحمومة بعد فترة قصيرة نسبياً، قديمة لا بدَّ من تجديدها واستبدالها بالمحسَّن منها.

معنى تجديد الأجهزة تنسيق القديم الذي لم يستعمل إلاَّ فترة تزداد

انكماشاً مع السيل الدافق من الجديد المنافس. ويقضي تنسيق الجهاز القديم تدريب العاملين المستمر على الجديد.

تستجيب مراكز اتخاذ القرار في الدول المتخلفة الفقيرة لضغوط لا تقاوم، تذكيها وسائل إعلام سمعية بصرية، فتشتري هذه الدول آخر المستحدثات، منفقة الملايين بالنقد النادر، فإذا وصلت لا يتوفر مَنْ يعمل ويتعامل معها في الاستخدام والصيانة؛ وبعد فترة تزداد انكماشاً، تصبح الآلة الجديدة قديمة منسوخة، وقبل ان تُفتح صناديقها أحياناً.

يجري هذا العبث في بلاد تفتقر إلى أبسط نظم الاسعاف من الطوارىء، أو مقومات العيش الصحي في أدنى مستوياته، من سكن وماء شرب وطعام غير ملوّث وأمراض مستوطنة.

لا تحظى الضرورات الصحية الطبيّة الأساسية بالكفاية من اهتمام المسؤولين على اختلاف مستوياتهم لأن إجراءات تأمين شيء من كل ذلك مرتبط كاملاً باقتصاد مزدهر، وتوزيع للثروة عادل ومستوى للوعي والعيش الإنساني المقبول. وعليه وأمام استحالة تحقيق شيء من ذلك خلال فترة زمنية قصيرة تبادر الأجهزة المسؤولة وغير المسؤولة الى اقتناء أفضل وأغلى الأجهزة وأكثرها حداثة كرهان تعويضي كاذب ومخادع للذات.

إن كل إنفاق صحّي وطبّي يستهدف الاستجابة لحاجات فردية أو فئوية أو ظروف طارئة، وكل خدمة لا يمكن أن توضع في الاستثمار، وفي خدمة كل محتاج إليها، هي إجراءات استفزازية تعمّق مشاعر النقمة الحادة في التمايز الطبقي.

تشعر الأكثرية الساحقة من سكان الأرض، خاصة في بلاد التخلف، بالمزيد من الإحباط اليائس، فقد أصبح المرض في الظروف المستجدّة بلاءً حقيقياً عند الذين لا يملكون الكفاية للإنفاق الذي ترتفع حدوده الدنيا بتسارع مطرد، فقد أصبح المرض بلاءً جسمانياً نفسانياً ومادياً مرعباً. يثير المرض والعجز والموت مزيجاً عجيباً من الثقة المتزايدة بإمكانيات الطب كما نراها

ونسمع عنها نظرياً، وبين إمكانيات الحصول على شيء من كل ذلك عند وقوعنا بالمرض عملياً.

والأعجب بين نتائج الارتفاع في أكلاف الخدمات، ما يعانيه الأطباء أنفسهم من نتائج التطورات الكبيرة التي بدَّلت كل شيء في ممارسة الطب.

قواعد أبيقراط وأخلاقيات طب المشورة والتمنيات الطيِّبة غير كافية إطلاقاً مع طب الأجهزة والاختصاص والأكلاف المتزايدة.

لا وجود لصندوق ضمان طبِّي للأطباء وأهلهم، يعتمدون عليه عند الحاجة اليه، والأطباء عاجزون إلاَّ في حدود ضيقة عن مداواة أنفسهم أو أقرب الناس إليهم. وهم يعتمدون في سنوات الممارسة الفعلية على الصداقات وتبادل المصالح، فإذا تفاقم المرض أو امتد وتعرقل فلا يمكن عندئذ ان تبقى الصداقة والزمالة كافيتين لاحتمال كل ذلك. والزمالة والصداقة أصلاً غير قائمتين ولا متكافئتين مع تعدُّد الإختصاصات، ولكل اختصاص حلقاته وروابطه المهنية. وبسرعة يصبح التعامل مع الزملاء عطاءً وأكلافاً من جهة، وامتناناً خجولاً ومحرجاً من طرف آخر. تصبح المشكلة أكثر حدةً وإحراجاً إذا انتهت فترة الممارسة وتبادل الخدمة بعد التقاعد. يشعر الطبيب المتقاعد عندئذ أنه يحمّل الزملاء السابقين أعباء مادية ومسؤوليات أكثر مما تحتمل أخلاقهم المهنية والشخصية مهما كانت متميزة.

كان عدد الأطباء محدوداً، وكانت العلاقات الشخصية كافية لتعامل مقبول، فلما حدثت الزيادة الكبيرة في عدد الأطباء، وتعدَّدت الاختصاصات، وارتفعت كثيراً أكلاف الخدمات، فقد واجه الأطباء الحرج والضيق تجاه أجيال جديدة من الأبناء والأحفاد والزملاء.

والخلاصة: تعرقل الأوضاع الجديدة إمكانية حصول الطبيب على عناية طبيّة لنفسه ولأهله في مستوى مقبول ومن دون شكوك وضيق وحرج.

إذا كان مستحيلاً قيام صناديق ضمان وطنية ولجميع المواطنين في الظروف الإقتصادية الإجتماعية القائمة، فكيف يتهاون السادة الحكماء فلا

يبادرون إلى تأسيس صندوق ضمان مهني يكون أمثولة للمهن الأخرى وللمجتمعات الفئوية والمحلية؟

قيام مؤسسة لصندوق ضمان للأطباء ينهي مواقف الاستجداء والضيق والشكوك في نفوس الجميع ليرتفع مستوى التعامل بين أبناء المهنة الواحدة ويصبح صحيحاً ولائقاً.

■ خامساً: الخدمات الصحية الطبيَّة مطلب حياتي وتضامن اجتماعي

المشكلة الصحية الطبية قطاع وحلقة من سياسة الدولة في الإنتاج والخدمات والتوزيع والرقابة. يتصدّر الطب قائمة الحاجات الحياتية التي لا يجوز ان تترك سائبة تخضع لقوانين السوق في العرض والطلب.

تخضع السياسة الصحية في جميع الدول المتطورة اشتراكية أو رأسمالية، لمنطلقات في التشريع والتطبيق واحدة، لتوفير مستوى متطور من الخدمات، ولجميع مَنْ يحتاجون اليها، مهما كانت إمكانياتهم المالية او مدّخراتهم.

يستفيد عشرات الملايين من مواطني الولايات المتحدة الأميركية من المحتاجين إلى المساعدة من صندوقين فيدراليين هما Medicaid والـ Medicare للعاجزين والشيوخ والمرضى الفقراء.

والخدمات الطبية في الدول الإشتراكية متوفرة لجميع المواطنين، وفي حدود إمكانيات الاقتصاد والدخل القومي.

تنفق بسخاء كل من بريطانيا والدول السكندنافية وفرنسا لتضمن مستوى مقبولاً ولجميع المحتاجين الى الخدمة الطبية، فلا يُسأل المريض عما في جيبه إلاّ بعد إسعافه وإجراء ما يحتاج إليه. والأنظمة جميعاً متطورة مع الحاجات والإمكانيات.

ارتفعت في الولايات المتحدة خلال السنوات الخمس الأخيرة (١٩٨٤ ـ ١٩٨٩) أكلاف الخدمة الطبية وسطياً بنسبة بلغت ١٦٪ سنوياً. ترجمة هذه

النسبة عملياً أن أكلاف الخدمة الطبية قد تضاعفت أرقامها خلال خمس سنوات فقط. ولم تتجاوز زيادة الدخل القومي في الولايات المتحدة خلال هذه الفترة سنوياً حدود (١,٥ ـ ٤٪) فقط. أجرة سرير في مشفى من درجة نجوم عديدة تزيد عن ألف دولار يومياً، تضاف اليها فحوص وجراحات تجعل أرقام حساب الاستشفاء فلكية ايضاً.

إنّنا نسمع ونرى مرتاحين جراحات وإنجازات ومعجزات، وننسى ان كل ذلك في خدمة القادرين على دفع أكلافها من صناديق ضمانهم الحكومي أو الفردي أو من مدخراتهم الشخصية. وعليه، فبدلاً من أن تبعث الكشوف المتجددة الرائعة الطمأنينة والراحة في النفوس، فإنّها تثير معضلات حادة، وتباعد بشدة الهوة بين الآمال والإمكانيات.

لقد أصبحت الخدمة الطبية الرفيعة المستوى حكراً لفئة أممية من العالم أجمع، تتمتع بإمكانيات متميزة للإنفاق من دون حدود.

أرقام العجز الذي تغطيه ميزانية الدولة سنوياً، في صناديق الضمان الصحي والعجز والشيخوخة في كل من بريطانيا وفرنسا، هو الرقم الأول في إنفاقهما على الخدمات عامة.

تحدِّد أنظمة الضمان سقفاً لا تتعداه للخدمات التي يمكن ان توفّرها لجميع المنتسبين للصندوق العام، والإنتساب إجباري للعاملين في القطاع العام والخاص، وللراغبين في ذلك من الأفراد.

فقد بقيت الكلية الصناعية في فرنسا على نفقة المرضى، ولم يتكفّل بها صندوق الضمان إلاّ منذ خمس سنوات فقط، رغم أنها كانت معروفة ومتوفرة في القطاع الخاص منذ ربع قرن تقريباً. وتبقى أكلاف الجراحات الاختصاصية، والفحوص الدقيقة الحديث رفيعة المستوى، تبقى على عاتق الأفراد القادرين على دفع أكلافها، ولا يشملها ضمان الصندوق العام إلاّ في حدود إمكانياته المتطورة أيضاً.

كذلك لا وجود لبوليصة تأمين خاصة تغطّي جميع الخدمات الطبية

الجراحية في جميع مستوياتها دون استثناء، مهما كان المبلغ الذي يدفعه المشترك.

الانتقال من العلاقة المباشرة في التعامل بين المرضى والأطباء إلى التعامل غير المباشر عن طريق صناديق الضمان، انتقال ضروري لتنظيم الخدمة وإشاعة تكافل اجتماعي لتوزيع الخدمات في حدود مقبولة ومتطورة.

فقد كان من أبرز نتائج الارتفاع المستمر والحاد في أشكال الخدمات الطبية وأكلافها معاً، وانتشار الوعي والإعلام المسموع والمرئي في أرجاء العالم، والاندفاع الغريزي للإبقاء على الحياة وإطالتها، أن أصبحت الخدمات الطبية محور الوجود والبقاء الانساني. والإنسان العادي عاجز كفرد عن مواجهة أكلاف لا حدود لها، فالتحوُّل عالمياً لاعتماد صناديق الضمان العامة او الفئوية نتيجة حتمية لمعالجة المشاكل تجاه المرض والعجز والبطالة والموت.

تقيم صناديق الضمان الوطنية أشكالاً مختلفة من التوزيع العادل للخدمات الحياتية، وتضمن حدوداً دنيا للجميع من دون تفريق.

وليس مهماً بعدئذ أن ينعم البعض بالقصور واليخوت والترف طالما أن الخدمات الأساسية متوفرة لجميع المحتاجين دون تفريق، فالمرض بعد الضمان الصحي مشكلة بدنية شخصية فقط، لا نكسة اقتصادية اجتماعية مالية فوق ذلك.

استوردت بلاد التخلف وبسهولة نسبية الأجهزة والتقنية الطبيَّة، ويبقى عسيراً أو مستحيلاً عليها نقل أو استئجار أو استعارة الأجهزة الإدارية والموارد المالية الكفيلة بحسن أداء الجهاز الفني، وتوزيع خدماته على جميع المحتاجين.

فالدولة المتخلفة الفقيرة بشكل عام عاجزة كلياً وموضوعياً عن تنظيم صناديق الضمان الوطنية ونجاح أدائها، لأسباب حضارية إدارية ومالية معروفة.

فالبطالة منتشرة والدخول غير ثابتة، والفوارق الطبقية كبيرة جداً في مجتمعات الاقتصاد الزراعي المتخلف، فالادخار والمشاركة في تمويل الصناديق بعيدة عن إمكانيات جميع العاملين وغير العاملين، ذلك ان الكثرة الساحقة مهدَّدة بالبطالة التامة والموسمية فهي عاجزة تماماً أن تدفع بانتظام لضمان عجز وبطالة ومرض وشيخوخة الغد القريب والبعيد معاً.

والقوانين مهما كانت قمعية زاجرة لا تبدِّل إطلاقاً من سلوكنا الفردي التاريخي، لتقيم بديلاً عنه الثقة بالدولة أو بشركة الضمان، وكذلك لا تفرض الثقة بالآخرين، ولو كانوا من الأقربين: اعتدنا تاريخياً ومارسنا دائماً اعتبار الأموال والممتلكات العامة مشاعاً منهوباً، واستردادها بالنهب والاحتيال والتخريب أعمال مبرَّرة وأخلاقية!

لا يتم تبديل السلوك والضمير الجماعي إلاَّ بمرور الكفاية من الزمن في ظل تربية عقلانية تعاونية جماعية، جديدة وغريبة كلياً على مفاهيمنا وسلوكنا التاريخي.

■ سادساً: لا بدَّ من إعادة النظر في موضوع الإجهاض الطبِّي

إن لدينا وحتى الآن العديد من المشاكل والمعضلات التي نجهل أو نتستَّر على وجودها بالصمت والإنكار.

ليست لدينا دراسات أو إحصائيات عن انتشار أمراضنا المستوطنة، وكل أرقامنا تقديرات واحتمالات. حتى أن عدد السكان تقريبي غير أكيد.

لست في صدد تعداد المشاكل الاجتماعية الطبيَّة القائمة، ولكني أُشير إلى واحدة منها، إنسانية، اجتماعية، خطيرة النتائج.

إنها قضية الاجهاض السائب لعشوائية التصرفات المكتومة. إنها مشكلة طبيَّة في أحد وجوهها، واجتماعية أخلاقية تاريخية في وجوهها الأخرى.

الأنثى في التاريخ القديم مخلوق ناقص، واضطهادها وإخضاعها قاعدة سائدة. تُقتل الطفلة تخفيفاً للأعباء المادية والمتاعب الأخلاقية، تُباع أو

تُشترى في سوق النخاسة مع الأسرى والأطفال والسبايا. تُطلّق أو تُستخدم أو تُرهن حتى سداد الدين.

والأنثى المغتصَبَة خاطئة ولو كانت طفلة. يقتل الأخ أو الأب الأنثى اذا لوَّثت سمعة البيت ويتستر بل يفاخر بالولد المعتدي الظالم.

هذه الأخلاقيات السلوكية عالمية تاريخية من الصين إلى الغرب من دون استثناء، فالفارق الوحيد بين بلاد العالم تاريخي زمني، فقد انتهى أو يكاد ينتهي كل هذا الظلم الاجتماعي في معظم بلاد العالم المتحضّر المتطور بينما لا تزال السلوكية المتخلفة مجمّدة في بلاد المتخلّفين.

واجه المتطورون العلاقة بين الرجل والمرأة بشجاعة وصراحة، وانطلاقاً من أن الأنثى إنسان كامل، وهي مصدر الحياة كأُم وشقيقة ثم زوجة ورفيقة، ولا وجود للانسان بدون الأنثى التي تحقق وجوده البيولوجي والبشري.

تتعرّض الأنثى للعدوان الجنسي، ومن أقرب الناس إليها أحياناً. يحدث ذلك في جميع المجتمعات دون استثناء، فلا يزال الاغتصاب ظاهرة وانحرافاً في بلاد المتطورين والمتخلّفين على السواء.

تواجه الأنثى العدوان عليها في مجتمعات المتحضرين بجرأة وأهلها عصبة معها، فتشكو لملاحقة المعتدي. أما في بلادنا فتواجه الضحية وحيدة من دون نصير واقعاً مرعباً إذا كشفت عما حدث لها، لأن سكين الأهل وخوفهم من الفضيحة يجعلهم اعداءً لها.

السلوك المنطقي أن تخفي ولا تبوح حتى لأُمها بما تعرضت له، رغماً عن ذلك فقد يَكشف سرها تتابع الشهور أو ملاحقة المعتدي الذي يحاول ابتزاز ارتجاف أوصالها لرؤيته، وهو يختال بين رفاقه ومجتمعه، يفاخر بعدوانيته وفحولته.

تستسلم الأنثى المهدَّدة بحياتها لأخطار الإجهاض السري، تفرّط بكل شيء لتقدم للجلاّد الجديد والمنقذ أيضاً، تقدم له ما يريد من المال، ويزداد

شراهة طمعاً بثروة الأهل ومركزهم الاجتماعي. هكذا يستفيد الطبيب المجهض أو القابلة أو غيرهما من الدجالين من تحريم الإجهاض الطبّي بشكل مطلق.

والضحية مستسلمة مذبوحة فعلاً أو مجازاً، أو هي سلعة رخيصة متداولة.

لن أسترسل أكثر مما فعلت في قضية شائكة فعلاً، ولكني رغم ذلك أؤكد بأنها قضية أخلاقية وغير إنسانية، ولها ضحايا.

علينا أن نتذكّر كيف قامت ومنذ قرون في بلاد العالم أجمع، ومنها بلاد العرب والإسلام، دُور البغاء وسط المدن مفتوحة وبشكل علني، تساق وتربط فيها مرتكبات الخطيئة غصباً أو طوعاً أو احتيالاً، وبدوافع كيد وخصومات في بعض الحالات.

وُجدت دور البغاء قانونية وعلنية منذ مئتي عام تقريباً، وقبل ذلك وبعده في بيوت سرية أيضاً. ويستثمر البغايا في الحالين وسطاء وسماسرة، ويبسط الحكام والمجرمون سيطرتهم على نزيلات بيوت الدعارة، وتجبي الدولة من أقدم مهنة في التاريخ ضرائب من دون حرج. والحجة التي كان يدافع بها حماة الفضيلة عن بؤر الفساد، بأن في وجودها ضمانة للأخلاق الحميدة وحماية الزوجات المحصّنات!

فهل من ضرورات سلامة المجتمع وطهارته أيضاً التغاضي والصمت العميق على استمرار السرية في الإجهاض وشبكاته الابتزازية؟!

إن تشريع تقنين الإجهاض لا يمكن ان يكون مشجعاً للرذيلة، بل إنّه ينهي الابتزاز والدناءة للانتفاع من إغلاق الأبواب غير القانونية.

لم تتحرك جموع المؤمنين قبل إغلاق دُور البغاء، وتعلن رفضها وجود دُور لتعاطي الرذيلة رغم أن الزنا جريمة دينية أخلاقية، والزاني والزانية يستحقان العقوبة وفي جميع الأديان السماوية.

نُشرت تقارير خاصة وصحافية علمية هادئة في أوروبا قبل تنظيم

الإجهاض، تؤكِّد أن عدد ضحايا الإجهاض السري سنوياً والتي انتهت بموت الضحايا، لا تقل عن خمسة آلاف ضحية في فرنسا، وأكثر من ذلك في بريطانيا. إلى جانب هذا الرقم عدة ألوف من المصابات بأنتانات وآفات لا يمكن شفاؤها.

يقوم بالإجهاض السري غير النظيف والقاتل قبل تنظيمه وعلنيته في العالم المتطور، قابلات ومولِّدات وأطباء يستخدمون التجريف الرحمي أو وخز الإبرة أو مساحيق وتحاميل.

ولا يتوفر عند إجراء كل ذلك أية شروط للنظافة والطهارة والتعقيم. وقد تموت الضحية مع جنينها في الإجهاض غير الطبِّي.

صدرت التشريعات الضرورية في الدول المتطورة تباعاً لتنظيم إنهاء الحمل في مشافي الدولة وعياداتها، بعد تحديد صارم للظروف الاجتماعية والطبيّة. وتتكفّل صناديق الضمان أكلاف كل ذلك.

وبإشارات سريعة للأسباب الاجتماعية، أقول: عجز الأهل عن تربية المزيد من الأطفال لأسباب مادية، والسماح بإجهاض المغتصَبة أو القاصرة أو الحامل بعد سن الخامسة والثلاثين لاحتمال ولادتها طفلاً متخلفاً في حمل متأخر. وكذلك إجهاض المريضة جسمياً أو نفسياً بمرض لا يسمح لها أن تعتني بوليدها.

■ سابعاً: حدود معقولة لإطالة الحياة اصطناعياً

أثار تصرف رئيس قسم في مشفى بريطاني عام ١٩٧٧ بعد أن أجاز للأطباء المشرفين على معالجة عدد من المرضى بآفات غير قابلة للشفاء، أجاز لهم إيقاف العناية بمرضى يعيشون بفضل استخدام أجهزة طبيّة، تؤمِّن دوام التنفس وعمل القلب، كما تتم تغذيتهم عن طريق الأنابيب.

أثار تصرُّف رئيس الأطباء بعد إعلانه للموقف الجريء استنكار وسائل الإعلام، وانتقل منها إلى رحاب المحاكم، فاتُّهم الطبيب بارتكاب مخالفة للقواعد الإنسانية التاريخية في الحفاظ على الحياة دون حدود.

طلب رئيس القسم من المشرفين على العلاج إيقاف عمل الأجهزة بعد أن قرر ثلاثة من الأطباء المختصين استحالة عودة هؤلاء المرضى الغائبين عن الوعي إلى حياة إنسانية مقبولة.

اتُّهم رئيس القسم بالقتل غير المتعمّد، وأخذت القضية أبعادها في الصحافة ومجلس العموم وفي نقاشات مفتوحة في وسائل الإعلام المختلفة. وانتهت ببراءة المتهم وتصويب قراره.

كانت الحجة الرئيسية القاطعة في الدعوى أن بقاء هؤلاء المرضى في ظروف حياة مصطنعة سبب مباشر لموت أو تأخر إسعاف آخرين من المحتاجين للأسرّة والأجهزة والأفراد، ممن يمكن إنقاذهم واستمرار حياتهم المعقولة.

رفضت المحكمة ادعاء أقارب المرضى بأنهم يدفعون أكلاف الخدمة الطبيَّة من مدّخراتهم الشخصية، ولا يتحمل الصندوق العام أكلاف العناية المستمرة من دون حدود.

وطُرِحَ التساؤل عن حق الأطباء في التوقف عن خدمة مريض لا يمكن أن يعود سوياً، ثم هل الخدمات الطبيَّة في خدمة القادرين على الدفع حتى النهاية الطبيعية أو المصطنعة، وقد أصبحت هذه النهاية احياناً دون حدود تقريباً؟ كما تمَّ خلال ذلك تحديد تعريف جديد وعلمي للموت، فاتُفِقَ على أن الموت هو توقف الدماغ عن العمل. والدماغ هو العضو الأساسي المميز للجنس البشري (الانسان العاقل). ومتى تأكَّد موت الدماغ وخرابه بالتخطيط الكهربي الدماغي، وأصبح المخطط مسطحاً من دون تموجات فإن ذلك برهان قاطع على حدوث الوفاة، ولو استمر القلب نابضاً والتنفس مستمراً بفعل الأجهزة والأدوات المستعملة.

يحدث الخراب في النسيج الدماغي إذا انقطع عنه الأوكسجين لفترة ثلاث دقائق بانسداد الأوعية أو هبوط شديد في التوتر الشرياني.

والتشبث بأي ثمن لإبقاء الأموات أحياءً صناعياً، إجراءات عبثيّة لا تُبقي الحياة ولا تُعيدها.

■ ثامناً: قيمة المنشآت والتجهيزات والأفراد بعملهم وإنتاجيتهم.

مع تراكم الأخطاء، وتأخُر التصحيح والتطوير حسب أولويات معقولة، تبلغ المأساة ذروتها المضحكة المبكية، حيث تشتد رغبات التعويض عن العجز المتزايد، فتنقلب الأدوار والأهداف رأساً على عقب.

الفوارق بين المتقدّمين والمتخلّفين إلى اتساع متسارع، وتواجه قيادات المتخلّفين آفاقاً مسدودة، وتتعمق مشاعر يقينية بالعجز عن النقل والمشاركة في حضارة التكنولوجيا السائدة عالمياً.

يبدأ التعويض الفاشل بمحاولة ضمان مستوى مقبول لطبقة محدودة من أصحاب الامتيازات، ويتم ذلك بشراء المستشفيات والتجهيزات والأدوات، وبالقروض الفاحشة الفائدة، من دول قمة المتطورين.

يدير المنشآت الطبيّة في بعض البلاد المتخلفة شركات مورِّدة للأطباء والإداريين والممرضات، ويقوم الجهاز الكامل المستورَد بخدمات طبية صحية من مستوى معين لذوي القربى والحاشية من أصحاب السيادة.

تفتقر بلاد التخلُّف جميعاً إلى البنية الأساسية الصحية والطبيّة، فلا وجود لوسائل النقل المناسبة لإسعاف حالات الطوارىء في المدن والطرق العامة، فلا يجد المصابون في الطوارىء إلاّ دواب القرية أو سيارات الشحن العابرة مصادفة إذ لا وجود لمراكز إسعاف في الريف ولا في المدينة أيضاً خارج أوقات الدوام وفي مستويات غير مقبولة.

يموت بالنزيف أو الصدمة أو التسمُّم الفلاح المنتج في حقله والعامل في ورشته أو الماشي في طريقه، قبل أن تمتد إليه يد الإسعاف الخبيرة المختصة.

ولا يتوفر في جامعات ومعاهد بلاد التخلُّف إمكانيات لدراسة منظمة

للطب الوقائي والمهني، أو مخابر الرقابة الغذائية والتلوث الصناعي، وهي فروع غير مجزية أمام ازدواجية العمل بين الوظيفة والعيادة الخاصة في الطب العلاجي.

وعليه لا يعمل في الشؤون الصحية والوقائية، والطفولة والمخابر والدراسات العلمية الأكاديمية، لا يعمل في جميع هذه المجالات الأساسية إلاّ الذين فشلوا في زحام النجاح في السوق الحرة للعرض والطلب.

والأطباء العاملون في المجالات الأساسية هم ناقمون حاقدون لأنهم مصنَّفون هامشيون في تصنيف اجتماعي مادي لا يمكن أن يُقارَن (بالشطّار) من المشهورين في مجال الطب الاختصاصي في الجراحة والأجهزة الحديثة الجديدة المتجدِّدة.

تنفع المنشآت الصحية الطبيّة الباذخة في محاولة خداع الذات والآخرين بأننا حضاريون طالما أننا نملك أرفع، أو أشبه ما يكون عند الآخرين، والحقيقة أننا نتدبّر قيمة البذخ على حساب الحاجات الأساسية لجميع المواطنين الآخرين المعرّضين لمشاكل الصحة اليومية في الوقاية والعلاج.

والأعجب من بين هذه الصور العجيبة أن الذين شاركوا في تأمين المال واستيراد كل شيء، إكمالاً لصورة الزيف الحضاري في المجال الصحي والطبّي، العجيب أن هؤلاء الذين ساهموا من أموال الشعب بإقامة ما يسمَّى بالصروح الحضارية هم آخر من يلجأ إليها عند الحاجة الحقيقية في مرضهم وأهلهم وجماعتهم، فإذا احتاجوا الى الفحص الدوري للاطمئنان على الصحة الغالية، فإلى النبع يتوجهون، ولو كانت الرحلة لجراحة الداحس أو البواسير أو الزائدة، أو أية وعكة مهما كانت عارضة وموسمية.

وأخيراً، بالإيجاز مكثف أؤكِّد بأن جميع المفارقات التي أشرت إليها، وغيرها مما لم أتذكر هي نتائج ومظاهر خلل حاد متفاقم بين أكثرية وطنية وعالمية حاقدة وناقمة وممزَّقة، وبين أقلية تنعم بالمزيد من البذخ والسفه والغلو في الاستزادة، وقد ساهمت المنجزات الصحية والطبيّة في تعميق هذه المشاعر.

الفصل السابع

انقلابات وتقلبات شخصية
وسياسية عسكرية
١٩٤٥ ـ ١٩٥٨

إنَّها الفترة ما بين الاستقلال والوحدة مع مصر، وهي فترة تقلبات متناقضة في توجهاتها.

كان أعمق هذه الهزات تأثيراً في نفسي سؤال كبير: كيف انتصرت عصابات الصهاينة وخلال أيام على الجيوش والأعلام والأناشيد العربية مجتمعة؟!

حاولتُ الكشف عن الجواب من خلال قراءات تاريخية واجتماعية سياسية. وبدأَت تتسع زاوية الرؤيا وتخف تدريجياً حماستي للعمل المهني الخاص، ويزداد اهتمامي بالتدريس وبالشؤون العامة.

بدأتُ كذلك بالعمل على تأسيس جمعية لكفاح السل كمشروع طبّي اجتماعي وطني. وكانت حصيلة طوابع السل كافية للبدء ببناء مشفى في دمشق وحلب للمسلولين انتهى بناؤها في الستينات. وتوطّدت تدريجياً علاقات حوار وصداقة مع بعض طلاب السنوات الأخيرة في زيارات وأحاديث وبينهم عدد من الحزبيين.

أعارني صديق طالب كتاباً عنوانه (الدوافع الاقتصادية للحرب العالمية

الثانية). يشرح مؤلّفه طبيعة الاقتتال بين الأوروبيين في الحربين العالميتين للهيمنة على العالم.

قرأتُ الكتاب بمتعة حقيقية، وفيه ما يناقض تماماً إيماني السابق بهتلر والمحور، وأعدتُ القراءة مرات عديدة.

توفرت في الدار ظروف مواتية من الاستقرار الهادىء، ومشاعر وطيدة متطورة من الأمن العاطفي والمادي معاً.

تمّ المنعطف في انقلابي الداخلي من الشخصي إلى العام بتأثير مباشر لأحداث المنطقة وتبدلات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

والحوادث ليست نوازل من دون جذور وخلفيات. وسوف أستعرض فيما يلي أبرز ما أعتقد بأهميته من هذه البواعث والأسباب:

■ ١ ـ الظروف التي تمّ فيها جلاء الجيوش الأجنبية وإعلان استقلال سوريا

رفضت جماهير الشعب السوري الانتداب الفرنسي بالثورات والانتفاضات المتصلة والمتلاحقة، ولم تشعر السلطة المنتدبة خلال ربع قرن من الاحتلال أنّها مقبولة.

أقامت فرنسا مشاريع تطوير البنية الأساسية في لبنان، وانتهى الانتداب الفرنسي والفوارق كبيرة بين البلدين، حيث ازدهر البناء والاقتصاد في لبنان وبقيت سوريا ريفاً متخلفاً وتابعاً اقتصادياً للساحل اللبناني.

لم يتم جلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا نتيجة انتصار مباشر للحركات الثورية، بل نتيجة تناحر وصراع في المنطقة بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي.

قذفت المدفعية الفرنسية مدينة دمشق في ٢٩ أيار ١٩٤٥ بعد حركات عصيان وتحديات من الحكومة الوطنية برئاسة شكري القوتلي. فأخمد الجيش

الفرنسي حركات الشارع وهدمت القنابل البرلمان ومن تواجد فيه من قوات الشرطة والدرك.

وحسم الجيش البريطاني الموقف، بعد إنذار علني من رئيس وزراء بريطانيا (تشرشل)، واعتبر الشعب السوري التدخل البريطاني تحريراً وطنياً، ونُثِرَ الورد على الجنود البريطانيين تلاحق مدرعاتهم فلول الجيش الفرنسي لتجميعه وترحيله، وأصبح الجنرال (سبيرس) مواطن شرف دمشقياً.

كان التدخل البريطاني في حقيقته محاولة للحلول مكان فرنسا في عملية احتواء للمنطقة بكاملها تمهيداً لقيام الوطن القومي الصهيوني في فلسطين.

والخلاصة: انتزعت سوريا استقلالاً هيناً رخيصاً رغم كفاحها المديد، وكأنّه عطاء كريم في مسلسل الصراع بين الشياطين.

تبادل البريطانيون والفرنسيون في الشرق العربي محاولات الإثارة والإزعاج خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، فقد دعمت فرنسا حركات الفلسطينيين رغم وجود بارز للصهاينة في الأحزاب الفرنسية. كما حالت سلطة الانتداب في سوريا دون شراء الصهاينة وعملائهم للأراضي في مناطق الحدود، وربطت حق التملُّك في هذه المناطق بموافقة مسبقة من المفوضية الفرنسية.

زار الياهو ساسون في عام ١٩٣٧، وهو يهودي يحمل الجنسية السورية في حينه، السيد شكري القوتلي، وكان وزيراً للدفاع في حكومة جميل مردم. عرض ساسون على زعيم الكتلة الوطنية إمكانية التعاون لتسهيل توقيع المعاهدة المتفق عليها عام ١٩٣٦ بين فرنسا وسوريا، مقابل أن يتغاضى الوطنيون عن قيام الوطن القومي في فلسطين، ويوقفوا حملاتهم الإعلامية ودعمهم للحركات في فلسطين. رفض القوتلي بشدة عرض ساسون، ودخلت المعاهدة في متاهات انتهت برفضها من قبل البرلمان الفرنسي.

■ ٢ ـ الحكّام الوطنيون

كان حكام بلاد الشام قديماً غرباء عن البلد، ويعيش الحكّام الغرباء بين

جندهم وقصورهم وبطانتهم، والسعيد من المواطنين مَنْ كان بعيداً عنهم باستثناء المنافقين والطامعين.

عندما استولى الوطنيون على الحكم بعد الجلاء عام ١٩٤٦ اندفعت حشود من الذين شاركوا بالهتاف أو بالإضراب أو بإلقاء الحجارة أو حمل السلاح ضد فرنسا، اندفعت حشود من هؤلاء الطامعين جميعاً يطالب كل منهم بنصيبه من المغانم.

وقبل أن يصل الحكّام الوطنيون، الآباء الطيّبون، إلى السراي أو قصر المهاجرين، اصطدموا بحشود أبنائهم وأزلامهم يملأون الساحات وغرف الإدارات يطلبون شفاعات ووساطات واستثناءات. حاول زعماء الأمس حكّام اليوم تهدئة الخواطر بإجزال الوعود السخية، ومحاولة إرضاء بعض المطالب ولو بالتجاوز على الأصول والقانون. وابتدأت مشاعر الخيبة والإحباط واليأس. وما نفع الاستقلال إذا لم يحقّق لكل منا ويزيل عن صدورنا ظلم القرون؟!

صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على التقسيم عام ١٩٤٧، واستخفّ الحكّام الخطباء بالنتائج المترتّبة، وأعلنوا على الملأ أن القرارات حبر على ورق لأن الحق إلى جانبنا!

كان يردّد الزعماء في خطاباتهم الحماسية: (فلسطين عربية وستبقى عربية ولو أطبقت عليها شعوب الأرض): كانوا يعيشون ويؤمنون حتى في السياسة الدولية بالشهامة والفروسية والحق والعدل، ويجهلون تماماً وحتماً معنى الصهيونية وإسرائيل والاستعمار وميزان القوى.

واجهت قياداتنا الوطنية دون استعداد وفي أجواء دولية ومحلية بالغة التعقيد مسؤولية بناء دولة الاستقلال، وإرساء قواعد جديدة للتعامل والتماسك والصمود أمام الأخطار الداخلية والخارجية معاً.

وللإنصاف كان من المحال تحقيق كل ذلك والإرث رهيب، والظلم قديم، والمواجهات الداخلية حادة، لا ترحم ولا تمهل.

لم تكن القيادات الموجودة في الساحة تطمح إلى أبعد من أن تكون وريثة لمراكز السلطة ولو بالإخضاع، وتأجيل الصراع الاجتماعي أو طمسه ولو بالقمع.

وعلى الطرف المقابل كانت شعارات المحرومين المسحوقين من الأكثرية: وما معنى الاستقلال وما نفعه إذا لم يكن تحرراً من الظلم والفقر والإذلال؟!

دخل جيش الانقاذ الفلسطيني عام ١٩٤٧، وأخرج المتطوعون والمتبرعون من أحواض الأرض وثنايا الأثاث ما خبأوا أيام الحرب العالمية الأولى والثورة السورية من أسلحة وذخيرة فردية ومناظير مكبرة تركية، ونادوا أنها جولة وينتهي الحلم الصهيوني أمام حماسة الشباب المؤمن. وصمدت حصون الصهاينة في المستعمرات فقد درّبتهم بريطانيا مع جيشها على القتال.

قيام اسرائيل زلزال رهيب مدمر عاصف بالمنطقة، فأنزل الجميع من الاستعلاء إلى القاع، واليهود الأذلاء عالمياً وتاريخياً أسياد في المعركة غير المتكافئة. واستولى الذهول والإحباط اليائس على الجميع.

كان موقف الرأي العام السوري من الجيش أيام الانتداب (قوات الشرق) التي يقودها ضباط فرنسيون أن هذه الفصائل أداة قمع بيد السلطة المنتدبة. تتألف كتائب هذا الجيش من عناصر حاقدة منحرفة انتسبت للجيش كمرتزقة، واتخذت من انتمائها الجديد ملاذاً للعيش والنهب والقسوة. وعليه، فإنَّ انتساب المواطن متطوعاً في هذه القوات هو بلوغ الحضيض في مزالق الإنحراف. ولم يترك الفرنسيون بين أيدي الذين انتقلوا منهم كنواة للجيش الوطني أكثر من أسلحة عتيقة من المصفحات والدبابات والأسلحة الفردية تصلح للقمع في الشوارع لا للقتال في الجبهات. ورغماً عن كل ذلك فقد قاتل أبناؤنا من هؤلاء الضباط والأفراد ببسالة منقطعة النظير. وكانت خسائر الجيش الفتي الصغير فادحة، وخاصة بين ضباطه الواعين نسبياً لمعنى الصهيونية والاستعمار الاستيطاني.

خرجت سوريا من المعركة غير منتصرة طبعاً، ولكنها كانت صامدة،

احتلت مستعمرة (مشمار هايردن) بالسلاح الأبيض، ولم يُتَّهم جيشها ولا قياداته بالتخاذل والتآمر.

خرج الجيش السوري الفتي وأسلحته البسيطة الفردية من معركة التحرير، ورغم الهزيمة العربية على جميع الجبهات، خرج نظيفاً، لم تلطخ سمعته أو تلاحقه الاتهامات بالتآمر والتخاذل.

على العكس من ذلك استمر توجيه الاتهام بالفساد إلى الحكم المدني، في سوريا، وأُلصِقَت بالحكّام الوطنيين مسؤولية التهاون في توفير السلاح للجيش.

هيمنت عصابات الهاجانا الصهيونية على مساحات كبيرة من الأرض تجاوزت كثيراً ما حدده قرار التقسيم، وبدأ العاجزون الحائرون يتبادلون الاتهامات بالخيانة والغدر.

انسحب الجيش العربي الأردني من دون قتال من مثلث اللد والرملة نتيجة تفاهم بين الملك و(غلودا مايير) على خطوط حمر وخضر في زيارات ليلية إلى قصر الشونة الملكي. ووقف الجيش العراقي متفرجاً لا يتحرك وقال قائده: «ماكو أوامر»، وظهرت فضائح الأسلحة الفاسدة التي استوردتها مصر، وباخرة محملة بالسلاح، اشتراها ضابط سوري من أقارب أحد زعماء الكتلة الوطنية وأفرغت شحنتها في تل ابيب.

سادت الأجواء العربية حالة رهيبة من الإحباط والقسوة في الحكم على الذات واليأس القاتل، خاصة وقد تفجّرت أخبار الفضائح والعجز والتناحر بين الحكّام، تتناقلها النشرات السرية، أو من الفم إلى الأذن، ولم تجرؤ أية دولة عربية على إعلان حقيقة ما حدث على الملأ. وما نفع ذلك والحكّام أوصياء على الشعب القاصر؟!

واختلطت في أذهان الجميع الخيانة بالعجز والجهل، والإيمان بالجبرية والقدر الذي لا يُرَد.

اشتد تطاول الألسنة على الحكام الوطنيين بعد الاستقلال، وبدأ التشنيع

والدس والاتهام جواباً على استمرار سياسة التعتيم وحجب الحقائق.

والاتهام ولو بالباطل وسيلة هينة لإرضاء الذات، وتنفيس لضغوط مشاعر الحسد والحقد على النعمة الهابطة على الآخرين.

لستُ في صدد توزيع صكوك غفران أو شهادات بالبراءة، فالفساد والمغريات والضمائر النائمة ناشطة وفاعلة في كل المجتمعات، وهي أكثر جرأة عند غياب الرقابة القانونية، والصدق الإعلامي بشكل خاص، والقضاء في تاريخنا خاضع لمزاج وكرم الحكّام.

ولكني أريد أن أُشير إلى أن جزءاً غير يسير من متاعب البلاد العربية بعد الاستقلال كان نتيجة أجواء البلبلة والشائعات وتراشق الاتهام مما انتهى الى قيام يقين عند كل مواطن بأن الجميع خونة وتجار قضية.

وقد قامت أجهزة منظمة وفاعلة في إثارة الغبار والضجيج، وكان يزداد نشاطها تمهيداً للانقلابات العسكرية الظاهرة والخفية في الصراع على السلطة.

كان حكام سوريا في التاريخ القديم والحديث معاً فاتحين غرباء لا يعرفهم الناس إلاّ في كامل سطوتهم وبطشهم. آباؤهم وجدودهم وطفولتهم وفضائح حياتهم كلها مجهولة تماماً. ولا يتعاملون بالزيارات أو التجارة مع المواطنين، ولهم قصورهم وأحياؤهم الخاصة بهم.

بعد قرون مديدة من حكم الأغراب، وصل الوطنيون الى كراسي الحكم، من دون تضحيات حقيقية، وأصبح وجهاء المدينة في الأمس القريب وكبار ملاكي الأرض والعقار والتجارة هم أسياد الموقف الجديد، انتقلوا من مزارعهم وتجارتهم الى قصور الحكم والسرايات، فانطلقت الألسن لا توفر أحداً منهم بل تخترع القصص والفضائح والتشنيع والتجريح بأبناء البلد ووجهائها.

دخلت البلاد مرحلة الاستقلال من دون زعامة تفرض وجودها وتكون مرجعاً بانتصاراتها ورصيدها وإدارتها الوطنية النقيّة، فقد طالت الخلافات

والاتهامات جميع العاملين في الحقل العام الذين كانوا يتبادلون التخوف والعمالة منذ أيام الثورة عام ١٩٢٥.

كان عبد الرحمن الشهبندر خصماً للكتلة الوطنية، وكان متهماً بالعمالة لبريطانيا، وأنه احتفظ لنفسه بالعمولة القانونية أو تجاوزها كوسيط مع الثوار!

ولم يتورّع حزب الشعب عن توجيه اتهامات مماثلة للكتلة الوطنية.

قُتِل الشهبندر في عيادته عام ١٩٤٢، واتُّهم زعماء الكتلة الوطنية بأنّهم وراء المجرمين، وتمّ القبض على الحلقة الوسيطة، وهرب الزعماء المتّهمون، وبقيت الاتهامات معلّقة. كما اتُّهم زعماء الانقلابات العسكرية بالعمالة. حسني الزعيم عميل فرنسي في البدء ثم عميل السعودية ومصر وأميركا، وأنه ساوم على القضية الفلسطينية واختلف مع المفاوضين على المبلغ، قبلوا بدفع ثلاثمئة مليون وطالب هو بخمسمائة مليون.

الحناوي عميل بريطاني عراقي، والشيشكلي عميل لكل منهم ولغيرهم. وكانت حصيلة كل ذلك أجواء حالكة لدسائس ومؤامرات استمرت حتى الوحدة، حُوكم فيها منير العجلاني وغيره من الزعماء الذين يعملون لمصلحة طرف وفي الغد لحساب طرف آخر.

واستسلم الرأي العام يائساً من الخيانات والعمالة، يسعى كل إنسان وراء رزقه، والقضية المصيرية الوطنية لعبة بأيدي الأعداء وحلفائهم في الداخل.

القوى الناشطة سياسياً بعد الاستقلال مجموعات عقائدية، ولكنها غير منظّمة، بإمكانها طرح شعارات تداعب أحلام وعواطف الجماهير دون إلزام القائلين بها بأمور محددة.

كان من أبرز التنظيمات الحزبية: الشيوعي، وهو على قلة المنتسبين إليه (خمسة آلاف في حينه)، يعتمد فكراً مستورداً مرفوضاً في المجتمع المحافظ التقليدي السائد تاريخياً. ثم الحزب القومي السوري الاجتماعي، ثم كتلة العلماء والإخوان المسلمين، وترفع شعارات أمجاد الماضي وأحكامه

وعلاقاته، وتستقطب السواد الأعظم من الأمّيين والفلاحين. ثم حزب البعث وقوامه قيادة من المثقفين وأشباههم في الريف والمدينة، وقد استهوت شعاراته أعداداً كبيرة نسبياً من البرجوازية الصغيرة من موظفين وعسكريين ومعلمين. والتصقت بالإسم الأصلي بعد ذلك فكرة (الاشتراكية) من دون أي تحديد لمضمون الكلمة.

وأخيراً الحزب الوطني وحزب الشعب، وهما حزبا الوجهاء في دمشق وحلب، وقد ربحا معركة الجلاء. وكانت الظروف الخارجية والمؤامرات حول سوريا عاملاً حاسماً في ضياع الجميع أمام الأخطار الرهيبة.

خطف بريق السلطة ومكاسبها وإمكانيات إحداث تبديلات جذرية عن طريقها. استولى كل ذلك على القيادات العقائدية والانتهازية معاً. وخيّل إلى الجميع أن التطاحن بين الأحزاب وفي وسط الأحزاب بين الزعامات، في معارك التناحر والتسابق للوصول، أن كل ذلك هو الثورة والتبديل الجذري!

كان العداء للسامية من بين أقوى التيارات العالمية الفاعلة في دعم إنشاء وطن خاص باليهود بديلاً عن الأحياء الخاصة بهم في مدن العالم.

يقول بل ويؤكّد البعض بأن العصبية الدينية والطائفية ظاهرة دخيلة مدسوسة علينا. وهذا كلام غير صحيح ولا واقعي، فمجتمعاتنا قديماً كغيرها من المجتمعات الدينية والقومية غير متسامحة ولا إنسانية، كما يشتهي البعض أن تكون كذلك. لن أسرد صفحات سوداً من التاريخ، ولكني أكتفي بالتساؤل:

كيف تكوّنت هذه الأحياء الطائفية، وكيف استوطنت طوائف معينة دون غيرها في مناطق محدّدة لا تقبل غريباً عنها؟

تحصنت في الجبال عشائر وقبائل معينة، والسهول محرّمة عليها، إلاّ في حدود التعامل وتبادل المنافع دون الإقامة والتملك، فلا عجب بعد كل ذلك أننا كنا نجهل، وقياداتنا معنا، كل شيء يتصل بحقيقة الصهيونية العالمية وتنظيماتها وإمكانياتها؟ وكيف لنا أن نعلم أو ندرك شيئاً من ذلك؟ لقد أغلقنا

على أنفسنا النوافذ بعد أن امتلكنا الحقيقة الكاملة الوحيدة، وكل غريب أو وافد من أفراد او أفكار رجس من عمل الشيطان أو نجاسة.

كان موقفنا أيام زلزال إسرائيل، وحرصاً منّا على إرضاء الذات، محاولات مستمرة وحتى الآن للتعتيم، وتجاهل كل ما يتصل بالصهيونية وإسرائيل، ومنع دخول أية مطبوعات تشرح واقع الحال، وكنا لا نزال نتهم المخالفين لسياسة النعامة بأنّهم عملاء ودعاة للأعداء.

تقودنا مواقف الجهل والتبسيط من الاستخفاف إلى الانبهار بقوة إسرائيل وإمكانياتها اللامحدودة في خداع العالم والتلاعب بالسياسة الدولية، وبإمكانياتها الخارقة في تسديد الضربات وإحكام الاصابات في عمليات اغتيال وتدمير ما تريد من المواقع في لبنان وفي العراق وتونس ومصر وسوريا.

يتكلّم المتخاذلون بحسرة وأسى على الفرص الضائعة وعبثية مقاومة إرادة عليا مفروضة علينا. ينتقدون رفض التقسيم مثلاً، وأننا لو قبلنا في حينه ما أرادوه لنا لنجونا واحتفظنا بدولة عربية فلسطينية! لا حياة لإسرائيل إلاّ قاهرة مهيمنة، وقبولها التقسيم مرحلة أولية في الطريق لإسرائيل الكبرى.

لن يتغير شيء لو استسلمنا منذ البدء، ولن تبدّل إسرائيل من أهدافها في الهيمنة إلاّ إذا اصطدمت بجدار لا يُخْتَرق من الصمود العربي.

يتنافى الوجود الصهيوني مع الوجود العربي في فلسطين وحولها، والتفاوض مع المنتصرين حالياً، قبول بالهيمنة ونهاية للوجود العربي. والويل للجيل الذي يفرّط بحق أمته في وجودها وأرضها، والتاريخ زاخر بأمثلة عن إبادة الشعوب المستسلمة لأقدارها!

■ ٣ ـ الانقلابات العسكرية

الانقلابات العسكرية في حقيقتها انقلاب في الأدوار، خاصة في مشاهد تزاحم زعماء السياسة التقليدية من أبناء العائلات المعروفة في المدن، يسارعون متسابقين، يتوسلون صلة بالحكّام الانقلابيين.

في الأمس غير البعيد كان آباء الضباط والأفراد، من حاملي السلاح

حالياً، لا يسيرون على الرصيف أمام المخفر والسراي إلاّ حذرين مرتجفين ومبهورين، تطردهم سياط الدرك، وتحول بينهم وبين الاقتراب من السلطة في أخفض مسترياتها.

من الغليان والآمال المتفجرة والأحلام بانتهاء الظلم والظلام مع الاستقلال، ارتخت الرؤوس والسواعد ذليلة بعد الهزيمة مع النكبة، ويتساءل الجميع: كيف انهار الهيكل؟ من الشعر والبلاغة والفخار والاستعلاء، انزلقنا إلى الحضيض لتستقر في نفوسنا مشاعر الخجل والصغار وتبادل الاتهام والشتيمة.

إن أكبر معهد عالمي للدراسات النفسانية والمتابعة التاريخية الراصدة للمجتمع العربي وتطوراته موجود في تل أبيب تديره الوكالة اليهودية منذ عام ١٩٢٢. يقابل ذلك على الجانب العربي جهل مطبق وتجاهل متعمّد لكل ما يمت للصراع العربي الاسرائيلي بصلات مباشرة أو غير مباشرة، فالصورة السائدة في الرأي العام العربي ووسائل إعلامه أن المشكلة برمتها صراع بين اليهودية والإسلام، وانها غزوة صليبية دينية جديدة.

انتقلت حركات الشارع والمنتديات من التظاهر والإضراب والاحتجاج إلى مستويات أفضل تنظيماً وأكثر كفاءة في إحداث التبدلات المطلوبة فكانت الانقلابات العسكرية.

والانقلابات في حقيقتها محاولات لاحتواء الغليان بالسلاح أو بالشعارات، أو تمرير مؤامرات أحياناً، فالتوافق والاتفاق خلف الأبواب المغلقة ومع الفرد الذي بيده الأمر النافذ، أيسر وأسلم عاقبة من كشف الصفقات في نور الديمقراطية والإعلام الأمين.

والجيش في تكوينه وقياداته شريحة منظمة انضباطية نسبياً من أبناء طبقات القاعدة المسحوقة تاريخياً.

لم أُفكِّر إطلاقاً في خيار الكلية العسكرية، ولم يفعل ذلك أي من الرفاق في نهاية الدراسة الثانوية. ذلك أن مجالات العمل الحر موفورة لأبناء

المدن (تجارة، محاماة، طب، وظيفة) وهي أعمال مريحة ومجزية، ولا يمكن أن تقارن دخولها المادية، وموقعها اجتماعياً، مع أية مرتبة عسكرية مهما بلغ عدد الأوسمة المضافة التي ترصّع الصدور، بينما توفر الكلية الحربية لأبناء الريف المحرومين إمكانيات تحقيق الطموحات حتى في جموحها: المأوى والراتب واللباس الأنيق والسلطة وتجاوزاتها (التسلط، الثروة، الاستعلاء). كان كل ذلك بديلاً عن العمل في الطين والسباخ كخيار وحيد متاح، ولأرض لا تكاد تطعم أو تشبع العاملين فيها.

أنشأت فرنسا (جيش الشرق) من كتائب طائفية لقمع الانتفاضات وضرب المناطق بعضها ببعض، وهي مطمئنة لإخلاص الذين تحركهم من المرتزقة. وقبلت فرنسا عندما أعلنت تسليم هذه الكتائب للسلطة الوطنية عند الجلاء، قبلت ترحيل مَنْ يرغب من المتطوعين في (جيش الشرق) ومنحتهم الجنسية الفرنسية مكافأة لهم، وقد التحق عدد منهم بالراحلين.

كانت نواة الجيش الوطني بعد الجلاء خالصة نسبياً من الشوائب، وعمدت السلطة الوطنية إلى فتح أبواب الكلية العسكرية لجميع المواطنين الراغبين في خدمة العلم من دون تفرقة بين المناطق والطوائف والمنابت الطبقية.

تمثّل كتلة الجيش الموروث والمتجدّد بعد الاستقلال، أكبر تجمع منظم لأبناء الريف الذين يؤلّفون ضباطاً وأفراداً طبقة عانت الكثير من الظلم والإذلال خلال قرون عديدة.

لقد بقيت العلاقات والملكية الزراعية منذ قرون مجمّدة ظالمة بالنسبة للعاملين في الأرض. وتحمي القوانين السائدة منذ الحكم العثماني وقبله المالكين والمرابين المقيمين في المدن الرئيسية.

الفوارق الحضارية المتطورة معقولة ومتقاربة بين المدينة والريف في عالم المتطورين، ويمكن لساكني المدينة التجوال والعيش في القرية النائية وفي ظروف ومستويات مقبولة بينما تعيش القرية في عالم التخلف في مستويات متدنية غير إنسانية، ولا يمكن مقارنتها مع مستوى العيش في

المدينة، تبلغ حدة الفوارق الحضارية بين الطرفين قروناً عديدة، فلا طرق مواصلات أو اتصالات ولا ماء ولا مدرسة ولا مستوصف ولا اسعاف، والمدينة طاغية تستقطب وتستهلك كل شيء.

ليس فريداً أو شذوذاً ما جرى من انقلابات متكررة في سوريا وغيرها من أقطار العروبة والعالم المتخلف. إنّها طفرات وقفزات تحاول إعادة التوازن المختل بشكل حاد إلى العلاقات بين مجتمع المالكين والحاكمين من طرف، وأكثرية مسحوقة من المنتجين، عليهم واجبات وليست لهم حقوق. قد يمتلك الحاكم الانقلابي الجديد نيّات طيبة، ولكنه لا يمكن أن يكون إلاّ جلاداً، ترتبط شرعيته بالسيف.

دخل الظاهر بيبرس المملوكي على مفتي الديار المصرية يسأل، والدم يقطر من سيفه: «مَنْ السلطان؟»، فأجابه فوراً: «مَنْ قتل السلطان».

في ضمير كل انسان ميول غريزية مكشوفة أو مكبوتة للتفوق والسيطرة والقيادة. فإذا توفرت لأي إنسان ظروف مواتية، وتمادى في ممارسة التجاوز، وهو في مركز السلطة الصغيرة أو الكبيرة، فإنّه يتدرّج ليصبح عدوانياً وظالماً، وهي نتيجة حتمية لغياب أو تخاذل الرادع القانوني والأعراف والتنظيمات الاجتماعية. وتدريجياً يصبح الانسان العاقل المتواضع مشروع ديكتاتور صغير في محيطه العائلي أو عمله أو في بلده حيث الفردية الطاغية والجبرية المحتومة.

مجتمعات التخلف بتراتبها التاريخي بيئة مناسبة للقبول والرضا بل والإشادة بعظمة وهيبة المتسلّطين، تحوم حولهم حلقات من المتزلفين والمنتفعين المنافقين.

قبول جماهير أهل القاع، مستودع البؤس التاريخي المقيم، وترحيبها أو عدم مبالاتها بهوية الحاكم الجديد الذي يجزل لها الوعود والآمال العريضة، موقف طبيعي.

وخلال فترة يصبح الحاكم الفرد سيداً مطاعاً يتصرف بشؤون البلد

ومصيره. ومعزوفات وسائل الاعلام جاهزة بأناشيدها وشعاراتها ومهرجاناتها وحشودها في خداع المتسلطين والمسحوقين معاً.

إن معظم الذين يمارسون التعذيب باسم التهذيب والاصلاح، أو القتل والاغتيال باسم تصفية الأعداء والعملاء، معظم الجلادين الذين يمارسون كل ذلك مؤمنون وعن يقين شخصي مخادع بأنهم رُسل العدالة والحكمة والإخلاص. وبالمقابل تزداد رسوخاً حكمة شائعة في القاعدة بأن القادم الجديد مهما كانت نوعيته هو أفضل من القائم، وفي كل تبديل وعود جديدة وآمال وتمنيات!

والإنسان الذي تحوله دولة الولاء للفرد من حطام بشري مهمل إلى شرطي أو سائق سيارة أو ضابط أو شاعر وصحافي، وحتى لو تمَّ تعيينه مديراً عاماً أو وزيراً أحياناً لا يمكن لهذا الإنسان إلاَّ أن يكون جلاداً على الذين دونه، ومطواعاً متزلفاً للذين جعلوه شيئاً أكبر بكثير من جموح أحلامه.

■ ٤ ـ تفجرات متلاحقة للأحقاد المطمورة

لم توفر الألسن الطويلة ولا السلوك المشبوه والفاضح أحياناً أيًّا من الحكّام العسكريين أو المدنيين على السواء.. لم توفر أحاديث المجالس الحكّام الوطنيين من مدنيين وعسكريين في اتهامات، بعضها افتراء، والكثير منها انحراف واستغلال للسلطة.

والتفريق أصلاً بين الحكّام الانقلابيين من عسكريين أو مدنيين هو تصنيف جائر وتعسفي وغير علمي، إنهم جميعاً من طينة واحدة، نشأوا في الأرض الوطنية. وبعد أن تمَّ تكوينهم البدني والنفسي، بعد الدراسة الثانوية اتجه البعض للكلية العسكرية، وآخرون للعمل أو متابعة دراساتهم وأعمالهم. إنهم جميعاً من نسيج واحد استُعمِل بعضه في المجال المدني، وتمَّ تفصيل أجزاء أخرى للدفاع الوطني.

انطلقت بعد الاستقلال أحقاد دفينة في مجتمع الفسيفساء التاريخي بشكل صراعات بين الأشقاء العرب، يريد كل من جيران سوريا توسيع أملاكه

لاحتواء الضائعين في سوريا؛ إضافة إلى صراعات داخلية اجتماعية اقتصادية وسياسية تريد نهاية فورية لجميع ما تراكم من الظلم والاستغلال.

كان من أبرز الصراعات الداخلية مشاكل بين العمال وأصحاب شركات صناعية تجارية وطنية ناشئة، وبين العاملين في الأرض ومالكيها، بين المدينة والريف، بين اليسار واليمين، وفوقها صراع على النفوذ والقواعد بين الشرق والغرب في الحرب الباردة المستعرة عالمياً.

أُطلق على سوريا لقب جديد في وسائل الإعلام العالمية (سوريا السوفياتية) وتكرر حشد القوات التركية والعراقية لإنقاذ سوريا التائهة التي تكاد تسقط في المعسكر الشيوعي!

والخلاصة، كانت سوريا في الفترة ما بين ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ محوراً تدور حولها المؤامرات تستهدف احتواء المنطقة.

■ ٥ ـ تيار جارف منسق من أجل الوحدة مع مصر الثورة

بعد الانقلابات المتوالية، شاعت في وسائل الإعلام العالمية صورة بشعة عن سوريا، وأنها بلاد عاجزة عن حكم نفسها بنفسها كما أنها لا يمكن أن تقبل بحكم أجنبي، وأن الفراغ السياسي القائم خطير على جيران البلد في الشمال والجنوب والشرق والغرب معاً.

كانت الثورة المصرية ١٩٥٢ مقبولة في الغرب وخاصة من قبل الولايات المتحدة التي تسعى لتحتل مراكز نفوذ الأمبراطورية البريطانية في المنطقة الاستراتيجية بالنسبة لإسرائيل والبترول والحرب الباردة المستعرة. كما أن مصر الثورة مقبولة بل هي أمثولة للثورات الانقلابية في المنطقة.

وهكذا اتفقت كلمة الأحزاب والشارع على المطالبة بالوحدة مع مصر للخلاص من المؤامرات والانقلابات والتهديد بالاكتساح. وبرزت خلافات حول شكل الوحدة بين القطرين، فأصرَّ الحزب الشيوعي وكتلة خالد العظم وهاني السباعي، على أن تكون الوحدة متدرّجة والحكم ديمقراطي ليبرالي، بينما تطالب الأحزاب الأخرى على اختلاف نزعاتها وتناقضاتها بوحدة

اندماجية وفورية تنهي دفعة واحدة الخطر الشيوعي والصراع الاجتماعي والتهديد التركي والعراقي.

بدأ عبد الناصر أمجاده بأن توجه للمعسكر الشرقي واشترى السلاح وأنهى ارتهان واحتكار الغرب للإرادة الوطنية. وكان موقف التحدي الحاسم للاستعمار الأمبريالي الأميركي عندما قام بتأميم قناة السويس بعد أن سحبت الولايات المتحدة عرضاً لتمويل السد العالي في محاولة لترويض الضابط المتمرد على الإرادة السامية.

وألهب خطابه في أيلول ١٩٥٦ عواطف الجماهير العربية المكبوتة من المحيط إلى الخليج. أثار هذا الخطاب التاريخي الحنين إلى أمجاد الماضي البعيد وآمالاً بانتهاء كابوس النكسات في مسلسل إذلال العرب بعدوان اسرائيل المتكرر، وانكمش الحكام العرب المعتمدون على الغرب في قيام عروشهم مذعورين من شعبية كاسحة للبطل العربي الصاعد. ولم يتورّع نوري السعيد وكميل شمعون عن تحريض الأسياد على إنهاء الأخطار المحدقة بهم.

وقطعت سوريا خطوط أنابيب النفط للشركة البريطانية الفرنسية (I.P.C) التي تصب في البحر الأبيض المتوسط، وأخبرت عبد الناصر بأنها مستعدة للقتال دفاعاً عن القضية المشتركة، وطلب الزعيم المصري من القادة السوريين الانتظار والتمهل.

خرج عبد الناصر بطلاً قومياً بعد أن تمكن من كسب معركة تأميم القناة، وسادت قناعة كاملة بين مختلف الفئات والجماعات في سوريا أن لا خلاص من حالة عدم الاستقرار وتهديدات الجيران وغارات إسرائيل بالارتماء في أحضان الزعيم العربي العالمي الذي يحدّث الناس عن العزة القومية والعدالة الاجتماعية، ويتحرك على المسرح الدولي ندًا بين أقطاب العالم. يثير الحنين في خطاباته إلى أمجاد (الناصر صلاح الدين)، ويجسّد في كلامه آمال وطموحات ملايين الكادحين في العالم العربي للخلاص من الظلم التاريخي في ظل الإقطاع والمرابين والحكّام المتسلّطين.

اتخذت الولايات المتحدة أيام أزمة السويس موقفاً مناهضاً للغزو

الثلاثي، فقد أجبرت حلفاءها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب من الأرض التي احتلوها.

لم تكن علاقة ثورة الضباط الأحرار في مصر عام ١٩٥٢ سيئة مع الولايات المتحدة إلاّ كلامياً. ويتأكد المتابع لما كتبه حسنين هيكل أو المراجع لأحداث المنطقة خلال الخمسينات والستينات، من يقين بأن العلاقات الأميركية المصرية لم تكن في الواقع عدائية إطلاقاً.

العداء الحقيقي المضمر والمستمر، موجَّه إلى الاتحاد السوفياتي والشيوعية.

شراء عبد الناصر السلاح وقبول الخبراء والتصنيع من الكتلة الشرقية، وكذلك الإشادة بالصداقة مع الاتحاد السوفياتي لمواقفه السياسية، ليس كل ذلك إلاّ ردود فعل للصدّ الأمريكي الذي لا يقبل بأقل من استسلام وسلام بين أكبر دولة عربية وإسرائيل.

أُلخّص خلفيات الموقف كما أتصوره بما يلي:

أولاً: تاريخ الفكر المصري الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر تركيز على انتماء مصر للغرب الأوروبي، وإعجاب وتقليد متردّد لما قام به مصطفى كمال أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولى في تركيا.

وتقف أوساط البورجوازية المصرية، والطبقة الحاكمة السابقة واللاحقة في حالة انبهار بنمط الحياة التركية أولاً ثم الفرنسية وأخيراً الأميركية والبريطانية.

ثانياً: الانتماء العربي الذي اكتشفه عبد الناصر مكشوف الجذور المصلحية، فالعروبة ركيزة حركة واعية، تجعل من مصر دائرة ذات إشعاع فكري ثقافي اقتصادي وصناعي، مجالها الحيوي، وأسواق تصريف انتاجها، عالم عربي يمتد من الخليج إلى المحيط.

كما يمكن لمصر تلبية حاجات العديد من أقطار العروبة الثرية والمتخلفة والقليلة السكان، والتي تفتقر الى المؤهّلين الفنيين في الإدارة

والخدمات للمشاركة في الثروة البترولية المتفجرّة.

مصالح متبادلة وتكامل، وزعامة تبدو كأنها قادرة على احتواء وإدارة هذا المشروع الضخم جداً تحت لواء وحدة المصير ووحدة التاريخ. أمام خطر اسرائيل المنافسة القوية التي تريد إزاحة مصر، لتقوم بالوكالة عن الامبريالية العالمية باحتواء المنطقة.

هدف المستعمرين الثابت في الصراع القائم والمستمر، تفتيت بلاد الهلال الخصيب تمهيداً للغرسة الخبيثة، يهيئون لها الأرض لراحة نموها وازدهارها. ونجحت الأجهزة الخفية والإعلام في تعبئة تيار واسع وطني لتجعل من الوحدة الفورية الكاملة المخرج الوحيد لخلاص سوريا الحائرة واحتوائها. أداتهم الظاهرة في توجيه القطيع الضائع، التلويح بالخطر الشيوعي الذي يهدّد عروش العرب، ومصالح التجار والعملاء.

كان أعداء الوحدة الحقيقيون متأكّدين من أن الوحدة فورة عاطفية لا تتوفر لها أسباب البقاء أو الامتداد لتكون خطيرة على مصالحهم.

بناءً على كل ذلك وقفت اسرائيل ومن ورائها التيجان والحكّام العرب، وقفوا جميعاً متفرجين هادئين، وقد طمأنتهم القوى الفاعلة في هذا التوجه المخادع المتآمر. ساد الصمت والترقب في صفوف أعداء قيام دولة عربية أكبر، ممتدة من حدود تركيا إلى وسط افريقيا، فاللغم الرهيب (إسرائيل) في منتصفها.

ومن عجائب صور تهيئة الأجواء في تلك الفترة أن الحزب الشيوعي السوري الذي لم يكن مرخصاً قانونياً قبل الوحدة، أُفسِحَ له المجال ليكون أكثر نشاطاً علنياً، يعقد الاجتماعات وينظم مهرجانات خطابية.

يجري النشاط الشيوعي العلني الواسع بينما غابت عن الساحة الأحزاب المرخصة بعد أن حلّت نفسها استجابة لطلب الرئيس عبد الناصر، بل قبل ذلك ايضاً.

أعطى هذا النشاط العلني المبررات الضرورية للجهات المخططة

للوحدة التي ترى في هذا النشاط الكلامي قيام قلعة الشيوعية على الأرض العربية.

احتفظت الثورة المصرية بقانون أصدره اسماعيل صدقي أيام العهد الملكي، يحظر قيام حزب شيوعي، وأنذر عبد الناصر الشيوعيين بعد أن استقر له الحكم بأن مصيرهم سوف يكون إلى جوار الإخوان المسلمين (المشانق والسجون) إذا لم يلتحقوا بالحزب الحكومي (حركة التحرير). وفشلت محاولة إرهابهم، فاعتبرهم اعداءً للقومية العربية، حلفاء الامبريالية والصهيونية العالمية، وامتلأت بالألوف منهم سجون الواحات في الصحراء.

هدف عبد الناصر من كل ذلك التأكيد للغرب بأنه وطني، وأنه صالح في نهاية المطاف للتوفيق والاتفاق.

أُلخِّص مرة ثانية قناعتي الشخصية الراسخة حتى الآن كما يلي: عبد الناصر قائد وطني صادق، أراد أن يعيد إلى مصر أمجادها التاريخية. وقد تمكَّن من تحقيق الكثير من طموحاته الوطنية في تحرير الاقتصاد والسياسة المصرية من التبعية الكاملة لدوائر الاستعمار والرأسمالية الأجنبية، وبدأ مشاريع جادة في اتجاه التصنيع وديمقراطية التعليم والخدمات.

وكانت انتكاسات مسيرته وانهيار أحلامه الطموحة نتيجة طبيعية للغرور والفردية وخداع الذات في تقدير حجمه وإمكانياته الواقعية، بعد أن عزلته الأجهزة والجماهير الهازجة الزاحفة وساهمت في ضياعه.

ويبقى عبد الناصر إنساناً نظيفاً وعفيفاً. وهي صفات يندر جداً أن ينجح في التمسك بها حكّام العالم الثالث، وفي السلطة المطلقة مغريات ومزالق لا حدود لها.

بعد مرور ثلاثين عاماً ونيف على انحسار الأحلام الزاهية، أتساءل ويزداد العجب والدهشة: كيف تمَّت الوحدة بهدوء ويُسر وسهولة؟

لقد أنذرت اسرائيل سوريا عام ١٩٧٠ عندما دخلت فرقة مدرعة حدود الأردن، تحاول حماية الفلسطينيين من مذابح أيلول الأسود، يقوم بها العرش

الهاشمي، بينما التزمت اسرائيل موقف المتفرج الهادىء وقد تمت الوحدة على حدودها الشمالية والجنوبية!

وقفت الدول الاشتراكية مذهولة لا تملك وسيلة لمناهضة التيار الجماهيري، ولكنها تخشى أن تكون الوحدة توحيداً لقوى معادية تسيطر عليها قوى الحلف الأطلسي في الحرب الباردة المحتدمة.

الفصل الثامن

الوحدة والوزارة المركزية

١٩٥٨ - ١٩٦١

تحمَّستُ للوحدة مع مصر، وشاركتُ في تزوير الاستفتاء على الدستور وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة، لتبلغ نسبة القائلين نعم ٩٩,٩٨٪ بأن أدليت بصوتي في عدة صناديق، وكأن القائمين على الاستفتاء من الأجهزة عاجزون عن ملئها من دون عناء!؟

أُعلنت الوحدة بين القطرين في ٢٢/ شباط ١٩٥٨، وتمّ تعيين السفير محمود رياض مستشاراً للرئيس في المجلس التنفيذي للإقليم الشمالي، وبدأ تدفق أفواج من الموظفين المصريين معلمين وفنّيين وخبراء وضباط للعمل في الإقليم الشمالي.

حدث في ١٤ تموز ١٩٥٨ انقلاب عسكري في بغداد، وتسلم الحكم عبد الكريم قاسم وأُعدِم نوري السعيد والوصي على العرش عبد الإله، وانقسم مجلس الثورة العراقي بين مؤيِّدين للبعث يطالبون بالانضمام فوراً للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وبين عبد الكريم قاسم ومعه الشيوعيون والحزب الوطني الديمقراطي والأكراد في العراق، يريدون التمهُّل وانتظار نتائج التجربة السورية المصرية.

وابتدأت بين القاهرة ودمشق من جهة، وبغداد من جهة أخرى، حرب إذاعية مريرة وتبادل اتهامات بالتعامل والتواطؤ مع أميركا بدل بريطانيا، وأن

الوحدة مؤامرة خبيثة، وتتهم القاهرة ودمشق قاسم بالعمالة للشيوعية الدولية، وأن العراق أصبح قاعدة للشيوعية الدولية تماماً كما كانت سوريا قبل الوحدة مهدّدة بالسقوط أيضاً.

بعد انتهاء الأفراح والحماس للوحدة السورية المصرية، بدأت المتاعب الداخلية في النظام الذي أُقيم على عجل إذ لم تحدّد صلاحيات المجالس التنفيذية، وبقيت سلطة رئيس الجمهورية وكلمته فاصلة في كل شيء، وهو الحاكم وهو الحكم. وقرَّر الرئيس بعد ثمانية أشهر تبديل جهاز الحكم الظاهر.

في مطلع شهر تشرين الأول ١٩٥٨، استدعاني القائم بأعمال السفارة المصرية في دمشق السكرتير الأول فتحي رضوان، وأخبرني أنّي مطلوب في قصر القبة من القاهرة، والموضوع تشكيل وزارة مركزية، والمقابلة الشخصية ضرورية قبل إصدار المراسيم.

يُطلب من أي متقدم لوظيفة ولو في مستوى حارس ليلي أو آذن مدرسة مؤهلات تفيد بأنه صالح للقيام بالمهمة الموكولة إليه بينما يكفي تقرير المخابرات أو شهادة ضابط في الأجهزة ليتم الترشيح لمنصب وزير.

اجتمعت في الموعد المحدد لركوب الطائرة مع عدد من المرشحين، ومعظمهم أساتذة في الجامعة وبعض العسكريين لا يعرف أحدنا الآخرين. تعارفنا وفي نفس كل منا أسئلة تبحث عن أجوبة.

استقبلني الرئيس مساءً في داره في مصر الجديدة بابتسامة وإيناس، بادرني السؤال: «ألم نتقابل قبل الآن عند حضوري إلى دمشق؟». قلت «أبداً فدرج السراي متعب وأحاول جاهداً تجنّب صعوده». لم يفهم لهجتي ولا ما أعنيه من كلمة (درج) وصعوبة الصعود، صحّحت وأوضحت فقلت: «لم أدع لأية حفلة أُقيمت لك، ولا أحب المهرجانات والزحام، وإني أعمل في حدود المهنة ولا أتعامل مع سلالم السرايات». ضحك وقال: «ولكنك ستحبّ ما أنت مؤهّل له، وقد أثنى عليك من رشّحوك لمنصب وزير صحة مركزي». قلت: «إني بعيد جداً عن أجواء وممارسات الدواوين والإدارة

وأخشى الفشل». قال: «لا عليك»، ثم أردف يقول: «الوحدة مسؤولية كبيرة، وقد كنت أظن قبل قيام الوحدة (بعد مضي ثمانية أشهر من إعلان الجمهورية العربية المتحدة) بأن بين الإقليمين تكاملاً اقتصادياً فنحن بحاجة للخشب نستورده من السويد، وعلمت بأنه لا فائض لديكم منه، بل أنكم تستوردونه ايضاً، ونحتاج للقمح وأنكم تستوردونه كذلك في بعض السنين». تلا ذلك تمنيات ومجاملات وحديث عن الطقس. وتركت الجلسة بعد عشر دقائق ناجحاً سلفاً بالفحص، وقبل المواجهة الشكلية، ومن خلال التقارير.

سافرت، بعد أيام الى دمشق، وقمت بجولة ميدانية أُحاول التعرُّف على الأوضاع الصحيَّة. زارني خلال ذلك رفيق الدراسة خالد بكداش (أمين عام الحزب الشيوعي السوري). وكان متوارياً عن الأنظار، بعد أن غاب عن جلسة إعلان الوحدة في البرلمان السوري، وكان عضواً فيه. كلَّفني أن أنتهز أية فرصة لأنقل رسالة إلى عبد الناصر بأنَّ الشيوعيين ليسوا أعداءً للوحدة وأنهم مستعدون لدعمها، ولكنه يستحيل عليهم من حيث المبدأ إعلان حلّ الحزب الشيوعي الأممي كما فعلت الأحزاب المحليّة الأخرى.

زارني بعد عودتي للقاهرة مستشار الرئيس محمود رياض، فأبلغته رسالة بكداش ورجوته إيصالها للرئيس. غضب ساخطاً، وقال إنَّهم عملاء متآمرون وخونة، وإيَّاك أن تعيد ما سمعت لأي إنسان! وأتبع ذلك بسيل من الشتائم فامتثلت.

هبط عليّ بعد يومين من وصولي إلى القاهرة شاب مهذَّب عرَّفني عن نفسه بأنه مدير لمكتبي، وأعقب ذلك ضارب على الآلة الكاتبة وفراش (حاجب) كما يسميه المصريون. واكتملت بذلك مع سائق السيارة تشكيلات وزارة الصحة المركزية المشرفة تخطيطاً ومراقبة وعلاجاً على صحة خمسة وثلاثين مليوناً من الأنفس في الأقليمين.

قصدت مركز عملي الجديد لأبلغه قبل ربع ساعة من الدوام الرسمي، كأي موظف متحمّس يريد أن يكون أمثولة للتابعين له. وصلت إلى بوابة المبنى ماشياً على قدمي، وهو لا يبعد عن داري أكثر من مئتي متر تقريباً،

استوقفني الجندي الحارس، قلت: «وزير الصحة». أجاب: «لا يأتي قبل الحادية عشرة». قلت: «هو أنا». أفسح لي الطريق بإشارة والشك واضح في حركاته وسحنته. سمح الجندي للمخبول أن يدخل دون تحية باليد أو بالسلاح. أفهمني مدير المكتب بعد ذلك بأن التقاليد لا بدَّ وأن تراعى، فالوزير لا يحضر لوزارته قبل الحادية عشرة، إذا توفر لديه وقت لذلك.

إخفاء وحجب الملوك والوزراء والأمراء عن الأنظار إجراءات لها ضرورتها، لتبقى صورة القادة في خيال الجماهير أقرب إلى صور الآلهة والأئمة، نقية وطاهرة.

لم تعرف سوريا في تاريخها الحديث الملكية والحاشية والبلاط والحجّاب. كان مسكن شكري القوتلي رئيس الجمهورية عند قيام الوحدة، شقة مستأجرة عادية جداً في حي الجسر الأبيض وحارسه شرطي يداوم نهاراً فقط.

يتعرّف الشعب على الحكام من خلال صورهم المصقولة وأحاديثهم المسجّلة الكريمة والمهذّبة، ومن خلال زيارات مندوبي الصحف.

سألني صحفي عن الفارق بين وزير في الإقليم الجنوبي وآخر في الشمالي، أجبت بأني لم أكن وزيراً هناك، ومع ذلك فالفارق كما أراه، بأنّنا نطلق على الواقف أمام مكتب الوزير في بلدي اسم (الآذن) بينما اسمه (الحاجب) عندكم.

الخلاصة، قضينا شهوراً عديدة بل سنتين تقريباً من دون عمل ولا مسؤولية محدَّدة. كنا نتبادل الزيارات بين المكاتب ونستقبل كل طارق.

إذا اشتدّ بي الضيق والضجر، بعد قراءة الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وبعد إيجاد الحلول للكلمات المتقاطعة، أدفع الباب هائماً، أحاول الانطلاق في حدود القفص الذهبي، فأقصد مكاتب الزملاء الأصدقاء أحمد عبد الكريم وأمين النفوري، وغرفهم لصيقة بمكتبي. لقد جمعتنا الزمالة والجوار، واكتشفنا ميولاً مشتركة في البحث عن الكتاب والتعليق

والثرثرة، وفي استعراض شؤون أوسع من الدائرة الخانقة الضيقة لحياتنا اليومية.

نقضي فترة بعد الظهر في نادي الجزيرة (البريطاني سابقاً)، ونهرب من الحديث الحاد لممارسة ألعاب جديدة قديمة (التنس، السكواتش، البولينغ وأنواع أخرى لا أتذكر أسماءها).

أقام البريطانيون ولأتباعهم من المصريين في وسط القاهرة نادي الجزيرة، وهو في الواقع جزيرة منتزعة من ضفاف نهر التيمز في لندن.

هكذا خفّف عنا النادي وعدد آخر من النوادي (البوليس، الصيد) مشاعر الضيق التي نعاني من وطأتها صباحاً في المكاتب المكيّفة المعزولة.

أردت التعرُّف على الأبعاد المرئية للمشكلة الصحية، واعتمدت أسلوب المفاجأة من دون إخبار مسبق بالزيارات التي أريد القيام بها، فرأيت مشاهد لا يمكن وصفها أو تصوُّر وجودها.

بادرني وزير الصحة التنفيذي باحتجاج على الزيارات المفاجئة، قلت لا بدَّ من ذلك إذا أردنا معرفة الحقائق، ودعوته إلى مرافقتي في الغد، فقَبِل.

ذهبنا ولديّ خارطة بالمراكز الصحية في ضاحية قريبة، ووجهتنا مجمّع صحّي يشمل أسرّة مستشفى صغير وعيادة طبيّة وبيطرية وإرشاد زراعي. وصلنا الساعة العاشرة نهاراً والأبواب مغلقة ولا وجود إلاّ لخادمة عجوز وظيفتها (فزّاعة). قرعنا الباب. وبعد تردُّد، فتحت البوابة، وارتبكت المسكينة وكادت تقع على الأرض. أين الطبيب؟ أين الإداريون؟ أين سائق سيارة المركز؟ حضر الطبيب مسرعاً، يتعثر بأذيال (دشداشته) ويتمتم معتذراً بأنه قد استُدعي على عجل لإسعاف مريض في عيادته الخاصة.

الأوساخ في كل مكان وبين الأسرّة العشرة الموجودة في المركز. في أحد الأسرّة رجل وحيد مشلول، رائحة الأمونياك تزكم الأنوف، وبين السريرين طعام حملته الزوجة من العدس والفجل، يتناولونه على الأرض.

المركز مجهّز ومستعد بأدواته وبنائه لتقديم خدمات حقيقية لو توفرت

الإرادة، أجهزة طبيّة جراحية وشعاعية وسيارة وسائقها وطبيب وممرضات، والأبنية موزعة في حديقة مزروعة بالشوك والبلان. وفي زاوية من الحديقة أقفاص تُربّى فيها الأرانب والدجاج، يتسلّى بإطعامها الموظفون. أنهينا زيارة المكان لنتوجه إلى القرية المجاورة، طلبت من الوزير التنفيذي أن يتكرّم فيدخل المقهى الذي يعج بالرجال ليسألهم عن أحوال المجمّع وخدماته، وبعد التحية جلسنا إلى طاولة. تحلّق الزبائن حول الغرباء في لباسهم، سأل الوزير عن المجمّع، فكان الجواب: عن أي مجمّع تتكلمون؟، ثم استدرك أحدهم قائلاً: البناء في طرف القرية! لقد أعطوني علاجاً للجاموسة المريضة وماتت. وأكمل آخر: وقد حمل إليه منذ شهرين ولداً ولم يجد إلاّ عامل الحديقة.

لا وجود للمجمّع ببنائه وموظفيه وتجهيزاته، لا وجود له إلاّ في خرائط وسجلات الوزارة.

كان تعليق الوزير الزميل: «ما همن بهايم أفندم!».

والبهائمية لغة دارجة على لسان الأفندية، في الكلام والتعامل مع المساكين من السواد العامل في الأرض.

ينسى بسرعة أبناء المسحوقين الذين رفعتهم الأقدار أحوال الأهل والقرية، يحاولون قطع الصلات معها نهائياً.

قمت بزيارة للمدينة الجامعية وذُهلت أن نسبة شاغلي أسرّتها لا يزيد عن ١٥٪ من استيعابها وبجوارها قرية تضج بالصخب والموسيقى وبالدعوات الداعرة من الأبواب المفتوحة.

ولما عرضت خطورة دفع ابناء الريف للسكنى الرخيصة «١,٥ جنيه» شهرياً في القرية الموبوءة اجاب وزير التربية والتعليم؟!.. «ما همن بهايم أفندم يفضلون القذارة على النظافة وأن الجنيهات الخمسة المحدّدة أجرة سرير في المبنى الحكومي النظيف صفقة خاسرة للدولة!!» وخسارة جيل وأجيال لا تدخل في حساب الوزير الخطير وقد قفز الى السرايات بعيداً عن الساقية والجاموسة.

وواصلتُ الزيارات المفاجئة، منها مثلاً مشفى الأمراض السارية في عين شمس، قرب دار الرئيس: قاعات فسيحة، وكل منها تضم خمسين سريراً تقريباً من دون حواجز، والمنظر أقرب لقاعة سجن كبيرة، والفوضى كاملة وبعض المرضى يفترشون الثرى. أضابير ضائعة تائهة بين العاملين، تشخيص دون فحوص مخبرية، وأوساخ وروائح... الخ. الأدهى من كل ذلك أنّي في مقابلة يتيمة اجتمعت بها مع الرئيس بعد أشهر، ذكرت له مشاهداتي بغية توصيف الوضع الصحي وضرورة الاهتمام بالجهاز الضخم جداً، والعاطل كاملاً عن العمل والانتاج، فقاطعني وأنا أسرد ما شاهدت، فقال: «مش صحيح، مش معقول، ما أنا زرت المشفى ورأيته جيداً، والخدمات فيه مقبولة». قلت: «الزيارات المرتّبة دائماً خادعة، لقد فرشوا المشفى وتمَّ طلاء القاعات وبدّلوا ملابس المرضى والأطباء قبل حضورك وأُعيد كل شيء الى المخازن بعد انتهاء الزيارة». لم يعلّق على ملاحظتي، ولكنه كان متوتراً يستعجل نهاية الجلسة غير المريحة.

بعد مرور شهرين على وجودنا في القاهرة، رافقنا الرئيس في زيارة الى مدينة (المنيا) في الصعيد. والهدف تعريف الجمهور المصري على وجوه وزرائه من الإقليم الشمالي، وكذلك إشعار الوزراء بوجودهم وأهميتهم.

في سرادق يتسع للألوف من الناس، بدأ مهرجان عكاظ الخطابي تتكرر فيه جمل السين وسوف والآمال الواسعة. يدعو المشير عامر الوزراء السوريين ليكلمُوا الجماهير المصرية التي لا تفهم إلاّ اليسير من لهجتنا العامية، وكذلك الفصحى كما أعتقد. ولما صعد الصديق أمين النفوري، وكان وزيراً مركزياً للمواصلات، بادرهم بالبشرى الكبيرة بأنه سوف يعمل المستحيل لتعميم المخابرات في كل مدينة وقرية.

نزلت كلماته على المساكين كالقدر الرهيب، وارتفعت أصوات الهمهمة والزئير المكتوم احتجاجاً واستنكاراً للوعد غير الكريم! قفز فوراً المشير عامر، يقاطع الخطيب، وأعلن للحاضرين بأن إخوتهم في الإقليم الشمالي يطلقون تسمية (المخابرات) على الاتصالات السلكية واللاسلكية، بينما

(مخابرات)، بمعنى أجهزة التجسُّس والمداهمة من زوار الصباح، هي تسمية خاصة بالإقليم الجنوبي.

أرسل المشير إليّ مَنْ يخبرني بأنّي سأكون الخطيب التالي، فأشرت معتذراً وبإصرار، وقلت إنّي لن أتحرك من مكاني، وإنّي لا أُتقن إطلاقاً التحدُّث للجماهير. تحصّنتُ بأني (تكنوقراط) فنّي لا علاقة لي بالسياسة. تجاوزني وبقيت بالنسبة إليهم غامضاً بدون هوية سياسية معروفة. وقد حاولت الأجهزة إيّاها بعد ذلك أن تعيد المحاولة، فطلب إليّ عدد من الزملاء المصريين ودون مناسبة محدّدة مرافقتهم في جولات خطابية دورية. كان موقفي الاعتذار والرفض المبدئي، وبقيتُ علامة استفهام طوال وجودي في القاهرة.

بعد أن استقر بنا المقام في المقر الجديد للوزارة في هليوبوليس، جمعنا الرئيس وطلب أن يحدّد كل وزير بتقرير يلخّص فيه تصوره، وتأملاته عن الاشتراكية العربية، حدودها وأهدافها كل في اختصاصه، محاولة اختراع لنظرية اقتصادية سياسية اجتماعية جديدة!

خلفيات التكليف هي تشغيل العاطلين عن العمل في نظام رئاسي يدور في الفراغ.

وبعد مرور شهرين من النشاط الفكري الكتابي، رفعت تقريراً لرؤيتي السياسية الصحية المناسبة. وانتظرت مناقشة التقرير في مجلس الوزراء ثم راجعت وزير شؤون الرئاسة (علي صبري)، فقال: «نسيت أن أنقل إليك إعجاب الرئيس وتهانيه بما جاء في تقريرك».

مع استمرار وازدياد الشعور باليأس والملل، اندفعت أنتهز الفرص للقيام بزيارات سياحية في أرجاء القطر المصري، وبدأت أتمتّع بأيام لطيفة في بلد غني بآثاره وطبيعته وكرم أهله تجاه أصحاب المراكز والألقاب الرفيعة.

لقد ترك العهد الملكي شبكة كاملة في أرجاء القطر من القصور والاستراحات المفروشة والمجهّزة بكامل الخدم والحشم لاستقبال الوافدين

من ضيوف وحاشية الملكية البائدة، وحافظت الثورة المصرية على كل هذا التراث، بل أنها أضافت إليها في حدود ما أعلم شاليهات أُنشئت على شاطىء المعمورة وعين عرب والغردقة، مخصّصة للقيادات والسيادات القائمة، كما أضيف اليها بيوت مدراء شركة قناة السويس المؤمَّمة في الاسماعيلية وعلى طول القناة.

تكرَّرت رحلاتي للصيد البري والبحري في الفيوم وقناة السويس والبحر الأحمر، يدبّر وينظم مواعيدها مدير مكتبي، وقد أصبح مختصاً سياحياً للعلاقات العامة.

تمجيد السلطة ورموزها عميقة في الوجدان المصري، وإليكم القصة التالية:

عاد السيد حسين الشافعي الوزير المصري من زيارة للإقليم الشمالي، وبادرني القول: «موظف بالمرتبة الخامسة في بلدي ولا وزير في بلدك. إنكم لا تقيمون وزناً لأصحاب الشأن وتستخفُّون بأصحاب المراكز».

قلت جواباً: «اسمع القصة التالية: كنت في إجازة منذ شهر في دمشق، وطلب صديق أن أرافقه في نزهة الى بيروت. أوقفنا الشرطي على الحدود، يطلب دفع خمس ليرات رسم العبور. قال الرفيق واشار اليّ: إنه وزير الصحة المركزي: اعترضتُ وقلت إنّي مواطن مسافر للنزهة وعلينا دفع الرسم القانوني. ذهب الشرطي يستشير رئيسه ويطلب منه الحضور. عاد معتذراً عن حضور رئيسه، وقال: هل السيد الوزير بمهمة رسمية لإعفائه؟! دفعنا ورفيقي يشتم الأيام وأنا فخور بالمواطن يحترم نفسه ووظيفته».

الجزء الثاني للقصة أننا دُعينا لوداع الرئيس سيكوتوري، وانتهينا مع فجر يوم الجمعة. اقترح مدير مكتبي، وكان يقود السيارة، أن نكمل طريقنا لصيد السمك في السويس وهي منطقة عسكرية، لا يدخلها إلاَّ مَن يحمل تصريحاً من القيادة. واتجهنا شرقاً. توقّفت السيارة أمام حاجز لشرطة الجيش يطلبون التصريح، ورقم سيارتنا خاصة. فتح مدير المكتب زجاج النافذة، وقال كلمتين: «وزير الصحة»، وأشار إليّ. تحية ويرفع الحاجز ونكمل

المشوار. قلت: «قد أكون جاسوساً أو مخرباً ولم يتحقق إنسان من هويتي».

كانت علاقاتي الشخصية والعائلية طيبة مع الزملاء السوريين والمصريين على السواء، ونتبادل زيارات عائلية دورية.

في سهرة تضم حشداً منهم مع عائلاتهم، وبعد الطعام نُصبت طاولة وسلّة تحتها، وقالوا: سوف نبدأ جلسة تحضير الأرواح. التزمت مكاني أتفرج وأكاد لا أصدق ما أرى. اقترب مني المضيف وقال: «أنتم الدكاترة لا تؤمنون بهذا، ولكنني أؤكد لك بأن الأرواح المطّلعة تكشف لك الغيب وتوجه خطواتك».

قد ينجرف قارئي فيقول إن المصريين نوعية خاصة بين الشعوب العربية الأخرى. دوافع القائلين بذلك عرقية غير علمية ومرفوضة. سلوك الشعوب والأفراد بالرضوخ والاستكانة، نتيجة تربية وتدجين على الإذلال والقهر التاريخيين.

الأرض في مصر سهل منبسط، غني، يفور بخصوبته وثرائه، والنيل شريان الحياة للساكنين على الضفتين المرويتين بمائه. والمنطقة المزروعة شريط لا يزيد عرضه عن عشرات الكيلومترات من الجانبين من أسوان إلى القاهرة. تلي ذلك رمال صحراوية غير منبتة، الأمطار فيها شحيحة أو غير معروفة تقريباً بينما لا يزيد معدلها في الشمال عن المئة ميلمتر سنوياً فقط.

وعليه، فإنَّ من يمسك ويتحكم بتوزيع وتنظيم ري الأرض الزراعية، يتصرّف كذلك بأرواح ساكنيها. والحكام منذ الفراعنة أسياد على النهر العظيم، ينظِّمون عبادته في فيضه ومواسمه.

ورغم التأكيد بأن العوامل الجغرافية المناخية ليست حاسمة في التكوين النفسي الاجتماعي للشعوب بشكل عام، ولكنها مع ذلك عوامل مهمة وفاعلة، واضحة التأثير في ترسيخ المعتقدات وصهر الضمير الجماعي الموحّد.

الإنسان الذي يعيش في السهل المنبسط تاريخياً مختلف عن مجتمعات

المناطق الجبلية الوعرة، فالطفل ابن الجبل يهوي إلى الوادي وتتحطم أضلاعه إذا لم يكن قادراً على التشبث بالصخر الذي يتسلقه ويفتح الطريق فيه وينتزع اللقمة من بيئته القاسية.

يلاحظ من يزور مصر من الشمال إلى الجنوب وحدة اللباس والعادات والسكن والتقاليد والمزورعات، كما أن الجماعات التي استقرت في مصر انسجمت وذابت في المجتمع المتجانس، فليس في مصر أقليات عرقية يتميز بعضها عن بعض وعن الأكثرية بلباسها وتقاليدها وعاداتها وطقوسها. حتى الأقباط المصريون، الذين احتفظوا بعقيدتهم قبل الإسلام لا يختلفون عن غيرهم بشيء من كل ذلك.

يقابل ما هو قائم في مصر نقيض له في سوريا، فهي أرض تضاريسها منوعة: سهول وأودية وجبال وأنهار وسواق. معدل الأمطار متباين فيها بين الألف ميلمتر في الساحل وأقل من مئة ميلمتر في البادية.

تكوَّنت التجمعات السكانية في سوريا متناثرة، احتفظ كل منها بتراثه ولغته احياناً، تقطن في مناطق لا يموت الناس فيها محاصرين إذا اختلفوا مع جيرانهم. وكل منطقة جزيرة سكانية يروي أرضها المطر من السماء. ملابس السكان وعاداتهم وطراز بيوتهم ومعتقداتهم، وحتى نوعية طعامهم، محلية، وبعضها غير معروف في مناطق بعيدة.

منذ فترة قريبة، كان يسيراً على الدمشقي أن يشير باصبعه، يحدد من لباس المارين مناطقهم وقراهم وقبل أن يسمع لهجة كلامهم، هذا من حوران، وآخر من الجزيرة أو من إدلب، وأحياناً هذه من القلمون أو من المزّة أو كفر سوسة، ولا تبعد عن دمشق أكثر من مرمى الحجر جزر سكانية يرتبط بعضها ببعض، ومع المدينة أو العاصمة بأوهى الأسباب، لا تحتاجها إلاّ في مناسبات خاصة، وتتجنب الاتصال والانتقال إليها لأنها تخشى الاغتراب والاخضاع والإذلال.

لم تقم في سوريا تاريخياً سلطة مركزية قاهرة متصلة بينما الدولة في مصر قديمة راسخة في تقاليدها منذ الفراعنة. ومع مرور القرون وتعاقب

الأجيال، اتخذت السلطة تراتباً هرمياً واضحاً تتحمل القاعدة أثقال الطبقات الأعلى، ولا تتوفر الحرية في الاتجاهات الخمسة إلاَّ لمن يتربع مرتاحاً في القمة.

يجري على ألسنة الناس بشكل عام تحديد لسلوك موروث خاص بكل شعب. إنّها أقوال غير علمية ولا واقعية. ليست القومية التاريخية تجمعات معزولة مغلقة على نفسها على المدى التاريخي المديد، خاصة بالنسبة للواقع الجغرافي التاريخي للشرق العربي. وعليه ونتيجة لاختلاط الشعوب، بالهجرة والغزوات والاجتياح، يستحيل ان تنقل الأجيال المتعاقبة سلوكاً وطبيعة خاصة بكل منها.

يوصف مثلاً الشعب الانكليزي بأن الفرد فيه هادىء، مدبّر، منظم وشجاع، والفرنسي عاطفي، انفعالي، سطحي، العربي مخادع، كثير الكلام، كسول، ومتقلب، والزنجي حاد المزاج، ذليل، وخانع، والتركي شرس، قاس ومتعصب، والروسي فظ، غليظ، وبارد... الخ.

خرافات وأوهام تجري على الألسنة التي تتداول الصور السهلة الجاهزة. الفرد الإنساني والحيواني عامة فريد بخصائصه البيولوجية وتربيته وبيئته، وكذلك فريد في طباعه وسلوكه. أُجريت دراسة علمية لطباع البشر السلوكية، وظهر أن اختلافات النماذج المدروسة في شعب واحد عديدة جداً، ولا فوارق عددية بين مختلف الفئات السلوكية بين شعب وآخر.

أعني من ذلك بين الانكليز عدد من العصبيين الانفعاليين مماثل أو أكثر أحياناً مما لدى الفرنسيين منهم، فالإنسان وليد بيئته وتاريخه الفردي والجماعي، ويختلف الأشقاء والإخوة والتوائم أيضاً رغم وحدة العوامل الوراثية، ونتيجة لمؤثرات البيئة والتاريخ الفردي. وقد يكون الاختلاف تناقضياً.

كذلك يؤكِّد بعضهم من دون أية حجة أو إحصاء ودراسة بأن سكان المنطقة أو البلد المعين أغبياء أو بخلاء أو أنجاس محتالون... الخ. كل ذلك هراء لا معنى له في الواقع.

لا يرى الأفراد والمجتمعات إلاّ ما يرضي الغرور ولو بالتطاول على الآخرين، والإنجازات الحضارية التاريخية المصرية مبعث فخار حقيقي للجميع، وشواهدها شامخة ومذهلة لمن يزور المتاحف والمعابد في الأقصر وأسوان وعلى مدى قرون مديدة جداً. والحضارة ليست غزواً وفتوحات، ومع ذلك فقد أخضع محمد علي الكبير بجيش مصري الجزيرة العربية وسوريا. ثم أن هزيمة الجيوش العربية الثلاثة عام ١٩٦٧، وهزائم كل جيش على حدة، في مسلسل العدوان الإسرائيلي المتصل، برهان قائم على خطل آراء العنصريين، فالفرد اليهودي معروف في التاريخ، ومشهور لدى الرأي العام العالمي بأنه إنسان جبان ذليل ومحتال.

السوري والأردني والعراقي أو البدوي لا يتميز، وليس أفضل عرقياً من الأشقاء المصريين، وكلنا في هموم الشرق والتخلف سواء.

بعد الاستطراد بعيداً مع خواطري أعود إلى سياق الأحداث في هذه الفترة:

بعد مرور شهرين ونصف من تشكيل الوزارة المركزية، حضر الوزراء جميعاً حفلاً في الملعب البلدي لمدينة السويس احتفاءً بعيد جلاء قوات العدوان عن مصر بعد حرب ١٩٥٦.

محور خطاب الرئيس هجوم مركّز على الشيوعية الدولية، والعميل الجديد في المنطقة عبد الكريم قاسم. الخطاب في حقيقته رسالة مفتوحة إلى واشنطن تأكيداً لحياد دولة الوحدة، وإن شراء السلاح والتعاون مع الاتحاد السوفياتي لم يكن وليد قناعات في التوجه نحو اليسار الدولي، بل إنه نتيجة الموقف السلبي للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين. واندفع الرئيس يشتم الشيوعيين أعداء الوحدة، وتناول إنذار الاتحاد السوفياتي بالقصف الصاروخي في أثناء ازمة السويس بأنه قد تمّ بعد أن تأكّد (بولغانين) من انسحاب المعتدين (هدّد بولغانين بعد يومين من بدء الغزو المشترك عام ١٩٥٦ لندن وباريز وتل أبيب بالقصف الصاروخي إذا لم يتوقف فوراً عدوانهم على مصر).

استمعت مع الزملاء، وشعرت بالإحباط من اللغة والأسلوب في الشتيمة والاتهام، يوجهان يميناً أحياناً، وشمالاً بعد أيام.

كنت أجلس في طريق العودة بالقطار بعد انتهاء الحفل مع الحوراني والبيطار والنفوري وعبد الكريم. عجبت جداً لحماسة الزملاء البعثيين الشديد بالخطاب والشتائم معاً، وبقيت صامتاً. سألني الحوراني: «لماذا أنت صامت لا تشارك في الحديث ولا تعلّق على الخطاب التاريخي؟!». (كان أكرم الحوراني في حينه متحمساً اندفاعياً مع الوحدة، وكان كذلك غير واثق أو على الأقل يجهل تفكيري السياسي، وقد طرب مع رفاقه للحملة على الشيوعيين). قلت جواباً عن تساؤله: «ستقولون قريباً: أُكلت يوم أكل الثور الأبيض». قال: «وما معنى ذلك؟». أجبت: «إنّها قصة رمزية في كليلة ودمنة حين أغرى الثعلب الأسد ليبدأ وليمة الغداء بالثور الأبيض السمين، ويترك للغد وبعده بقية حيوانات الحظيرة. حتى إذا أتى دور الثعلب، ولم يبق في الحظيرة سواه، نطق بهذه الحكمة». ران عليهم صمت مديد، ولم يعجبهم التعليق.

انتظر البعثيون من الوحدة أن تخلّصهم من الشيوعيين منافسيهم في الشعارات والقواعد العمالية، فإذا تحقّق ذلك فمَن أجدر منهم بقيادة الإقليم، ثم الجمهورية، لإقامة الوحدة العربية الكبرى؟!

تصرّف عبد الناصر في حدود الصلاحيات التي قبل الجميع بها مقدماً في ظل نظامه الرئاسي وزعامته الفذة التاريخية. وعليه، فقد أبعد عن مراكز السلطة عدداً من المدنيين والعسكريين، فوضعهم قريبين منه تحت أنظاره، وسرّح عدداً من الضباط المشبوهين بالنسبة إليه، وزجّ في السجون الأكثر احمراراً منهم.

بعد أشهر من الإقامة في القاهرة، ونتيجة للإهمال والبطالة بين الوزراء المركزيين، بدأ الهمس ثم التذمُّر والتساؤل بيننا: ماذا يُراد منا ويُراد بنا؟ زارني رياض المالكي وزير الثقافة والإرشاد في سوريا وسألني: «كيف صحة الوحدة؟» قلت صراحة بأن الرفاق الوزراء السياسيين يتذمّرون، يحاولون

معرفة ما وراء إبعادهم رهائن في القاهرة، والوحدة كما نراها عملية ضم واحتضان للإقليم الشمالي.

نظام الجمهورية رئاسي، كما ورد في نصوص الدستور المؤقت، وتنفيذاً لأحد بنوده دعا الرئيس لقيام الحزب الوحيد الحاكم تمهيداً لانتخابات مجلس نواب يتألف من نسبة محدَّدة من العمال والفلاحين إلى جانب الإقطاعيين ورؤساء العشائر والرأسماليين والاشتراكيين، تصهرهم جميعاً وتنهي تناقضاتهم إرادة القيادة التاريخية وتمنياتها الطيبة بأن تتعايش الذئاب مع النعاج.

يذكر المالكي في كتابه (على درب الكفاح والهزيمة) بأنّه عند تكليفه بالوزارة أوضح له عبد الناصر ما يلي: الإعلام والدعاية أهم من القوات المسلحة لأن الحرب الدائرة بين العرب واليهود هي حرب نفسية دعائية، تلعب فيها أجهزة الإعلام الدور الأكبر. أما بالنسبة للقوات المسلحة فلا دور كبير لها في مثل هذا الظرف الذي تمر فيه القضية العربية. ويستطرد قائلاً: الولايات المتحدة ملتزمة بإسرائيل ومستعدة للحرب إلى جانبها لو هاجمها العرب بينما يحجم الإتحاد السوفياتي عن مجاراة الولايات المتحدة في دعم العرب كما يفعل الأميركيون.

الكلام عن الدعاية والسلاح أصدق كشفاً عن خلفية الفكر في أعلى مركز قيادي. بالصراخ والتهويش سوف ترتعد إسرائيل وتستسلم.

بتاريخ ١٩٥٩/١٢/٢٤ قرأت في الصحف وسمعت بالإذاعة نبأ استقالة الوزراء البعثيين جماعياً في الاقليمين، لم يتصل بنا أحد منهم ليخبرنا عن أسباب الاستقالة.

تكررت زيارات عبد الناصر لسوريا، وكان يُستقبل في كل زيارة بحماسة منقطعة النظير وخاصة في صراع الحياة والموت مع نظام عبد الكريم قاسم.

اجتمع رؤساء تحرير الصحف الحكومية في القاهرة بالرئيس عبد

الناصر، وأشاروا إلى التذمُّر السائد في سوريا. دعاهم لمرافقته لحضور احتفالات بدء السنة الثالثة لإقامة الوحدة في دمشق، وكانت آخر زيارة له للإقليم الشمالي. استُقبل بحشود وترحاب، فالتفت عبد الناصر إلى رجال الصحافة بعد خطابه ليقول لهم: «هؤلاء الناس كما ترون لن ينفصلوا عنا أبداً!».

■ متاعب ومراجعة

يقول الفلاسفة: إذا بدأت باليقين فسوف تنتهي بالشكوك، وإذا بدأت بالشكوك فإنَّك تصل بعد الصبر إلى اليقين.

بعد أشهر من قيام الوحدة بدأتُ أشك، وتدرجت أتساءل ثم أتهم. ماذا نفعل وماذا يُراد منا؟! إذا كان بعض الزملاء من الوزراء رهائن فإنَّهم كذلك لرفعة شأنهم بحكم زعامتهم العسكرية او الحزبية، وما جريرتي بينهم وقد كنت أعمل بنشاط في التدريس والعيادة الخاصة والجمعية الخيرية معاً؟!

تبخَّرت بسرعة نشوة الشرف العظيم بأن أكون وزيراً عند عبد الناصر، أجيراً عند متعهد إعادة بناء أمجاد العرب. وقد اشتد ضيقي وشعوري بتفاهة المنصب الذي أتولاه من دون صلاحيات ولا إمكانيات، خاصة بعد رحلاتي الاستطلاعية في سوريا ومصر، واطلاعي على الواقع الصحّي ميدانياً على حقيقته، فقد تداعت آمالي بل أحلامي ببدء ثورة صحيَّة طبيَّة تدعم الثورة القومية الاجتماعية والاقتصادية.

وجدت نفسي بعد شهرين فقط بيدقاً في رقعة يُحرك حجارتها جهاز تشريفات القصر الجمهوري، للتواجد في الاستقبال والوداع، نستمع ونبتسم ونصفق، ثم ننصرف بانتظار المناسبة القريبة القادمة.

وبعد الأشهر الستة، بلغت مرحلة اليقين بأنِّي والمركب على ضلال.

بعد سنة تقريباً من وجودي في القاهرة، وُجِّهت الدعوة لاجتماع وزراء الإقليمين لدراسة ميزانية الجمهورية، والميزانية صورة تطبيقية للسياسة. عكفت خلال أيام أُدقِّق بأرقامها. أثار انتباهي الفارق الكبير في النسبة

المقتطعة من ميزانية الإقليم الشمالي (٥٣٪)، وما يؤخذ من ميزانية الإقليم الجنوبي (١٧٪ فقط) لقوى الأمن ولتسليح وتدريب جيش الجمهورية الواحد.

بدأت الكلام في مجلس الوزراء الموسّع أشرح وجهة نظري فتكهربت الأجواء. وهاج المشير عامر يقاطعني مع عدد من الوزراء المصريين. أسكتهم الرئيس وقال: «اتركوا الوزير الفنّي يكمل كلامه». أجاب بعد أن انتهيت: «كانت نسبة إنفاقكم على الجيش وقوى الأمن الداخلي في حدود النسبة التي أشرت إليها، وكذلك كانت نسبة إنفاقنا على القوات المسلحة كما ذكرت واحتفظنا بالأمور كما كانت». قلت: «جيش واحد ودفاع واحد منطلق الوحدة ودعامة تطورها، ولا بدَّ من أن نتقاسم سواسية وبنسبة واحدة أعباء الدفاع عن الجمهورية الواحدة». وأكملت ما بدأته بأن الدوافع الحقيقية وراء الرغبة الجامحة في سوريا في الوحدة إنهاء الانقلابات وتسلُّط الأجهزة، وتوزيع وتخفيف أعباء الدفاع، والوحدة إذا لم تُترجم عملياً بجيش واحد وحدود ودفاع موحّد، فإنها عندئذ شعارات لا معنى لها! صخب متجدّد ومحاولات لمقاطعتي والتخفيف من حدّة وقع كلماتي، أعاد الرئيس القول بأن لا مجال إطلاقاً لتبديل نسب الإنفاق، ويبقى ما كان كما كان.

أنهى الرئيس الجلسة وانتقلنا الى مائدة الطعام. انفرد بي بعض الأصدقاء ينصحون: ما لك والمواضيع الشائكة، وما علاقتك بالسياسة الدفاعية وأنت وزير فنّي للصحة؟! وأخبرني بعد ذلك سكرتير مجلس الوزراء السيد صلاح الدسوقي بأن المخابرات العامة قد طلبت تقريراً عن خلفياتي السياسية، فاكتشفوا بأنّي قد تبرعت عام ١٩٤٧ بثلاثمئة ليرة سورية مع عدد من أساتذة الجامعة من أجل شراء مطبعة لجريدة (النور) الشيوعية. تهمة الشيوعية أو التعاطف مع الحزب في حينه، بطاقة مرور للإقامة في سجن الواحات في الصحراء الغربية.

وتأكّدت وساوسي بعد ذلك بأسابيع عندما أخبرني وزير الرئاسة بأنّي مدعو لزيارة بولونيا من دون إشارة لأيّة مهمة محدّدة. انتظرت زيارة موظف مسؤول من السفارة البولونية لتحضير برنامج الدعوة. وأهملت الاستجابة لأنّي

كنت في ريبة من أمر الدعوة ودوافعها وليس في بولونيا الشيوعية ما يمكن أن يكون نافعاً في الاقتباس أو التعاون خاصة وقد كان التوتر سائداً في علاقات الجمهورية المتحدة مع المعسكر الشرقي.

بعد مرور سنتين تقريباً على قيام الوحدة صدر مرسوم جمهوري لانتخابات (الاتحاد القومي) لتأليف مجلس للشعب يضم جميع الطبقات والميول. وأُبلغ جميع الوزراء أن عليهم أن يرشّحوا أنفسهم وأن نجاحهم مضمون.

أخبرت سكرتارية مجلس الوزراء بأنّي لن أُرشّح نفسي، وأنّي وزير فنّي لا علاقة لي بالسياسة. أعقب ذلك محاولات إقناع وإصرار على ضرورة الرضوخ خاصة وأن جميع الوزراء في الإقليمين قد رشّحوا أنفسهم. كان جوابي أن القضية مبدئية ولن أُرشّح نفسي على الرغم من يقيني بأن الأجهزة قادرة بسهولة أن توصلني إلى أي مجلس أو تنهي وجودي من دون عناء.

جرت انتخابات الاتحاد القومي كما خُطِّط لها، وتجاهلها المواطنون تماماً في الإقليمين. وكانت نتائجها مزيجاً عجيباً يكشف عشوائية وتناقضات الأجهزة في كلا البلدين، بل في كل مدينة وقرية. وكان الخاسر الكبير في النتائج قواعد حزب البعث فلم ينجح منها سوى ٣٥٠ مندوباً من أصل الناجحين جميعاً وعددهم (٩٤٥٥). وقد ركزت الأجهزة جهودها، تحارب الحزب في قواعده.

كانت الأجواء العامة في سوريا مشحونة بالتوتر ومشاعر الخيبة، فقد بدأت عمليات تهريب الأموال إلى مصارف لبنان مع الوحدة، واشتدت بعد ذلك، والنقد السوري في هبوط متدرج بالنسبة للعملة اللبنانية والقطع الأجنبي.

ازدادت بشكل رهيب عمليات النهب المنظم للبضائع المشتراة بالعملة الصعبة تستوردها سوريا أصولاً أو مهربّة من لبنان، يصدّرها الى مصر ألوف الموفدين للعمل كخبراء ومعلمين وضباط في الاقليم السوري او يحملها تجار (الشنطة) توفدهم شركات قائمة في الاسكندرية، تشتري لهم بطاقة ركوب

باخرة (الثلاثاء)، وتعطيهم مصروفهم في النزهة لمدة ثلاث أيام، يملأون الشنط بكل ثمين وغير متوفر في أسواق مصر من البضائع الأجنبية للرفاه والتباهي.

وهكذا استمرت سوريا تدفع بالعملة الصعبة ثمن برادات وأدوات كهربائية وأقمشة أجنبية وما إليها، لمصلحة المترفين ومصلحة التجار في البلدين. كانت تهرّب السلع إلى مصر بالطائرات العسكرية، تباع بأرباح فاحشة أو تستخدم لتزيين الدار والزوجات والأصدقاء.

صدرت تشريعات التأميم للشركات الصناعية. عارض التأميم أصحاب الفعاليات الاقتصادية على اختلاف مستوياتهم من أصحاب المعامل إلى الدكاكين الصغيرة، وانضم الجميع الى مالكي الأرض الذين تناولهم الإصلاح الزراعي والذي لم يطبّق خلال الوحدة إلاّ في أضيق الحدود. كان في سوريا إقطاع سوري وطني بينما أصول الطبقة الاقطاعية وأصحاب الشركات التجارية الكبيرة في مصر تركية يونانية أو لبنانية أو سورية.

وقد اشتدّت الأوضاع سوءاً نتيجة الجفاف الذي أصاب البلاد خلال ثلاثة أعوام من عمر الوحدة، فلم يهطل مثلاً في دمشق عام ١٩٥٩ سوى ٧٥ مليمتراً بينما متوسط الهطول يبلغ عادة ٢٥٠ مليمتراً سنوياً.

■ الجلسة اليتيمة

بعد عدة شهور من رفع تقريري عن السياسة الصحية، اشتد بي الضيق من البطالة والتفاهة. طلبت مقابلة الرئيس عن طريق وزير الرئاسة، وبعد مضي أربعة أشهر كاملة تكرّم الرئيس وحدّد موعداً لاستقبالي في استراحة القناطر الخيرية.

ترحيب متحفظ وابتسامة استخفاف متسائل. قلت: «منذ ستة أشهر، قدمت تقريري وبتكليف منكم عن السياسة الصحيّة، ولا أزال أنتظر مناقشته». قال مقاطعاً: «أي تقرير تشير إليه؟». قلت: «لقد نقل إليّ السيد علي صبري تهنئة عن لسانك، وأنك معجب بمحتويات التقرير». قال منفعلاً: «يصلني

كل يوم حمولة لوري (سيارة شاحنة) من التقارير. هل تريدني ان أقرأها جميعاً وأستوعب محتوياتها؟» شعرت بالغضب الحاد خاصة وأن اللهجة وتعابير الوجه استفزازية وغير مهذَّبة. قلت: «إمَّا أنك نسيت أو أن السيد علي صبري يتكلم بلسانك دون علمك». قال: «ما لنا والتقارير. عايز إيه؟» وأردف وبالحرف الواحد: «هل تريد سيارة أو ينقصك أي شيء؟». ابتسمت مشفقاً للمساومة التي اعتاد عليها الرؤساء يراجعهم الأتباع للمزيد من المكاسب الشخصية. قلت: «لدي سيارة خاصة منذ عام ١٩٣٧ وقد تجاوزت المراهقة والشباب وأنا في الخمسين من العمر». ابتسم عندئذ ملاطفاً وقال: «عسى أن تكون مرتاحاً والعائلة، والقاهرة مدينة جميلة وزاخرة بالمعالم والمتاحف». قلت: «إن أموري الخاصة ممتازة، لكنِّي لن أبقى إذا لم أعمل وأشعر بأنِّي موثوق وأن في بقائي خدمة حقيقية». قال: «ماذا تقصد من قولك لن أبقى؟». قلت: «أعني بأنِّي سأعود من حيث أتيت لعيادتي في دمشق». أطرق متجهماً، وسردت عليه مشاهداتي في زيارات المراكز الصحيَّة وهو يردّد: «غير معقول.. غير ممكن. لقد شاهدت بنفسي خلاف ذلك». قلت: «يخدعونك وينظِّمون الزيارات».

عاد يكمل حديث الطرشان مرة ثانية: «ماذا ينقصك وماذا تريد»؟ أعدت القول: «أريد أن أنجز.. أريد أن أعمل». وانتهت المقابلة بابتسامات وتربيت على الكتف، وانتهيت إلى يقين بأن النهاية غير بعيدة.

ووجّهت لي دعوة جديدة للسفر إلى السعودية أبحث فيها شؤون الحجر الصحّي في مدينة الطور على خليج السويس.

قضيت في المملكة عشرة أيام في زيارات ومفاوضات، عدت بتقرير رفعته للرئاسة توطئة لإبرام اتفاق يقضي بضرورة إنهاء وتصفية محجر الطور، بعد أن أصبحت وسائل الوقاية من الكوليرا والطاعون كاملة وناجعة. لم يناقشني أحد بالتقرير والاتفاق، وأهمل التصديق عليه.

■ القشة التي قصمت ظهر البعير

تشرف وزارة الصحة المركزية على سياسة الدواء في القطرين، وقد نجحت الهيئة العليا للدواء في تنظيم قوائم واتفاقات لاستيراد مستحضرات من هنغاريا وألمانيا الشرقية مماثلة في تركيبها وتأثيرها لما تنتجه معامل الغرب الدوائية. أسعار بعض الأدوية التي عزمنا على استيرادها لا تزيد عن عشرة بالمئة فقط من أسعار مثيلاتها الغربية. والمهم في الدواء تركيبه الكيميوي لا شكل التعبئة والطباعة.

رفعت الهيئة تقريرها إلى وزير الرئاسة، وكان يتابع نشاطها عن كثب. واقترحنا أن يتمّ استيراد الأدوية الشرقية لتطرح في السوق منافسة وبديلاً فعالاً ورخيصاً لسدّ حاجات وزارتي الصحة في الإقليمين، وأن تترك السوق الدوائية مفتوحة للآخرين الراغبين شراء الدواء الغربي.

كانت الصناعات الدوائية تابعة لوزارة الصناعة. وقد أحال إليّ وزير الصناعة المركزي (عزيز صدقي) مشروع اتفاق مع شركتين أميركيتين لتصنيع الدواء في مصر، وهما شركة (بفايزر) و(ليلي) وهما من بين أكبر شركات الدواء الأميركية، ويطلب إليّ الزميل المصري الموافقة على المشروع بعد تحديد أنواع الأدوية التي نريد الاتفاق على تصنيعها.

بعد الدراسة لاحظت بأن المشروع المقدّم لا يتعرّض لسعر مبيع الدواء الأميركي المصنّع عربياً. طلبت إرسال كامل مشروع الاتفاق وكيف سيتم تحديد أسعار منتجاته، مرت أسابيع وطلب الزميل خلالها وبإلحاح إرسال الجواب الفنّي، بتحديد أنواع الأدوية المطلوب تصنيعها، وأن موضوع التسعيرة خارج اختصاص وزارة الصحة. قلت: سياسة وزارة الصحة توفير الدواء الأفضل وبالسعر الأخفض، وفي حدود إمكانيات المستهلك، والموضوع لا يتحمّل توزيع اختصاصات والمصلحة واحدة.

وبعد ان ضايقني بملاحقته وهو يدّعي الكلام باسم الرئاسة، أجبت بأني رفعت تقريراً للرئاسة عن الموضوع، ولست أقبل بيني وبين الرئاسة وسيطاً مراسلاً.

ازدادت متصاعدة شكوكي في صانعي القرار بعد أن راجعني عدد من وكلاء شركات فرنسية وايطالية يرغبون إقامة منشآت صناعية دوائية في سوريا، يشكون مستغربين كيف يحيلهم وزير الصناعة التنفيذي في سوريا الى مصر حيث تتوفر إمكانيات أفضل للصناعة الدوائية. ولم يكن في سوريا في حينه أية صناعة دوائية. وتساءلت: «وهل هناك سياسة لتركيز التصنيع في قطر والاستهلاك في القطرين؟!

بعد فترة زمنية غير طويلة أخبرني وزير الرئاسة بأن عليّ الاستجابة لدعوة من منظمة الصحة العالمية لدراسة مشكلة كفاح الملاريا، وفي المكسيك شبكة رائعة وناجحة في هذا المجال، (علماً بأن الملاريا وباء تمت السيطرة عليه منذ سنوات عديدة، ولا يؤلّف مشكلة صحيّة في أي من القطرين). تفادياً لمشاكل البحث عن دوافع الاعتذار، كما حدث عندما رفضت السفر إلى بولونيا، قبلت الدعوة وسافرت في زيارة للولايات المتحدة أولاً لمدة أسبوعين ثم المكسيك. بعد وصولي بثلاثة أيام إلى نيويورك، زارني مسؤول من شركة (بفايزر) يدعوني للعشاء. وانتقلنا إلى غرفة صغيرة بعد ذلك، يعرض عليّ شراء أسهم في الشركة، مخصصة للمسؤولين في بلاد تعاني من صعوبات النقد وإخراجه. قال: «ما هو عدد الأسهم التي تريد تسجيلها باسمك؟». قلت: «هل هي أسهم للأطباء أم للوزراء؟». قال: «إنّك تمثّل الطرفين معاً، ولذلك فحصتك مضاعفة». قلت: «إنها رشوة. أرجو الاحتفاظ بالأسهم المعروضة لزيارة قادمة بعد انتهاء مسؤولياتي».

اجتمعت في واشنطن بوزير الصحة والشؤون الاجتماعية، وسألني عن تنظيم برنامج للزيارة. أخبرته بأنّي لا أرغب في زيارة جامعات ومستشفيات رفيعة المستوى، ولديّ تصوُّر عن تجهيزاتها العظيمة. وافق على الفكرة، واقترح أن أزور مستشفيات ومستوصفات في (أريزونا) حيث توجد مشاكل صحيّة قريبة مما هو قائم في بلادنا، وكذلك زيارة بعض مستشفيات الشيوخ والمصدورين التابعة لبلديات تعاني الازدحام والموارد المالية المحدودة.

وقبل أن اترك واشنطن دُعيت للاجتماع مع بعض من أعضاء مجلس

الشيوخ الأميركي في نقاش مفتوح. كان عدد الحضور عشرة تقريباً. بدأ أحدهم الحديث الاستفزاي بسؤالي عن ديني أولاً وجنسيتي. ثم أردف: «إنَّكم شيوعيون». قلت: «وكيف قررت ذلك؟». قال: «مسلم سوري.. وزير في حكومة عبد الناصر. أنتم تتلقُّون السلاح من الاتحاد السوفياتي». أجبت بهدوء: «ليس للسلاح هوية ونحن في موقف الدفاع. إن فجيعة الفلاح بجاموسته في مصر أشد وأقسى إذا نفقت من حزنه على فقد ولده. وتعويض البديل عنه ميسور وفي حدود طاقة الوالد، أما تعويض الجاموسة ففوق إمكانياته».

انفجر بعضهم ضحكاً، والآخرون يردِّدون: غير معقول. قال آخر: أوقفوا مشتريات السلاح ونحن نبني بلدكم ونضمن أمنكم.

حديث بين الطرشان، وعبثاً تحاول إقناع الذرائعيين العنصريين.

غادرت واشنطن إلى المكسيك، وشعرت بأنّي في أجواء القاهرة أو دمشق. في أطراف المدينة وحولها وفي الريف بيوت القصب والطين وحمير تجر محراثاً تاريخياً أو مسروقاً من أرضنا. تناقضات صارخة وبؤس حقيقي.

كان مرافقي في جولتي موظف كبير في وزارة الصحة يتكلم الفرنسية، واسترسلت في الحديث أعبِّر عن مشاعري العفوية أمام التناقضات الحادة في الفرز الطبقي الصارخ.

قضيت في المكسيك خمسة أيام، وتلقّيت خلالها برقية من وزارة الصحة والشؤون الاجتماعية في الولايات المتحدة، يعتذرون فيها عن برنامج الزيارة (لأريزونا) وغيرها، والسبب تعذُّر تأمين سلامتي في هذه المناطق!

أعتقد بأن سائق السيارة أو المرافق الطبيب من عملاء الأجهزة إيّاها في الولايات المتحدة، وأنه نقل صورة عن ملاحظاتي الفورية الحارة لما شاهدته، وعليه فقد تقرَّر بأنّي قد أكون خطيراً ولو بأفكار الثرثرة الكلامية.

انتقلت في العودة من المكسيك إلى الشاطىء الغربي من الولايات المتحدة أُتابع الزيارة في كاليفورنيا حيث يمكن للأجهزة الأمنية أن تضمن

سلامتي الشخصية! استقبلني بحفاوة في لوس أنجلوس أستاذ للاقتصاد السياسي يدعى (نيومان)، ورافقني خلال أسبوع. يعرف هذا الأستاذ عدداً كبيراً من زعماء السياسة في منطقة الشرق الأوسط، وله صلات شخصية مع بعضهم أيضاً. أثار السيد نيومان في نفسي شكوكاً، فاتخذت موقف الحذر والتحفظ في أحاديثي. وجّه إليّ دعوة لزيارة (لاس ڤيغاس) بطائرة خاصة ذهاباً واياباً وقضاء ليلة في فنادقها المشهورة عالمياً. اعتذرت ورفضت عند إصراره. وعلى مائدة للغداء مع بعض أساتذة الجامعة، جرى الحديث حول فلسطين، وكنت أتكلم بحماسة، فوجّه لي أحد الأساتذة سؤالاً مرة أخرى: «ما هو دينك؟». قلت: «مسلم». قال: «هذا واضح من اللهجة والاندفاع. أنت شيوعي!». شعرت فوراً بأن الأساتذة لا يختلفون عن السياسيين من أعضاء مجلس الشيوخ، وليست هناك لغة مشتركة يمكن للنقاش أن يستمر معها معقولاً.

بعد انتهاء الجلسة غير الوديّة أخذني أحد أساتذة البيولوجيا إلى مخبره، وقال لي: «كنت محتداً وتهاجمنا لأننا نجهل حقيقة النزاع العربي الاسرائيلي». (كان الصراع العنصري في تلك الفترة محتدماً في الولايات الجنوبية بين البيض والسود) واستطرد: «لو سألتني عن خلفيات هذا الصراع العرقي في جنوبي الولايات المتحدة لأجبتك بأنّي أجهل ذلك، أو بالأحرى ليس لديّ وقت ولا رغبة في معرفة ذلك، فكيف تطلب منّي معرفة جذور مشاكل تقع في عالم آخر بعيد عنّي ألوف الكيلومترات؟».

تلقيت بعد عودتي للقاهرة بأسبوعين مخابرة هاتفية من المستر (نيومان) الأستاذ ذي الصلات السياسية الواسعة. دخل عليّ ملهوفاً، وسألني: «هل أنت مراقَب؟! هل هناك أجهزة تنصُت؟». وبدأ يفحص خلف الباب واللوحات على الحائط، ثم طلب قبل أن يبدأ الحديث أن أرفع صوت جهاز الراديو الذي يصدح بالموسيقى، ويجعل التسجيل بواسطة الأجهزة الخفيّة مشوشاً أو مستحيلاً. أيقنت أنه خبير رفيع الشأن في الأجهزة. بدأ الأسئلة عن أسباب استقالة البعثيين وعن اتجاهات المسؤولين والوزراء بأسمائهم من

سوريين وغيرهم، وذكر أنه يعرف عبد الكريم قاسم في العراق، وأشخاصاً في سوريا. . . الخ. وفور مغادرته الغرفة بدأت بكتابة تقرير للمخابرات المصرية خوف العواقب إذا تهاونت بذلك. وجاءني الجواب بسرعة بأنه عميل معروف ومراقب، وشكراً.

خلال غيابي عن القاهرة أُسندت رئاسة هيئة الدواء لوزير التموين المركزي. أرسلت الهيئة ردّها في أول جلسة بعد سفري بالموافقة على اتفاق تصنيع الدواء الأميركي، ونجحت بذلك مهمة إيفادي للاطلاع على مكافحة الملاريا في المكسيك!

انتظرت أسبوعين، ودُعيت الهيئة للاجتماع وكأنّي في عالم آخر. ذهبت للسيد عبد اللطيف البغدادي نائب الرئيس، وأخبرته بأن سياسة الدواء هي محطة قطاري الأخيرة في رحلة الوزارة، فإذا سحبت منّي فلا داعي لبقائي. وانتظرت الجلسة القادمة ولم يتبدّل شيء. أرسلت فوراً كتاب استقالتي في أربعة أسطر، خلاصته أنّي أرى توفير ما يُنفَق على وزارة لا عمل لها. تردّد علي بعد ذلك عدد من الأصدقاء المصريين يحاولون إقناعي بالاستمرار، وأن الرئيس في سبيله لتبديل النظام. كان من بين زواري رئيس جامعة القاهرة. اقترب هامساً: «سمعت بأنّك قد رفعت استقالتك من الوزارة»، قلت: «صحيح ذلك»، انتفض مستغرباً وأردف: «كيف تفعل ذلك؟! دا أنت وزير فماذا تريد فوق ذلك؟». قلت: «أريد العودة إلى قواعدي المتواضعة وأحتفظ بالبقية من الكرامة». قال: «مش معقول. ما تكون عايز تعمل ريّس؟!». ضحكت مشفقاً، ولم أعقّب. كذلك تفكّر النخبة، تتمسّح بالسلطة التي ترمي لها بالفتات.

وأخيراً صدر مرسوم قبول الاستقالة بشكل خبر من ثلاثة أسطر ينص على قبول استقالة الطبيب بشير العظمة من مهامه ودون ذكرها! وغادرت القاهرة إلى دمشق في ٢٠ آب ١٩٦٠، والأجواء في دمشق توتر وترقب وقصص فضائح.

زارني بعد أيام بعض الزملاء الأطباء يدعمون ترشيحي لنقابة الأطباء

السوريين فوافقت. وتطوّع عدد منهم في نشاط محموم لضمان التأييد، خاصة بعد أن برزت الأجهزة، وقد رشّحت اثنين من الأطباء لإسقاطي. على الرغم من تهديدات هاتفية، وأخبار عن قرب اعتقالي قبل المعركة الانتخابية، وخاصة بعد وصول برقية من نائب الرئيس (عبد الحكيم عامر) يطلب من رئاسة المجلس التنفيذي أن تحول دون انتخابي نقيباً، وأن المعركة سياسية ووراءها الانفصاليون الرجعيُّون، نجحتُ في الانتخاب وتفرّغت للعمل النقابي.

وفي شباط ١٩٦٢، سافرت إلى العراق على رأس وفد سوري نقابي لحضور المؤتمر الطبي العربي. فاجأنا عبد الكريم قاسم خلال أيام المؤتمر بعدة زيارات يلقي فيها خطابات أقرب للهذيان. يلاحظ كل مَن شاهد عبد الكريم قاسم أنه إنسان غير متوازن، تنقلب تعابير وجهه بين لحظة وأخرى من الغضب المتفجّر إلى الابتسامة الطفولية أو الخوف. ومن النادر جداً أن تضيء وجهه ابتسامة راضية. ورغم ذلك احتضنته حركة شيوعية في العراق منظمة، متماسكة، وواسعة الانتشار.

بعد خطابي في افتتاح المؤتمر نزلت إلى سوق قديمة (الصبة). سألني البائع العامل: «هل أنت سوري؟». قلت: «نعم» قال: «بارك الله بخطاب الدكتور فلان ـ ذاكراً إسمي ـ، لم يتملّق الحكام وأشاد بالفكرة العربية والتاريخ والمصير المشترك». قلت: «وهل فهمت عليه يتكلم الفصحى؟». قال: «إنّي متعلم رغم عملي القذر في صهر المعادن وصبّها». قلت: «وهل تقرأ الكتب؟». قال: «إنّي فقير أتعاون مع أصدقاء عددهم عشرة، نشتري الكتاب ونقرأه بالتتابع ونناقش محتوياته في سهراتنا». وفهمت بعد ذلك ان الناشرين، في لبنان خاصة، يوجِّهون للعراق أكثر من نصف مطبوعاتهم، فهي أفضل سوق للكتاب السياسي في العالم العربي.

انتهت الوحدة في أيلول ١٩٦١ بحركة عسكرية هزيلة، كشفت تفاهة الأجهزة ومَن يقوم عليها، وفساد قواعد بناءٍ أُقيم على عجل.

حاول عبد الناصر تحقيق الوحدة بالخطابات والشعارات ونسي في

نشوة أهازيج الجماهير أن المتربّصين الاستعماريين لا يقبلونه إلاّ عميلاً لهم، فإذا تطاول وتحدَّى مصالحهم الحيوية، فإنَّ تفجير الأرض تحت أقدامه غير عسير. وحرب اليمن وحرب عام ١٩٦٧، ليستا أكثر من أفخاخ منصوبة تفجّرت تحت أقدام الذين يستخفون بإمكانيات الأعداء وشراستهم. كان يمكن أن يتم الرضا والرضوخ للزعامة المصرية في مشروعها الوحدوي الكبير لو انطلقت مصر إليه بعد انتصار على إسرائيل. لقد حدث نقيض ذلك تماماً. أيام الهزيمة الكبرى خدعته أجهزته التي تستعرض صواريخ القاهر والظافر... الخ، خدعته مخابراته السرطانية، حتى وصل الداء إلى رأس السلطة التي خلقتها وتعهّدتها.

وبسهولة كبيرة قَلَبَ السادات انجازات عبد الناصر بعد وفاته إلى النقيض الفكري والسلوكي.

واستقبل الشعب المصري بحماسة في شوارع القاهرة حلفاء جلاديه نيكسون وكيسنجر، وقامت سفارة اسرائيل في وسط القاهرة، وارتفعت شعارات في الصحافة والإعلام الاذاعي والتلفزيوني وفي المسارح، تشتم العرب والعروبة، وقد أصبحوا خونة ومتآمرين.

الفصل التاسع

فترة الانفصال
أيلول ١٩٦١ ـ آذار ١٩٦٣

استمرت الوحدة واحداً وأربعين شهراً، وانتهت كما بدأت في سوريا بحركة عسكرية، قام بها نفر من ضباط قصر الحاكم أيضاً.

سمعت بعد منتصف ليل ٢٨ أيلول ١٩٦١ رشقات أسلحة خفيفة وانفجارات أقرب ما تكون لحفلة ألعاب نارية، ومع طلوع الشمس صدر البلاغ رقم واحد.

فُوجئتُ في ضحى اليوم الثاني للانقلاب الحائر بزيارة ضابطين مع زملاء وأصدقاء، يطلبون منّي الاشتراك في الوزارة الجديدة، فرفضت معتذراً.

قام الانقلابيون بتأليف وزارة من ممثلين للغرف الصناعية والتجارية والسياسيين القدامى، ويرأسها مأمون الكزبري.

وتفجّرت منذ اليوم الأول حرب إذاعية بين دمشق والقاهرة، تتبادلان قذائف من الشتائم والاتهامات، وتحركت في الشارع الدمشقي مسيرات هزيلة تبدّل هتافاتها ويافطاتها تبعاً لتوجهات أرقام بلاغات القيادة الحائرة.

لم تحقق الوحدة الآمال والأحلام للّذين تحمسوا لقيامها، وكما اتفقت كلمة جميع الذين اندفعوا لقيام الوحدة، اتفقت مرة أخرى على ضرورة إنهائها.

كانت القوانين الاشتراكية في التأميم القشة التي قصمت ظهر البعير. بدأ

اللغط يدور في أوساط اليمين التجاري الصناعي والمتديِّنين والإخوان المسلمين، يتساءلون: وما نفع مطاردة الشيوعيين إذا كان الحكم شيوعياً يحمل لواء القومية العربية؟!

كان مضمون البيان الوزاري لحكومة الكزبري تعبيراً صريحاً عن توجهات الكتل المختلفة في كل شيء، والمتفقة على ضرورة انتهاج سياسة الانفتاح على الغرب في ديمقراطية ليبرالية، تُنهي التوجُهات السياسية الاجتماعية الاقتصادية لفترة الوحدة.

يؤكِّد عبد الناصر على ضرورة تحرير الفلاح والعامل من الاستغلال والظلم الطبقي، ولم يبتدع هذه الشعارات في فترة الوحدة، بل كانت مطالب جماهيرية للحكومات الانقلابية والمدنية معاً منذ الاستقلال.

دعم الملك حسين في الأردن حركة الانفصال منذ أيامها الأولى، وكذلك فعل عبد الكريم قاسم في العراق، وحاولا الدفاع عن (الضباط الشوام) فاتهمتهما القاهرة بالتآمر على القضية العربية.

لا تحتفظ قواعد الجيش السوري الريفية لهذه الفئة من الحكام العسكريين والمدنيين التقليديين، ولا للملوك والحكّام العرب الداعمين لهم بذكريات طيِّبة، بل أنهم جميعاً متَّهمون بأنهم أعوان وأحلاف للاستعمار والصهيونية.

في جذور الحذر والريبة من الدماشقة أحقاد تاريخية ضد السلطة، تستأثر بها المدينة المزدهرة، كما تستأثر بالثروة والرفاه.

الانفصال انقلاب في القصر. ولما تصدَّى الحكّام لقلب اتجاه وإلغاء مكاسب تحققت، وأخرى بقيت آمالاً ورجاءً في نفوس الكثرة الساحقة.. عندما تصدَّى مجلس الشعب المنتخب، وأكثرية أعضائه من الذين تضرَّروا بالإصلاح الزراعي والقوانين الاشتراكية، لإلغاء القوانين أو تعديلها لصالح المالكين بعد ثلاثة أشهر من الانفصال، فقد ارتكب الخطيئة الكبرى.

صدرت في ظل الوحدة تشريعات تمس حياة الملايين، وأهمّها قانون

تنظيم العلاقات الزراعية الذي يحمي الفلاح من الطرد أو الاستغلال، ويعطيه حقوقاً وظروفاً أفضل للعمل وتعويضات. (يبلغ عدد العاملين في الزراعة من الفلاحين ٥٤٪ من السكان). وكذلك صدر قانون الإصلاح الزراعي، وبدأ توزيع الأرض على المعدمين من العاملين فيها. يضاف إلى ذلك تأميم المصارف والشركات الصناعية الكبرى، إلى جانب هذه المنجزات التشريعية وعود وآمال وأحلام أحياناً بأن الطريق التي بدأها عبد الناصر سوف تُعطي كل مواطن أرضاً وبيتاً وكرامة بتحريره من الاستغلال والحاجة.

انتهى فعلياً مع الانقلابات استئثار المدينة بالثروة والسلطة، والفلاح خلف محراثه يتابع ما يُقال ولو كان أُمِّياً.

تمَّ الانفصال بيسر وسهولة مذهلة، وفي جميع قطاعات الجيش ومراكز القيادة مستشارون ومدرِّبون وخبراء مصريون. تساءل الجميع: كيف نجحت الحركة الهزيلة وتمت جراحة الفصل بين الإقليمين؟!

كيف خضعت فِرق الجيش البعيدة عن العاصمة، لمجرد إذاعة البلاغ رقم واحد، فلم تُقاوم أو تتردَّد، وقادتها ضباط ناصريون معروفون؟!

تحركت مع الانقلاب العسكري القيادات السياسية، وتداعت لاجتماع عُقد في دار أحمد الشرباتي، وصدر بيان عن المؤتمرين الذين يمثلون جميع الاتجاهات السياسية، إلى جانب عدد كبير من كبار التجار والصناعيين.

في البيان الذي صدر عن المجتمعين مناشدة للدول العربية والأجنبية تأييد خطوة الجيش الجبارة؛ وأن ينظر الجميع بجدية وتعاطف مع رغبة وإصرار النظام الجديد الذي يريد إقامة ديمقراطية حقيقية في ظل القوات المسلحة. وكنت من بين الموقِّعين على البيان.

ودعم البيان بعد ذلك كل من شكري القوتلي وفارس الخوري وسلطان الأطرش.

أزعج البيان مزاج عبد الناصر، واعتبره طعنة غادرة من الذين ارتموا في أحضانه قبل واحد واربعين شهراً. وبادر إلى الاعتراف بالكيان السوري

المستقل في الإذاعة والتلفزيون، وقال إنه حريص على أن تبقى سوريا عربية، وليس هاماً أن تبقى إقليماً شمالياً. كلام قومي سليم، ولكن ما جرى في الخفاء والواقع نقيض لذلك، فقد شدّدت الصحافة والإذاعة والتلفزيون حملاتها، تثير الأحقاد بين الضباط الشوام وزملائهم في السلاح مع اتهامات بالخيانة والعمالة والرشوة.

واستمر السلطان المطعون في كبريائه لا يرتوي ولا تنطفىء أحقاده على الذين تطاولوا على المقام ولو أدّى التحريض والتفتيت إلى قيام حرب أهلية.

وفي تشرين الثاني ١٩٦١، أُعلن عن موعد انتخابات لمجلس تأسيسي لإقرار دستور جديد للجمهورية العربية السورية، ورشّحت نفسي للنيابة استجابة لضغوط من المعارف والأصدقاء.

اقتصر نشاطي لدعم نجاحي أنّي طبعت بياناً انتخابياً، ذكرت فيه ضرورة التزام سياسة عدالة اجتماعية، واكتفيت بذلك بل رفضت المشاركة في أي مهرجان جماهيري.

فُوجئت بعد أيام بأنّ اسمي مدرج في قوائم مطبوعة ويافطات عديدة، وتضم عدداً من المستقلين، فأدركت فوراً بأنّها قائمة الأشباح! ولم أُغادر سريري في ليلة الانتخاب، ولم أحضر فرز الأصوات. وكان سروري حقيقياً عندما علمت في الصباح أنّي تخلّفت عن آخر الناجحين بألف صوت تقريباً.

حاربت الأجهزة رئيس الحكومة مأمون الكزبري قبل بدء الانتخابات وبعدها بإطلاق شائعات تتهّم بالرشوة عدداً من ضباط الانقلاب (حيدر الكزبري وفيصل الحسيني)، وتناقلت الأيدي مناشير تتضمن اتّهامات محدّدة بأنّ الحسيني قد قبض ستة آلاف ليرة سورية من الأردن لقاء اشتراكه في عملية الانفصال، والكزبري مبلغاً أكبر من ذلك. وتُذيع محطة صوت العرب ما تتناقله الألسن والشائعات المتداولة والمناشير السريّة، وتُعلق تحريضاً وتهويشاً.

شعر رئيس الوزراء بأنه مستهدف بعد أن أبلغته القيادة العسكرية بأنّ

تقارير الأجهزة تتهمه بالرشوة ايضاً، وطلبت منه الاستقالة إذا كان حريصاً على سلامته الشخصية. وقدّم استقالته قبل الانتخابات.

حصل حزب الشعب على أكثرية مقاعد المجلس التأسيسي، تنافسه كتلة التجار والعلماء والعشائر.

اتفق ضباط القيادة على ترشيح السيد ناظم القدسي رئيساً للجمهورية، واتفق معهم على توزيع المناصب: رئاسة الجمهورية، رئاسة المجلس، رئاسة الوزراء. فانتخب المجلس القدسي رئيساً للجمهورية، ومأمون الكزبري رئيساً للمجلس، وتحدّى القيادة العسكرية فانتخب الدواليبي رئيساً للوزراء.

أبلغت القيادة العسكرية رئيس الجمهورية استياءها الشديد من النتائج، وأنها كانت مخالفة لاتفاق الطرفين، وحذّرت من استلام الدواليبي رئاسة الوزارة.

باشر المجلس نشاطه بتعديل قانون الإصلاح الزراعي، وكان التعديل في حقيقته إلغاءً كاملاً للإصلاح، فقد أصبح بإمكان العائلة الاحتفاظ بستهائة هكتار في مناطق هطول معدلها ٥٠٠ ميلمتر سنوياً. كذلك أُلغي التأميم عن المصارف والشركات الصناعية.

بدأت المسيرات والمظاهرات تحركها أجهزة متستّرة، وتقمعها عصي ورصاص جهات أخرى من مراكز القوى الخفية.

والرأي العام في سوريا مشتت حائر بين ما يسمع من فضائح وتحريض، وما يشاهد من إمعان في إعادة عقارب الزمن، وشطب لمنجزات ووعود عهد الوحدة.

ساءت العلاقات بين الواجهة المدنية من الحكم والقيادة العسكرية التي أوصلتها.

يتخذ القادة العسكريون قراراتهم اعتماداً على تقارير المخابرات، (وصوت العرب)، سوط يشير إلى الطريق الملغوم عسى أن تعيد المؤامرات والتخريب سوريا إلى عهد الوصاية، ويستعيد حكّام القاهرة كرامتهم المجروحة.

وبدأ العسكريون السوريون اتصالات مباشرة، ودون علم الحكومة البرلمانية، مع عبد الناصر. ذهب عدد من قادة الانقلاب إلى مصر يفاوضون على إعادة الوحدة بانقلاب. ونشر بعد ذلك حسنين هيكل في الأهرام ٢٧/ ٤/ ١٩٦٢ مقالاً أقتطف مقاطع منه: ثلاثة ضباط انفصاليين حضروا إلى القاهرة بعد ثلاثة شهور من الانفصال واجتمعوا في بيت الرئيس، بدأوا الحديث بالقول: كرم منكم إن تفضلتم باستقبالنا لأن ما حدث منا قد جرحكم، ونحن نُقسم بأن كل ما حدث لم يكن من أفكارنا ولا في تصورنا!

وبدأ عبد الناصر يسرد أفكاره، ويحدِّد أهدافه، يطلب منهم إعادة الوحدة لتخليص سوريا من اليمين الاستعماري الذي يهدِّدها بالابتلاع! ثم طمأنهم بأنه واقف يساند سوريا اذا تعرضت لهجوم إسرائيلي.

وتعرّض الدواليبي للتهديد في مجلس الأمن القومي، وقدَّم استقالته في ٢٥/ آذار ١٩٦٢.

في ٢٨ آذار تحركوا مرة ثانية، واعتقلوا رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وعدداً من النواب. وهدفهم إبعاد اليمين الانفصالي كما أشار عليهم القائد الملهم. وتحرك جاسم علوان قائد المنطقة الشمالية وأعلن أن سوريا هي الإقليم الشمالي للجمهورية، وكاد يحدث اقتتال بين قطعات الشمال والجنوب، ثم اتفق الضباط على عقد مؤتمر تفاهم في حمص.

كذلك قامت قيادة الجيش بدعوة عدد من العاملين في الحقل السياسي لاقتراح الحلول المناسبة لإنهاء مسلسل الأزمات، فاتخذ المجتمعون عسكريين ومدنيين قرارات تقضي بضرورة الإفراج عن رئيس الجمهورية والوزراء والنواب المعتقلين، وتأليف وزارة مهادنة للناصرية تضم ممثلين عن الأحزاب والكتل السياسية المعتدلة.

في ١٤ نيسان ١٩٦٢، اتصل بي الصديق رياض الميداني أمين عام القصر الجمهوري يدعوني لمقابلة رئيس الجمهورية بعد الإفراج عنه. استقبلني الرئيس بترحاب متحفظ وعصبية واضحة على ملامح الوجه والحركات.

بادرني القول: «طلب مني الاخوان أن أكلفك بتشكيل وزارة معتدلة، وأرجو أن نتفق على المرشحين». قلت: «مَنْ الذي طلب منك وما علاقتي بالموضوع؟!». قال متبرّماً وباستخفاف: «الجماعة». قلت: «لم أفهم». ازداد ضيقاً بما يظنه استعباطاً. تدخل السيد رشاد برمدا، وكان ثالثنا في الجلسة، قال: «ضباط القيادة يريدون أن تقوم بتأليف الوزارة والرئيس يستجيب لطلبهم».

قلت: «ليست لديّ إمكانيات ولا مؤهّلات ولا رغبة في تحمُّل مسؤوليات في الظروف الشاذة القائمة. لم أمتهن السياسة، ولا أعرف السياسيين، وقد عملت وزيراً للصحة واستقلت ولا أريد تكرار التجربة الفاشلة بأسوأ منها».

ارتسمت على وجه الرئيس القدسي ابتسامة استخفاف، واستولى عليه ضيق من الدلال والتمنُّع، وهو السياسي المحترف يقدِّم للدخيل لقب دولة الرئيس، فقال بحدة: «دعنا من اللف والدوران. مطلوب منّي لإنقاذ الموقف تكليفك بتأليف وزارة».

كان جوابي حاسماً وحاداً أيضاً. قلت: «أشعر بأنّك لا تصدّق كلامي. لست أرغب صادقاً ولا أقبل جازماً دخول مغامرة لن أنجح فيها. أؤكّد بأنّي لا أعرف أحداً من ضباط القيادة. لقد دعوني للأركان بعد انقلابهم في ٢٨ آذار، واعترضت خلال حديثي معهم على تحركاتهم السياسية وخطورتها. وقد استاء بعضهم من كلامي وكاد يطلب مني مغادرة المكان».

واستأذنت قائلاً: «أمامك الأستاذ برمدا وهو صديق للضباط سياسي ونائب ووزير سابق».

في اليوم التالي، اتصال هاتفي جديد، ثم لقاء جديد اشترك فيه الميداني وبرمدا مع الرئيس في إقناعي بأن المهمة فترة انتقالية لتهدئة الخواطر، وأن بين مقررات مؤتمر حمص للعسكريين تكليفي بالوزارة، وأن في قبولي تضحية وطنية لا بدَّ من القيام بها.

قبلت التكليف وأقنعت نفسي بأن في ذلك خدمة وفرصة للخلاص الوطني!

اتفقنا أن تضم الوزارة ممثلين اثنين لكل كتلة سياسية معروفة (الحزب الوطني، الشعب، البعث، الاخوان المسلمين)، وأن تكون الغلبة في المجلس للفنّيين المستقلين.

طلب عصام العطار (أمين الاخوان المسلمين) أن تكون حصته ثلاثة وزراء. قلت: هناك مقعدان لكل كتلة سياسية، ولا مجال للمساومة، وعلينا الانتهاء من تشكيل الوزارة قبل الغد لحضور الاستعراض العسكري بمناسبة عيد الجلاء في ١٧ نيسان.

كنت لا أعرف الذين سمّاهم رئيس الجمهورية. رشحت ثلاثة اصدقاء فقط هم أحمد عبد الكريم وصبحي كحالة وإحسان الرفاعي.

بعد الاتفاق النهائي طلب إليّ رئيس الجمهورية أن أرافقه لاستشارة (الجماعة). قلت: «مَنْ هم الجماعة؟!». أجاب بنزق: «أوف ضباط القيادة وهم مجتمعون في دار الضيافة ينتظرون». قلت: «ناظم بك.. لم يُعلن شيء حتى الآن. إنّي بصراحة وصدق أرفض انتداب أو وصاية الجماعة، ولا أعترف إلاّ بسلطتك رئيساً للجمهورية منتخباً».

كان يستمع إليّ وهو لا يصدق ما أقول، وذهب وحيداً إليهم. بعد نصف ساعة تقريباً، أخبرني بالهاتف بأنهم يعترضون على ثلاثة أسماء من المرشحين (أحمد عبد الكريم، صبحي كحالة، روبير إلياس). أجبت بشكل قاطع: «تصرف كما تشاء. لن أتزحزح عن موقفي ولا أقبل بشطب أو تبديل أي اسم ورد في القائمة المتفق عليها». عاد إلى القصر ودفع بالقائمة لتصدر مراسيم تأليف الوزارة في ١٦/ ٤/ ١٩٦٢.

اعتمد رئيس الجمهورية الوزارة تحت رئاسته، تتمتع بصلاحيات تشريعية وتنفيذية، ومعظم أعضائها هواة غير محترفين ولا متمرسين بأصول اللعبة الجديدة.

فرضنا على أنفسنا منذ الجلسة الأولى متابعة العمل يومياً في جلسات طويلة للمجلس لإنجاز ما تراكم من مشاكل وقضايا.

كان بيان الوزارة معتدلاً مهادناً للقاهرة. وعقدت بعد ذلك بأسبوع مؤتمراً صحافياً دُعي إليه مندوبو الصحافة اللبنانية. كانت بيروت مركز الثقل في حركات الناصريين والناقمين على الانفصال.

تجاهلت مواقف الاستفزاز والتحدِّي من قبل بعض الصحفيين المأجورين، وقلت إن الوزارة فريق اطفاء لحريق يكاد يأتي على الأخضر واليابس، في اقتتال إخوة في السلاح، اختلفت آراؤهم بشأن قضية مصيرية هي الوحدة الفورية أو الانفصال والقطيعة.

استقبلت بعد أيام أعضاء السلك السياسي المعتمد في دمشق للتعرف في بهو رئاسة مجلس الوزراء، وتعرضت أيضاً لأسئلة يحاول بعضهم بوساطتها الكشف عن لون وطعم الحكومة. كان من بين الأسئلة الطريفة سؤال من القائم بالأعمال الهندي، قال: «يلاحظ وجود ثلاثة أطباء بين الوزراء، وعدد المجلس ثلاثة عشر عضواً، فهل سوريا في طالع النحس وهي مريضة تحتاج لخبرة أطباء عديدين؟». قلت: «رقم ثلاثة عشر للتحدِّي، ويؤكِّد وجود ثلاثة أعضاء أطباء داخليين غير جرّاحين بأنَّ سوريا لا تحتاج إلاَّ لعناية دوائية ونقاهة من الوعكة».

تابعت بقلق بالغ ومنذ الأيام الأولى لتأليف الوزارة ملازمة العسكريين لرئيس الجمهورية، يجلسون معه ساعات ويناقشون ويطالبون.

حاول الرئيس أن يشركني في جلسات طعام الغداء على مائدته بوجودهم وفي فترات غير نادرة. كنت أعتذر دائماً، وأعترض على تكرار هذه الاجتماعات، وأُصارح الرئيس بضرورة قصر صلاتنا بضباط القيادة على اجتماعات مجلس الأمن القومي.

بقيت صلاتي بالضباط خلال الأشهر الخمسة من الوزارة في حدود الأدب واللياقة والحذر.

لا أعرف بالاسم أكثر من خمسة منهم، وأُنادي الآخرين بالرتبة رغم اجتماعي بهم مرة كل أسبوعين تقريباً في مجلس الأمن القومي.

وقد يكون وراء شجاعتي الكلامية أنّي لم أعرف طوال حياتي النظارة أو الاستجواب أو الزنزانة بالحق أو الباطل على السواء.

بعد شهرين من تشكيل الوزارة، رفعنا الرقابة عن وسائل الإعلام، وبدأت الأقلام المكبوتة، والمسمومة أحياناً، تحاول اختبار صدق توجهنا في حرية التعبير، فبدأت تجرب سلاحها بالوزارة، وبرئيسها، أضعف حلقات الحكم القائم، لا تحميه كتلة أو حزب أو جماعة.

راجعني وفد من الصحفيين يقولون إنّهم اعتادوا قبض مستحقات لهم من رئاسة مجلس الوزراء بمناسبة الأعياد. قلت: إنّها مخصَّصات لإسعاف المحتاجين والمنكوبين في الطوارىء والصحافة الحرَّة لا بدّ وأن تحافظ على كرامتها غير منقوصة. قال واحد منهم: «ليس من مصلحتك خرق التقاليد والقواعد». فهمت الرسالة المبطَّنة، وأجبت: «تأكّد بأنّي أشعر بالرضا وأنا أقرأ النقد، ولن أشتري السكوت عنّي بأموال الخزينة العامة».

أضحك بعد ثلاثين عاماً من المثاليات والسذاجة، تُطرح للتداول في مستنقع الغدر والخيانة والتآمر.

كنت أُطالع صباح كل يوم تقريراً يُوزع على أعضاء مجلس الأمن القومي، تقوم بتحضيره المخابرات العامة، ويتضمن خلاصة مكثفة لما يُشاع ويُقال، أو يلخّص توجهات الرأي العام كما تراها أجهزة الأقبية الراصدة.

هدف التقرير غير المعلن تثبيط وترويض وتوجيه القيادات المدنية والعسكرية معاً لما تريده الأجهزة الملغومة. يقول التقرير مثلاً: حديث قهوة البرازيل ان فلاناً وفلاناً من الوزراء أو العسكريين شيوعيون، أو لهم صلات بالملك فلان أو أنهم قبضوا... الخ، ثم حديث الأندية والمجالس يؤكّد كذا وكذا... تفاهات ودسائس مفضوحة. لم أوفّق في تبديل شيء من ذلك رغم إصراري وتأكيدي على ضرورة الارتفاع عن مستوى التهديد المبطّن.

وإليكم صوراً كاريكاتورية لمدى سلطات رئيس الوزراء:

راجعني بعض الأطباء بشأن زميلة تزوجت في بيروت من عضو في الحزب الشيوعي اللبناني وتوفي زوجها، وقد منعها مخفر الحدود من العودة إلى بلدها. أخبرت العميد السمّان رئيس جهاز الأمن الداخلي والخارجي، ووعدني بإنهاء الإشكال فوراً، ولم يفعل.

كذلك جرى مع وفد من المعلمين المسرَّحين أيام الوحدة، فقد اتخذنا قراراً في مجلس الوزراء بدراسة أضابيرهم، وإعادة الأبرياء الذين سرّحوا بسبب معتقداتهم السياسية كما تحدِّدها تقارير الدس. اتصلت برئيس الجمهورية واتفقت معه على أن يتوجّه الوفد إلى القصر الجمهوري ليستمع إليهم. بعد دقائق من مغادرتهم السراي، وعلى بعد أمتار من رئاسة مجلس الوزراء شاهدت من نافذة غرفتي عصي الشرطة تلهب ظهورهم بدعوى التجمهر والتظاهر الممنوع قانونياً!

اعتكفت في الدار ثلاثة أيام متمارضاً، وأخبرت الرئيس بأن يتدبّر أموره وأنّي مستقيل. زارني أربعة من ضباط القيادة، وسردت عليهم ما ذكرت مع العديد من الحوادث التافهة من تصرفات الأمن، وتحديات العميد المعتمد مفوضاً سامياً مشرفاً وموجهاً للوزارة. عادوا الى مجلس الديمقراطية العسكرية. ويبدو أن استبدال العميد السمّان لم يحصل على أكثرية المقترعين بينهم، وعدتُ إلى العمل بعد أن أدركت بأنّ الوضع في الجيش ليس بأفضل من واقع الساحة السياسية.

عرض عليّ العميد المعتمد شراء سيارة جديدة لرئاسة مجلس الوزراء. رفضت الفكرة قائلاً إنّي في مهمة موقوتة، وتعطّل السيارة العتيقة حادث طارىء، واستيراد السيارات ممنوع. لم تكن مواقف الزهد والأمثولة كافية لتمنع قائد قوى الأمن بعد أسبوع من شراء سيارة من بيروت وإيقافها أمام باب السراي في انتظاره، تتحدّى مَن لا يعجبه ذلك.

كان الفريق زهر الدين في وضع مع العسكريين لا يختلف كثيراً عمّا أُعاني في التعامل والصراع مع جميع الأطراف.

انتخب زهر الدين قائداً للجيش بالاتفاق بين الأجنحة والنجوم بعد أن احتدم الصراع الحاد بين الطامعين. كان ضابطاً إدارياً، ولم يُمارس قيادات ميدانية في سلاح الدبابات أو الطائرات أو الوحدات المقاتلة.

قوة ضباط القيادة بما يحركونه من الأسلحة الاستعراضية في ميزان الهجوم والدفاع، فديمقراطية العسكر هي في مقياس عدد فوهات البنادق والمدافع والصواريخ التي يتحكّمون بها.

تمَّ انتخاب الفريق زهر الدين لقيادة جيش لا يمكن لقائده أن يدخل معسكراته إذا لم يُسمح له ضباط الألوية بذلك، فهو مثلي أيضاً حلّ توفيقي موقت بانتظار ان تواتي الفرصة أياً من المتربّصين أو جميعهم بالتناوب.

بصدق وصراحة، كان الفريق زهر الدين كما تعاملت معه إنساناً مدركاً وواقعياً يعرف حدوده. أحيلت إليّ معاملة شراء سيارة مستعملة باسم الفريق، ولاحظت أن القيمة غير حقيقية، فاتصلت به وقلت: «لست أرضى لك صفقة مشبوهة فهل تصر على إتمامها؟». أجاب: «تصرف كما تعتقده صحيحاً». ورفضت الموافقة.

وكذلك رفضت قيادة الأجهزة السماح بدخول بكداش، وأعادته من حيث أتى رغم الإعلان عن تطبيق إجراءات ديمقراطية في السياسة والاقتصاد والإعلام.

وإليكم طرفة ذات دلالة جرت في تلك الأيام:

دخل غرفة رئيس الجمهورية في قصر المهاجرين الرسمي نهاراً بائع خضار يسأله أين يفرغ سحارة خضار يحملها على كتفه. وبعد استجوابه تبيَّن أنه قد أخطأ العنوان. لم يوقفه أو يسأله حارس أو آذن أو حاجب حتى بلغ مكتب رئيس الجمهورية في الطابق العلوي من القصر.

والخلاصة: عزمت أن أكمل المشوار رغم يقيني بأن المريض الذي نعالجه بالمسكنات مصاب بفالج لا تعالج، وأن الألغام تحاصره وتمنع أي تصرُّف صحيح أو وطني.

توجهت الوزارة ببيان إذاعي بتاريخ ١٩٦٢/٦/٥، تحدّد الخطوات الضرورية لقيام وحدة قابلة للعيش والاستمرار. لم يتنازل حكام القاهرة بالرد على البيان، ثم طلع حسنين هيكل بمقال في جريدة (الأهرام) بتاريخ ٦/١١ خلاصته أن الوزارة السورية غير صالحة للمباحثات الوحدوية. تريد القاهرة حكومة تعبّر عن ارادة الشعب السوري وإيصال حكومة سورية صالحة ومقبولة متروك للشعب.

توجه مجلس الوزراء باقتراح للزعامات السياسية المحلية لتشكيل لجنة من العاملين في الحقل السياسي، تناقش وتتخذ القرارات المناسبة في موضوع الوحدة. لم تتجاوب مع النداء الموجّه للزعماء إلاْ أقلية غير كافية للمضي في الخطة المقترحة.

تعرّضتُ شخصياً ومنذ تأليف الوزارة لضغوط مستمرة للسفر إلى القاهرة سراً والتفاوض والتفاهم مع المسؤولين لإنهاء الصراع بين القطرين.

رفضت بشدة العمل في الظلام، فقد تابعت باشمئزاز وشعور بالمهانة كيف كانت تستقبل القاهرة وفود الضباط أو السياسيين الذين يسعون لديها طالبين الرحمة والغفران.

وأمام الأبواب المسدودة خارجياً وأجواء التفتت والانحلال داخلياً، انطويت على نفسي يائساً من إنقاذ أي شيء والسفينة تتلاعب بها الأهواء الشخصية والمؤامرات من الأشقاء والأعداء على السواء.

■ الأسابيع الأخيرة

لم أُعارض سفر وزير الخارجية عدنان الأزهري الذي أوفده رئيس الجمهورية بعد أن رفضت الامتثال لإلحاحه عليّ في السفر إلى القاهرة. قابل هناك علي صبري، وعاد يؤكّد عدم رغبة القاهرة في إجراء أية مفاوضات إلاْ مع حكومة تعلن التوبة وتطلب المغفرة. استقال الأزهري، وعزمنا على إنهاء السعي لمصالحة القاهرة، وكذلك تجنب إثارتها بالرد الإذاعي.

وتحركت مطامع الضباط والسياسيين معاً، لملء الفراغ، وازدادت

مواجهات التحدي للحكومة، خاصة بعد السماح لصحف القاهرة بدخول سوريا. لا يمكن أن تكون الصحف أسوأ أو أكثر إثارة من الإذاعة التي لا تستأذن في العبور من مخافر الحدود. اشتد نقد العسكريين في مجلس الأمن القومي لحرية الصحافة، ثم للسماح بدخول المطبوعات المصرية.

تحدّى العسكريون وزير الإعلام، فصادرت المخافر على الحدود المطبوعات المصرية، كما صُودرت الصحف السورية قبل توزيعها إذا كان فيها ما يزعج مزاج الحكّام الأشباح.

استقال وزير الإعلام ووزير الداخلية، وهما يمثلان جناح البعث في الوزارة، وجرت محاولات لإقناعي بالاستقالة أيضاً وإنهاء الوزارة.

زارني في هذه الفترة أحد أبناء العمومة، ممن أعرف صلاته مع جهاز السراج والسفارة المصرية في بيروت، وعرض عليّ أن أستقيل متضامناً مع وزراء البعث.

الخلاصة: حاول ابن العم الموفد إقناعي بأن استقالتي موقف وطني قومي يستحق التقدير! فلما شرحت له الأهداف التخريبية وراء هذا الطلب، كشف أوراقه، فقال: «إنَّ القاهرة مستعدة لضمان مستقبلك برصيد رقمه على بياض في مصرف سويسري». وصمَّمت على الاستمرار رغم أجواء التكالب والتهافت بين المستوزرين المستعجلين.

دوافع الراغبين في استقالة الوزارة متناقضة تناحرية. يرى جناح صلاح البيطار بأنَّ تدخل العسكريين في القرار المدني بشأن حرية الصحافة لا بدَّ من أن يُواجَه بحزم. والسؤال: وماذا بعد ذلك؟

يريد جناح أكرم الحوراني إنهاء الوزارة لتوجهاتها الكلامية الوحدوية الناصرية.

وإليكم واقعة أثارت نقمة هذا الجناح:

زارني بعد شهرين تقريباً من تأليف الوزارة مندوبان لوكالتين للصحافة العالمية. كان من بين أسئلة أحدهما: «ما رأيك بتصريح السيد أكرم الحوراني

يؤكد فيه أن عبد الناصر عميل أمريكي؟» قلت: «لا يجوز اتهام الآخرين بالخيانة لمجرد اختلاف وجهات النظر والمواقف، وإنّي أعتقد رغم خلافاتنا بأنه زعيم وطني عربي صادق».

وثارت حملات في صحف اليمين واليسار معاً تهاجم رئيس الوزراء الذي يُعطي شهادة حسن السلوك لسيده الزعيم.

يريد الناصريون استقالة الحكومة لأنها وزارة تمييع لفكرة الوحدة الفورية والانقلابية، فهي يمين انفصالي وعميل للرجعية. وكذلك تريد الفعاليات الاقتصادية (تجار وصناعيون) وأكثرية أعضاء مجلس القيادة العسكرية، يريد الجميع الخلاص من الحكومة، ولكل منهم أسبابه الخاصة.

الحكومة في نظر الإخوان المسلمين انفصالية يسارية بل هي شيوعية في إجراءاتها، تسعى لإرضاء عبد الناصر وتملّقه، كما كان يُؤكّد ذلك زعيم الإخوان في خطب الجمعة من مسجد جامعة دمشق. أعادت تأميم الشركة الخماسية وتوسعت في تطبيق الإصلاح الزراعي كما أنها تهادن القاهرة وتسمح بصحفها.

وأخيراً انتهى رئيس الجمهورية إلى قناعة بضرورة الحسم بالعودة إلى المجلس النيابي وشرعية الانتخابات (عام ١٩٦١).

وبدأ يتحرك بحذرٍ خوفَ إثارة عناصر من قيادة الجيش، واجتمع مرات عديدة بعدد من نواب المجلس وعلى رأسهم السيد خالد العظم رغم أوضاعه الصحية غير المشجعة.

كشفت المخابرات السورية خلال ذلك عن مؤامرة تدبرها السفارة المصرية في بيروت، وتمّ الكشف عن تفصيلاتها في أحاديث مسجلة على أشرطة من قبل المخابرات السورية المندسة في الشبكة السورية المصرية.

في هذه الأجواء الحالكة، دعي مجلس الأمن القومي لجلسة طارئة، وموضوع البحث شراء سرب من الطائرات الليلية المقاتلة، وكانت حماسة العسكريين شديدة وهم يشرحون ضرورتها للهجوم والدفاع.

احتدم النقاش في مجلس الأمن القومي بين رئيس الجمهورية والعسكريين وأنا متفرج. التفت الرئيس وقال بحدة: «ما لك ساكت؟ ما رأيك؟». بدأت محاضرة أشرح فيها معنى الوطن والإيمان والتضحية من أجله، وقلت: «لا يمكن لإنسان عاقل أن يقبل طواعية ببذل دمه مجاناً من أجل دوام بؤسه». وذكّرت الحاضرين بما شاهدناه في قرية على الحدود قبل أسابيع بمناسبة تمرين عسكري.

خلاصة القصة هي أنّي رجوت رئيس الجمهورية وضباط القيادة دخول قرية من أهل (القاع) قريبة من ساحة المناورة.

تتألف القرية من عشرات البيوت الأكواخ وتقع في هضبة الجولان على حافة الجرف المطل على سهل البطيحة السوري. التوقيت قبل الغروب لنهار حارق من شهر آب ١٩٦٢. دخل أصحاب الألقاب والأوسمة أزقة ضيقة غير مرصوفة رتلاً، لا تتسع الحارات إلاّ للفرد وراء الآخر. على وجوه الجميع تعابير القرف والضيق، وعلى الأنوف مناديل بيضاء، تخفف من الروائح غير العطرية المتصاعدة من روث البهائم والبشر معاً.

ومن المواقد الحجرية على الطريق يتصاعد دخان نار الجلة (روث البقر المجفّف). دخلنا أقرب دار تتألف من غرفة واحدة فيها حصير خشن عليه عدد من الصغار ويضيىء الغرفة ليلاً ونهاراً سراج زيتي.

يقود الرتل صراخ الأطفال المذعورين وأسراب الذباب والناموس وهم حفاة نصف عراة. لم نصادف في القرية إلاّ النسوة والأطفال والعاجزين من الشيوخ، فالشباب وراء لقمة العيش في أقصى الشمال في موسم الحصاد.

لم يكمل المشوار من أصحاب الألقاب والأوسمة سوى أربعة أحدهم ضابط، أمّا الباقون فقد انسحبوا وضاقوا بالعبث من فكرة الزيارة الصبيانية.

أثار دخولنا القرية الذعر والتساؤل، ووقفت النسوة متحفزات، تحمي كل منهن أطفالها، يلتفون حولها مذعورين. لا تدخل السلطة القرية راجلة، لا تدخلها صديقة أو للسياحة والدراسة، لا تهبط السلطة إلاّ للجباية أو

الاعتقال. وعليه، فقد سمعنا وتكراراً صراخ: يا ساتر! خجلنا من أنفسنا ولم نسأل: وكيف تقضون أمسياتكم؟!

السراج لا يضيء التلفاز، وما نفعه والمشهد على حافة الجرف نيّر وميسور مجاني؟

الأنوار الكاشفة والشوارع المضاءة وبحيرات السمك والمسابح والمداجن، تكفي مشاهد هذه الحياة الصاخبة في السهل سلوى للسارحين مع الأسى والأحلام! في الدار الوحيدة التي دخلناها، يعلو صوت الترانزستور، الأداة الوحيدة للصلة اليومية الوثيقة بينهم وبين العاصمة، يسمعون منها أناشيد الحماسة للوطن وضرورة التضحية والفداء!

وخلصت من ذلك أؤكّد بأن الجيش وسلاحه رأس الحربة في الدفاع عن الوطن، وتبقى إرادة وتصميم جميع المواطنين المستند الحقيقي للصمود أمام الغزاة والطامعين بأرض الوطن. فالمواطن الذي لا يملك أرضاً ولا بيتاً، لن يتأخّر عن البحث عن سلامته وأهله إذا هدّد العدو أو الوباء أو الجفاف سلامتهم، يبادر فيجمع تحت إبطه أو فوق دابته ما يتصرف به من بقايا شواهد بؤسه من أثاث أو مؤونة.

والانتقال من الكوخ المظلم إلى الخيمة تبديل شكلي وغير خطير.

أنهيتُ الحديث الموعظة بأنّ تحسين الظروف المعاشية الانتمائية لقرى الحدود وسكانها جزء رئيسي وبديهي من خطة الدفاع، ولا تكفي الحماسة والأغاني بديلاً عن ظروف مادية مقبولة.

وأخيراً وليس آخراً: في الخزينة مليون واحد من المبلغ المطلوب وهو اثنان وثلاثون مليون ليرة بالقطع الأجنبي. وانتهت الجلسة بقناعة الحضور أو بسكوتهم.

أخذني الرئيس القدسي من يدي بعد الجلسة إلى غرفته الخاصة، وقبّلني، قال: «اعذرني، فقد عاملتك طيلة الأشهر الأربعة الماضية، منذ أن تعارفنا، كإنسان غامض وقد تكون متواطئاً. إنّها المرة الأولى التي يقف فيها

رئيس وزراء مدني ويقنع العسكريين بعدم جدوى تكديس المزيد من العتاد الضروري وغير الضروري. تعرضّ رئيس الوزراء قبلك لطلب مماثل فكان جوابه: الجيش نفديه بأرواحنا ثلاثون مليوناً غير كافية، ولماذا لا نتدبر ولو بالقروض ستين مليوناً للدفاع عن الكرامة؟».

في شهر تموز ١٩٦٢، قرّر رئيس الجمهورية وقائد الجيش القيام بزيارات للمحافظات في مسلسل مهرجانات وخطابات لكسب التأييد ودعم الجبهة الداخلية. طلب منّي الرئيس مرافقته فاعتذرت، ذلك أنّي كنت قد بدأت العد العكسي وأنا أُتابع من دون اهتمام نشاط رئيس الجمهورية مع النواب.

تضمَّن خطاب عبد الناصر في ١٩٦٢/٧/٢٦ هجوماً مركزاً على الحكم في سوريا، ووصف سوريا بالإقليم الشمالي للجمهورية، وكأنّه قد كتب خطابه، ولم يصحِّحه، قبل الكشف عن المؤامرة الانقلابية.

وقرَّرت الوزارة بالاجماع تقديم شكوى عاجلة لمجلس الجامعة العربية، وانعقد مؤتمر شتورا، فسادته أجواء مهاترات ومشادَّات غير مهذبة، وتحركات للأجهزة خلف الكواليس غير معقولة ولا مقبولة. وانفضَّت الجلسات في جو تبادل الشتائم والاتهامات، وبقيتُ قبل وأثناء المؤتمر متفرجاً بعيداً عن الساحة.

أراد رئيس الجمهورية التعرُّف على موقف الجيش من مساعيه لمحو آثار حركة ٢٨/ آذار ١٩٦٢. فدعا لحفلة غذاء، وطلب من قيادة الجيش دعوة كافة عناصر القيادة ومدراء الإدارات العسكرية إلى مؤتمر عام للديمقراطية العسكرية. كان مجموع المدعوين ستين عسكرياً أطلعهم رئيس الجمهورية على عريضة للنواب الذين استقالوا بعد ٢٨ آذار بعد أن حلَّت القيادة العسكرية مجلسهم، واعتقلت رئيس جمهوريتهم ورئيس وزرائهم وعدداً من زملائهم. تُطالب العريضة بإعادة المجلس النيابي إلى شرعيته، والسماح له بالانعقاد في جلسة واحدة فقط يحلّ فيها نفسه بصورة قانونية.

وتأكيداً لعدم شرعية حلّ المجلس في انقلاب ٢٨ آذار، لم يهمل

النواب الإصرار على ضرورة أن تُدفع لهم رواتبهم عن فترة تعطيل المجلس عن عقد جلساته.

واجتمع مجلس القيادة العسكرية يناقش عريضة النواب. بدأ أصغر الضباط رتبة بالإدلاء برأيه، وأجمعوا على ضرورة بقاء الوزارة القائمة وعدم جواز عودة المجلس النيابي للانعقاد. ومن طرف آخر اجتمع مجلس النواب المنحل بأكثرية أعضائه، واتّخذ قراراً بحل نفسه، وأجمع على تكليف السيد خالد العظم ليرأس الوزارة الجديدة.

دعاني إلى الأركان قائد الجيش وبعض ضباط القيادة يتداولون في الأوضاع، ويصرُّون على ضرورة بقائي، وأن بإمكانهم مواجهة تحدّيات رئيس الجمهورية ومناورات خالد العظم. أقنعتهم بخطورة أية محاولة انقلابية جديدة، وأن التضحية والقبول بالتوجه الديمقراطي واجب وطني في الظروف الإقليمية والعالمية القائمة.

وتقدمت في ١٣/٩/١٩٦٢ باستقالتي إلى رئيس الجمهورية.. أي بعد خمسة شهور تقريباً من العمل في أجواء الخداع والمؤامرات.

■ في الأمم المتحدة

انطلقت خفيفاً أتلفت ورائي بعد كتابة رسالة استقالتي، أكاد لا أُصدّق بأنّي خرجت إلى داري من دون توقيف ولو لأسابيع في سجن المزة، ومن دون أن أسمع تحت نافذتي تهم الخيانة والعمالة كما تقضي العادة والأعراف.

لم تكتمل سعادتي ولم تدم سوى ساعات. فقدت سمعت من الإذاعة مساءً خبر تأليف الوزارة الجديدة، وقد ورد اسمي نائباً لرئيس مجلس الوزراء من دون استشارة أو سؤال.

عجب البعض كيف خرجت منها سالماً كالشعرة من العجين، واتفقوا على أنّي لا أزال صالحاً للاستعمال في التستُّر على المقاصد الحقيقية للوزارة الجديدة والتي تريد العودة إلى أجواء مؤتمر التشهير والشتائم العلنية في شتورا.

سارعت الى القصر الجمهوري أعتذر عن الوظيفة الجديدة. فأكّد رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء وجود ضرورة وطنية ملحّة لبقائي وأني لا أزال صالحاً للاستعمال، ولو لفترة أقضيها رئيساً لوفد سوريا في الأمم المتحدة، وأن وجودي إشارة تؤكّد استمرار سياسة المهادنة بين المتناحرين داخلياً وعربياً، وأنهم يأملون من ذهابي للأمم المتحدة أن أُوفّق فيما فشلت به رئيساً لمجلس الوزراء عساني أنهي الخصام مع المصريين.

حضرت في دمشق عدة جلسات لمجلس الوزراء قبل سفري إلى نيويورك، وقد ذُهلت للأجواء السائدة في هذا المجلس. صراع مكشوف وتناحر بين مختلف اتجاهات المشاركين في الوزارة، بين الإخوان المسلمين والاشتراكيين، بين الوطنيين والشعبيين، بين عسكريين ومدنيين، بين رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء. يتربّص الجميع بالجميع، ولا سيطرة للرأسين، يتنازعان بشدة في كل شيء وعلى كل قضية مهما كانت ثانوية.

الأجواء في الشارع الدمشقي أسوأ من ذلك أيضاً، فقد انطلق المارد الشيطان:

إضرابات عمالية وطلابية، وإضراب للمعلمين، ومظاهرات صاخبة، وصدام يومي مع أجهزة الأمن وضحايا.

لعب السيد خالد العظم دوراً رئيسياً في الساحة السياسية أيّام الانتداب وبعد الاستقلال. كان يتمتع بسمعة طيبة كسياسي مثقف لامع. رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية ينافس شكري القوتلي ولم يُوفّق. كان هاجسه، كما يلاحظ كل من يتابع سيرته السياسية، الوصول الى كرسي رئاسة الجمهورية. وبقي يستهدف المنصب الرفيع رغم التبدلات الكبيرة في الظروف المحلية والعربية. اشتهر عنه لقب (المليونير الأحمر)، فقد كان منفتحاً في سياسته الخارجية، وله صداقات واسعة مع اليمين واليسار الوطني في سلوك ليبرالي ديمقراطي حقيقي بينما يدافع ويتعصّب في سياسته الداخلية لدمشق، ودعامته الانتخابية الحقيقية الفعاليات الاقتصادية التجارية الصناعية فيها. كان صاحب القطيعة بين الاقتصادين اللبناني والسوري، وقد أنعش بذلك المستوردين السوريين

والصناعات الحرفية الصغيرة والكبرى على السواء، واعتمد الحماية الجمركية لإنعاش الصناعة والتجارة الوطنية، ورغم إيمانه بالليبرالية الاقتصادية والسياسية، فقد كان يرفض التبعية في مشاريع احتواء القطر والمنطقة ضمن أحلاف المعسكر الغربي، حريصاً على الاستقلال الوطني.

لا يعاديه اليمين الديني، ويعتبره اليسار الشيوعي وطنياً منفتحاً وليبرالياً مقبولاً.

عرفت هذا الانسان في فترة متقدمة من عمره السياسي والجسدي أيضاً. لم يشعر ولم يتصرف خالد العظم كما أعتقد، من منطلقات اختلفت مع تبدُّل الزمن والمجتمع. لقد نسي أو لم يستوعب التحولات الكبيرة والتبدلات التي تمت منذ أول انقلاب للجيش عام ١٩٤٩.

باختصار، عاد خالد العظم رئيساً لمجلس الوزراء، وأسقط من حسابه تحولات كبيرة تمت خلال خمسة عشر عاماً من الزمن، فقد استمر يطمح أن يصل إلى كرسي الرئاسة الأولى محطة أخيرة قبل رحلة النهاية، وقد تجاوزه الزمن صحياً وسياسياً أيضاً.

إنَّه يمثّل في الحقيقة نقيضاً كاملاً لكل ما يمثله عبد الناصر وتوجهاته وشعبيته. ولا يمكن للجيش بكتلته الريفية جنوداً وضباطاً، مارست بمتعة وطموح لعبة الانقلاب وأتقنت أسلوبها.. لا يمكن أن يقبل الجيش المسيطِر على مقدرات البلاد منذ الاستقلال تقريباً، يبدِّل الحكومات واتجاهاتها، يصنع الوحدة وينهيها.. لا يمكن أن يقبل بيسر وسهولة عودة الدمشقي السياسي العريق حاكماً لسوريا وهو يجسِّد كل ما استهدفته الانقلابات.

لم يجزع خالد العظم أو يتردّد في إعلان استنكاره للانقلابات. كما أنه لم يُشاهد بين المتدافعين الذين ينتظرون الإذن بالدخول على الانقلابيين للتعبير عن اعجابه بهم واستعداده للخدمة لديهم. لقد وقف وحيداً تقريباً بين جماعة من السياسيين ينكر الأسلوب الذي تمت به الوحدة، ويستنكر إجراءاتها في الإقليم السوري.

كان خالد العظم رمزاً لكل ما يمكن أن يستهدفه الجيش، وينعم مسروراً بتحطيمه أو تخطيه، ينهي بذلك صورة الأرستقراطي ابن دمشق المنعم المدلّل المترفّع.

زارني وأنا رئيس لمجلس الوزراء، يريد أن يتأكّد بنفسه من صحة عزيمتي على الاستقالة. كان بالتأكيد لا ينظر إلى وجودي السياسي العابر إلاّ على أنه بداية يحسن إجهاضها.

أعاد سؤاله مرات عديدة وبصيغ مختلفة، يريد الكشف عمّا يتصوّر أنّي أخفيه تحت عباءة الزهد الفضفاضة. قلت: «خالد بك بصدق وصراحة. إنّي لست متمرساً بلعبة السياسيين ولست مؤهلاً ولا راغباً في أي منصب. وإليك هاتين القصتين عساك تقتنع بعدها بصدق ما أقول:

«زارني منذ ثلاثة شهور وأنا رئيس لمجلس الوزراء مدير البنك المركزي، وقد ألّف مع رفاقه وموظفي المصرف جمعية هدفها إنشاء ناد في الحديقة الواقعة خلف بناء المصرف (كانت أرضاً خلاء قبل بناء رئاسة مجلس الوزراء والأبنية الأخرى القائمة حالياً). يريد من الحكومة أن تقدم هذه الأرض المستملكة بإيجار رمزي للنادي الخاص في وسط العاصمة. يقولون: وهل يعقل أن لا يكون في دمشق العاصمة ناد للخاصة من النخبة يقضون أيام راحتهم مع عائلاتهم على غرار نادي الجزيرة في القاهرة؟!

قلت جواباً على الطرح المغلوط في رؤية الوطن من خلال مصلحة المدينة، وحقها في التميز والاستئثار: أقام نادي الجزيرة في القاهرة البريطانيون المستعمرون لضباطهم ومستشاريهم ومن يتفضّلون عليه ويشرّفونه بإهدائه بطاقة عضوية النادي، من الراكضين في ركاب المستعمر من المصريين. جرى ذلك في مطلع القرن العشرين وكان محرماً دخول النادي على المصريين من غير أعضائه، مهما كانت درجتهم في السلم الاجتماعي.

ألا ترى أنت ورفاقك بأن الزمن قد تبدّل بل انقلب تماماً في النصف الثاني للقرن العشرين؟! أن تستأجروا أرضاً بسعرها الحقيقي تقيمون عليها ناديكم الخاص، أمر قد يكون جائزاً! أمّا أن تختصكم الدولة بأرض لها، أو

بإيجار رمزي فهذا غير وارد إطلاقاً. تركني ورفاقه الدمشقيون يتساءلون عن دوافع الدمشقي العتيق الذي ينكر حق مدينته العاصمة في مزيد من الرفاه، والسؤدد!

القصة الثانية: عرض أمين العاصمة مشروعاً لإعفاء مئة سيارة للنقل العام تستوردها أمانة العاصمة. قلت إن بإمكان موارد ميزانية العاصمة الكبيرة الضخمة أن تشتري سيارات وتدفع عنها الرسوم الجمركية المستحقة للخزينة العامة. الإعفاء بمرسوم هبة من الخزينة للمدينة المتميزة التي تنعم بمستوى مختلف عن جميع مدن وقرى القطر. توافق الوزارة على الإعفاء لمصلحة سيارات نقل عامة، تُوزع على جميع مدن القطر بحسب عدد سكانها.

لقد تعرّضتُ بسبب هذين الموقفين للنقد الشديد من الصحافة الدمشقية والأوساط البرجوازية. إن مَنْ يطمح أو يخطط للاستمرار في العمل السياسي، لا يثير شكوك أو حفيظة الأوساط الفاعلة في مدينة هو من أبنائها.

ولا بدَّ له ولضمان نجاحه في العمل السياسي، من أن يحتاج إلى كل هؤلاء في انتخابات محتملة قادمة».

استمع خالد بك للكلام، وكنت واثقاً بأنه لم يدرك ويصدِّق ما سمعته أُذناه. ذلك أنه بعد أسابيع من رئاسته لمجلس الوزراء تقدم بمشروع لإقراض أمانة العاصمة مبلغ خمسين مليون ليرة سورية لتجميل العاصمة وبناء مسرح (أوبرا) يليق بالعاصمة العظيمة! وأصرَّ على طلبه رغم اعتراضات من جهات عديدة، خاصة وأن الخزينة خاوية على عروشها، وتعاني سوريا من عزلة سياسية اقتصادية شديدة.

لم تتبدّل القرية منذ قرون عديدة، وكذلك لم تتبدّل العلاقات الاقتصادية الاجتماعية بين المدينة التاجرة والقرية المنتجة. والدولة دائماً تحابي المدينة على حساب الريف، ضماناً لمصلحة الحكّام، تداري ثقل المدينة السياسي، وليس للقرية المتخلّفة أي وجود يوازن ثقل المركزية المقيمة في العاصمة.

كانت صورة خالد العظم في تصوري المسبق أنه عملاق متمرّس، قادر على السيطرة. كان يعامله رئيس الجمهورية في جلسات المجلس كطالب أمام معلمه. بل أسوأ من ذلك، كان يوجه إليه الكلام بحدّة وعصبية ظاهرة، لم أعرفها منه خلال تعاملي معه فترة خمسة شهور. كثيراً ما كان ينادي ناظم القدسي رئيس وزرائه الذي يلعب بالقلم في أثناء نقاش قضايا ساخنة (إضرابات للمعلمين أو مظاهرات وضحايا)، يصرخ رئيس الجمهورية على حطام الرجل المنصرف عن شؤون المجلس واللاهي بورقته وقلمه: دولة الرئيس خالد بك (بلهجة استخفاف) وكأنه يريد ايقاظه من غفوته. يتمالك خالد العظم نفسه ويقول: نعم نعم، وكأنّه عائد من حلم أخذه بعيداً. وكانت العلاقة المأساوية في صورتها التي وصفت تتكرر في كل جلسة تقريباً.

في جلسة دار النقاش حول إضراب المعلمين الذي استمر عدة أسابيع، وهو إضراب سياسي ومطلبي ايضاً. رفض رئيس الوزراء مناقشة إيجاد حلول للإضراب، يهدّد العهد القائم بأسوأ العواقب. كان رئيس مجلس الوزراء يرفض بحث المشكلة إذا لم يصدر مسبقاً وزير التربية رشاد برمدا قراراً قبل ذلك بإعادة معلمة نقلت منذ شهرين من دمشق إلى قطنا، وتبعد عشرين كيلومتراً من بيتها. بعد اتصال هاتفي طلب وزير التربية مضمون إضبارة المعلمة، والتفت موجهاً كلامه علناً لرئيس مجلس الوزراء يقول: «سيدي. إن المعلمة فلانة التي يطلب دولة الرئيس إعادتها قد تمّ نقلها بعد تحقيق تأديبي، وأسباب أخلاقية مسلكية، وقد اكتفت الادارة بعقوبة النقل بعد مداخلات من أطراف عديدة!».

أرخى دولة الرئيس مستسلماً، وعاد يعبث بورقته.

سافرتُ إلى نيويرك في مطلع شهر تشرين الأول ١٩٦٢، وتوقفت في باريس. تحدثت إلى الإذاعة عن العلاقات السورية الفرنسية، وعن ضرورة دعمها وإعادة التعاون التجاري والثقافي بين البلدين. قرأت بعد ذلك في الصحف السورية تشويهاً مقصوداً للحديث، وكأنّه كان عليّ التنديد بفرنسا من الإذاعة الفرنسية في باريس وإثارة ذكريات الانتداب والاستعمار الفرنسي!

قابلت في أروقة الأمم المتحدة السيد محمود رياض، وتربطنا سابقاً علاقات صداقة، وفُوجئت بالبرود والتحفظ في تحيته. أخبرته بأنّي مكلف بمحاولة إزالة أسباب الجفاء والتوتر في العلاقات بين سوريا ومصر. وعدني بالاتصال بالقاهرة. انتهت الدورة، ولم يعاود الاتصال بي.

رغم ذلك بدأت الصحف السورية، وهي داعمة لرئيس مجلس الوزراء الذي يمثل وجهة نظر طبقة التجار والصناعيين والضباط الانقلابيين، وقد اشتدت حملتهم مجدداً على كل من يقول بتصفية الأجواء العربية، ولا يتبنّى مواقف مؤتمر التشهير والشتيمة في شتورا. بدأت صحف الحكم هجوماً على المساعي التي أقوم بها، أُحاول تقريب سوريا من الجبهة العربية التي تسير تحت زعامة عبد الناصر.

سألني مندوب الولايات المتحدة في أروقة الأمم المتحدة عن رأي بلادي في مساعدات غذائية تُقَدَّم لمصر بقيمة عشرة ملايين دولار. أجبت: «وما المانع؟». قال: «حضر الأمير فيصل وليّ عهد المملكة السعودية في حينه واستنكر في وزارة الخارجية الأميركية المساعدة المذكورة، وأنهم يعتبرونها دليلاً على دعم للناصرية وسياستها في المنطقة». قلت: «إنّنا في سوريا نرحب بالمساعدة للشعب الشقيق وليس لدينا أي اعتراض».

قابلت الأمير فيصل بعد أيام، أسأل عن صحة الرواية. قال: «لا تزال ناصرياً كما يقولون عنك». قلت: «وهل يجوز أن ننشر غسيلنا القذر على حبال دولة الأعداء؟». قال: «أين هم الأعداء؟». قلت: «الولايات المتحدة داعمة وسند الصهيونية في العالم». ضحك مستهزئاً وأجاب بالحرف: «الصهيونية أمرها هيِّن. بإمكاننا أن نضغط على الأصدقاء الأميركان ونطلب منهم إنهاء دعمهم لإسرائيل. إسرائيل تمثل الخطر الصغير. الخطر الأكبر الشيوعية العالمية والناصرية وأنتم عملاؤها».

للوهلة الأولى صدمتني الكلمات ثم راجعت نفسي وقلت إنه مدرك وبعمق لمصالح العائلة المالكة. الولايات المتحدة سند للنظام الملكي،

وملجأ لثرواتهم ولوجودهم على الأرض العربية، وإسرائيل في آخر المطاف حامية للعروش ومن يتطاول عليها.

دعاني صديق سوري يعمل في الإعلام في الأمم المتحدة لزيارة مبنى إدارة ومطابع جريدة (نيويورك تايمز)، وهي صحيفة ذات وزن كبير في الشؤون السياسية العالمية.

اجتمعت في اثناء الزيارة مع بعض اعضاء مجلس الادارة المتواجدين في المبنى وطرحت السؤال التالي: «لماذا تحابي الصحيفة العملاقة التي تمتلكها شركة كبيرة لها مزارع للأخشاب والكيماويات والآلات الطابعة، لماذا تلتزم الجانب الاسرائيلي في نزاع المنطقة؟ هل يتم ذلك بتوجيه من وزارة الخارجية الأمريكية أم أن مالكي الأسهم في الشركة صهيونيون في أكثريتهم؟!».

وتدليلاً على ذلك ذكرت بأنّي في خطابي أمام الجمعية باسم سوريا قلت إن بلدي الفقير يقتطع مبالغ كبيرة من المال، ينفقها على السلاح وبناء الخنادق، دفاعاً عن نفسه، بينما هو بحاجة ماسة إلى الانفاق على المدرسة والمستشفى والطريق.

اقتطعت إدارة التحرير من كلامي هذه الجملة من سياقها المتكامل، لتقول إنّنا ننفق بسخاء لنشتري الأسلحة بدل بناء المدارس والمشافي بينما نشرت الصحيفة على صفحة كاملة النص الحرفي لخطاب غولدا مايير، تؤكّد رغبة اسرائيل في السلام مع جيرانها.

كان جواب الحاضرين من الإدارة أن موقفهم منطقي ومبرر، ففي مجلس الإدارة مندوب يشرح وجهة نظر الخارجية الأميركية في القضايا الطارئة، ونحن ملتزمون أصلاً بالمصلحة الوطنية العليا للحكومة الفدرالية، وهي متفقة مع مصلحة أصحاب الأسهم. إن دخل الصحيفة اسبوعياً من إعلانات تجارية، وخاصة أيام الميلاد القادمة (شهر تشرين الثاني)، يبلغ وسطياً ٣٥ مليون دولار في حينه، والشركات المعلنة مرتبطة بشبكة من

المصالح المتبادلة، وجميعها نصيرة داعمة لإسرائيل، تمثّل مصلحة عليا للولايات المتحدة في المنطقة.

بعد كل ذلك نرجو أن تكشف لنا عن المصلحة التي تربطنا بالجانب العربي، والتي لم نكتشفها؟.

يدافع العرب عن قضية تقع بالنسبة للمواطن الأميركي في الخندق المقابل لمصالحه، والسياسة ليست عواطف وأخلاق. إنّها مصالح قائمة ومصالح دائمة ومحسوبة.

سافرتُ إلى الأمم المتحدة هارباً من أجواء الصراع المحموم على السلطة الهاربة من الجميع، وعدت الى سوريا في ١٢ كانون الثاني ١٩٦٢ وقد اشتدت أجواء الضباب والشائعات أمام اللاهثين وراء السراب في طريق التيه.

أعلنت استقالتي في الصحافة فور تقديمها لرئيس الجمهورية، وانتقلت بسلام إلى مقاعد المتفرجين.

أتوقف بعد جهد ممتع في نبش ذكريات أيام، أقربها مطمور قبل سبعة وعشرين عاماً. فقد قضيت ثلاث سنوات تقريباً وأنا أجد في الكتابة مبرراً لوجودي.

كان الكشف عن الخلفيات وإمعان النظر وإعادته في الدوافع والبحث في قراءات منوعة جداً، والشطب والبدء من جديد، أشاع كل ذلك في نفسي مشاعر الرضا عن الذات.

عسى أن تكون متاعب وظلمات الماضي والحاضر كافية لصحوة الأجيال الصاعدة، وحوافز كافية تدفع باللاحقين إلى اتخاذ أطفال الحجارة في الانتفاضة الفلسطينية نموذجاً وقدوة في التصدّي والخروج من الأصفاد والركود والتقليد.

الفصل العاشر

أبواب الأمل

تمتعتُ نفسياً باستعادة ذكريات الطفولة والشباب والكهولة. وليست هذه المتعة العابرة هي ما كنت أستهدف. لقد رأيت أن في رواية قصة حياتي في منعطفاتها المديدة فائدة وتوضيحاً لمعاناة جيلي، فإنّي أُمثّل عيّنة عشوائية لشريحة واسعة من أبناء النصف الأول من القرن الحالي. وقد واجه هذا الجيل، دون استعداد، تحدّيات مصيرية لوجودنا القومي والإنساني معاً، وعلى جميع المستويات السياسية والاقتصادية الاجتماعية والفكرية.

لا بدَّ من أن السؤال الكبير الذي يطرحه أبناء الأجيال اللاحقة، ومنهم أولادي وأحفادي: لماذا اتّسمت مواقف جيل جدهم بالانهزامية الكاملة؟

يمكن الإجابة باختصار:

التزمت أجيال عربية عديدة منذ قرون موقف العزلة والهامشية عن العالم، ترى في كل فكر جديد خطراً ماثلاً يهدّد سكونية وثبات السادرين القانعين، الراضين بامتلاك الحق والحقيقة الكاملة الأبدية، وعكفت هذه التجمعات المعزولة عن مسار التاريخ والتطور العالمي تجترّ علوم الأولين وخيالات أمجادهم الغابرة.

لقد أردت من رواية سيرتي الذاتية أن تكون هيكلاً أبني عليه تطوُّر الفكر عامة، وقناعاتي الشخصية خاصة خلال العقود السبعة المنصرمة، وحاولت الإجابة بقدر ما تسمح به الظروف القائمة عن خلفيات النكبات والمطبات ومشاعر اليأس التي يعاني منها الجميع منذ نصف قرن تقريباً.

أشعر بألم حقيقي وأنا أشهد هجرة أعداد متزايدة من الجامعيين وأنصاف الجامعيين، ومن الحرفيين، يقفون أمام القنصليات والسفارات للحصول على تأشيرة خروج من الوطن، إلى أية بقعة قريبة أو نائية، إلى أي نعيم أو جحيم، وفي أي بلد من بلاد البشر أو الشياطين. وتكتمل سعادة الهاربين لو أعقب ذلك بصيص أمل في الحصول على جنسية أي بلد من العالم، كأن اللعنة قائمة في جنسية البلد الذي أعطاهم وجودهم وعلّمهم وأنشأهم. هذه صورة مأساوية للإحباط اليائس من إمكانية تجاوز المتاعب القائمة بالهروب من المركب كأنّه مشرف على الغرق.

شاهدت عام ١٩٤٦ جماهير المتعلمين أمام دار بلدية دمشق، يرقصون الدبكة حول نار، وقودها كتب أجنبية، تعبيراً سخيفاً عن رفض كل ما يتصل بالغرب.

وانتقلت الجماهير بعد أربعين عاماً من اللعنة الكلامية المهرجانية إلى التمجيد والتقليد والاذعان الذليل حتى للوجود الإسرائيلي، غرسة الاستعمار في قلب الوطن العربي.

سأُحاول في هذا الفصل الختامي تسجيل بعض ما أؤمن به من آراء وأفكار متوخياً الاختصار، ولا قصد لي سوى المشاركة في البحث النزيه عن خلاص للإنسان العربي المحكوم بالبقاء والضياع في نفق مظلم مسدود.

■ العقلانية

لا يتم إدراك وتحليل الظروف المتبدلة دائماً إلاّ بالعقلانية، وهي أسباب ونتائج، وكل تصوُّر للعقل من خلال فكرة الثبات هو ضلال مرفوض.

استأثر تعريف العقل بمجلدات في المفهوم الفلسفي، ويؤكّد الكثيرون من أعلام الفكر الإنساني أن تطوُّر البشرية كلها وفي جميع مظاهر حضاراتها من فكر وفن وعلم ودين وتشريع... الخ، ليس إلاّ صورة لتطوُّر العقل الإنساني.

وأُحاول فيما يلي نقل بعض الأفكار في محاولة لتحديد معنى العقل،

بتحديد ما يقابل العقل أو ما هو مضاد للعقل والعقلانية.

التضاد والتقابل المتعارف عليهما في مجتمعاتنا قائمان بين العقل والعاطفة أو الانفعال.

هذا التقابل والتضاد ليسا في حقيقتهما إلاّ تكاملاً، فليس العقل والعاطفة طرفين يستبعد أحدهما الآخر وينفيه، بل هما قوتان متلازمتان في كل انسان. نحن نطلق على الموقف السلوكي الانفعالي صيغة العاطفة، وعلى الموقف المتّزن الهادىء صيغة العقلانية. لا يخلو سلوك أي انسان من مزيج مختلف، في نصيب كبير أو قليل من كل منهما، فسلوكنا دائماً مزيج أو تناوب بين العقلانية والعاطفة.

تؤدّي المبالغة في التمسك بالقديم لقدمه إلى حالة اغتراب، حيث يعيش الإنسان حاضره بعقلية الماضي على إطلاقه. كما تؤدّي هذه المبالغة إلى إضفاء هالة من القدسية على الموروث، بحيث لا تجوز معارضته أو إثارة الشكوك من حوله.

يحدث التناقض الحاد بين الماضي والحاضر عندما نفهم العقلانية بالمعنى الأقرب إلى اشتقاقها اللغوي. فإنَّ معنى العاقل في القاموس (الحجر والنهي)، وهي اشتقاق لكلمة (عقلت) البعير إذا جمعت قوائمه. والعاقل من يحبس نفسه ويردّها عن هواها.

يربَّى الطفل ليكون عاقلاً أي يصغي ويطيع ويتقيَّد بما هو سائد، وينسجم مع الأوضاع ويتجنب المشاكل والمغامرات، ويهتم بشؤونه الخاصة، فيمتنع عن المشاركة في أي نشاط لم يمارسه الآباء والأجداد، فالعقلانية السائدة مضادة للإبداع والنقد والتفكير، فهي مكبّلة رجعية ومرفوضة.

■ السلطة

السلطة هي قوة ضاغطة داخلية أو خارجية المصدر، تعطل الموقف العقلاني. فهي حالة النزول عند إرادة تعلو على السلطة العقلانية، وتفرض على الإنسان سلوكاً محدَّداً لا مجال لنقاشه. إن التفكير والسلوك المرتكز

على العقل في اختياره الحر هما نتيجة جهد إنساني خاص بالفرد المفكر، وهو نتيجة لذلك سلوك حر وإرادة متحرِّرة.

والاختيار الحر متطور غير ثابت وقابل للتصحيح والتعديل اعتماداً على الحجة والاقناع، تبدأ السلطات التقليدية في مجتمعاتنا بالروابط الأسرية والطائفية والتقليد والاتّباع، وهذه الحلقات المتسلسلة تفرض قواعد سلوكية تعطّل وتمنع حرية العقل في اختياره، فالنقل سلطة، والعقل معارضة. النقل أخذ وقبول، والعقل رفض وتمرُّد، يحتاج النقل إلى سلطة تفسّره كما تراه، والعقل لا يعتمد إلاَّ على نفسه.

■ الإيمان

الإيمان هو السلطة الحقيقية التي تقابل العقل المنطلق. ذلك أن الإيمان طاقة انفعالية يمكن توجيهها في أي اتجاه يريده القائمون الأوصياء عليها، فالإيمان في معناه العام قوة تحدِّد الغاية سلفاً، وترسم المنهج الذي على الإنسان أن يتَّبعه للوصول إلى هذه النتائج المحدَّدة مسبقاً.

فالعقل في حدود تعريفنا وتداولنا معه في هذا المجال، قوة بشرية تقع في مقابل الانفعال أو العاطفة، وهي كذلك قوة مضادة للسلطة بشتى مظاهرها.

لقد كان كبار العقلانيين في القرن الثامن عشر في أوروبا هم دعاة الدفاع عن الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، مقابل اعتماد فلسفات الاضطهاد والإخضاع والحق الأزلي وطبيعة الأشياء، لتبرير اضطهاد الطبقات والأفراد.

يتعرّض التفكير العقلاني في العالم العربي لأزمة حادة تستهدف الخروج به عن آفاق مألوفة محدَّدة سلفاً، واستكشاف أبعاد جديدة.

تصدَّى العقلانيون في العالم لمعركة وصراع فكري تمَّ الحسم بشأنه قبل عدة قرون في العالم المتطور، وخرج العقل منه منتصراً. بينما حاول العقلانيون العرب تحريك الفكر الثبوتي المقيم منذ قرون عديدة، عساه يبدأ

بالحركة لتصبح حضارتنا من جديد إنسانية، والتنمية لصالح الإنسان، والتحديث دفاعاً عن كرامة الإنسان، ولكنهم فشلوا. لقد دارت في تاريخ الفلسفة الإسلامية مناقشات واسعة متصلة حول العقل والحرية والإرادة الإنسانية، وانهزم تيار العقل أمام أتباع النقل، ولا يزال يسيطر على الأفكار استبعاد الإرادة الحرة.

الاختلاف الأساسي بين ما نشهد من أزمة العقل في العالم المتطور، وبين ما ندعوه بأزمة العقل في مجتمعاتنا المتخلّفة هو أن الأزمة عندهم هي أزمة ما بعد العقل على حين أننا لا نزال نمرّ بأزمة ما قبل العقل. والفارق الأساسي في الحالتين مرحلة تاريخية بعيدة، فقد تجاوزوا النطاق، وأصبحوا يتطلعون إلى عقل يتجاوز الحدود التي ألفوها. وهذا الحاسوب والالكترون وغزو الفضاء تحقق قدرات وإمكانيات للعلماء، تفوق آلاف المرات قدرات وإمكانيات عقلنا في الاختزان والاستعادة والكشف والتنسيق والتخطيط. أمّا عندنا فما زال العقل يعمل جاهداً من أجل استكشاف ذاته، وتحقيق أبسط مطالبه الضرورية بتأكيد وجوده ونفعه.

يعاني التفكير العقلاني في مجتمعاتنا من اتجاهات تزداد شراسة في القمع، تريد تعطيل أو إلغاء وجوده، زاعمة أنها إنما تعمل ذلك لحساب السلطة التي تعرف كل شيء، وهي الوصية الأزلية على العقل القاصر دائماً، فالسلطة الدينية والسلطة السياسية والسلطة التقليدية بالأعراف والعادات، جميع هذه السلطات، أو كل منها على حدة، قادرة على تدبير أمور الناس بحسب مستوياتهم، فهي تفكّر وتقرّر بديلاً عنهم. وحين يستمر تعطيل العقل زمناً طويلاً يعتاد الناس إلغاء عقولهم، وتفقد العقول العاطلة عن العمل قدرتها على العمل والتحرُّر.

تؤكّد دراسات حديثة ضمور ملايين النورونات يومياً إذا لم تستخدم في العقل الإنساني (يحوي العقل الانساني تقديراً ٦ ـ ١٠ مليارات منها). وعقولنا مجمّدة منذ الولادة لعدم استعمالها، أو هي تضمر بعد ذلك.

وأخيراً تكبّل العقل في مجتمعاتنا رواسب تاريخية وقوالب محدّدة،

وأساليب للتبرير والتمهيد، لتأكيد صحة الأهداف المحددة سلفاً. تستهدف هذه العمليات التمكين والتركيز لبقاء سيطرة وسلطة القوى العديدة المتدرّجة.

ويؤدّي بنا كل ذلك إلى ضيق بالفكر المعارض، ورفض بلا تبرير لكل ما يخالف ما هو قائم وصالح، بدليل استمرار وجوده قروناً طويلة. وما زلنا نشهد كتابات تريد أن تؤكِّد لنا بأن أحدث الكشوف العلمية لها أُسس وإشارات في النصوص.

نحن لا نتصدى لمشاكل حياتنا اليومية كحقوق الإنسان والحريات الديمقراطية، والفوارق الطبقية والانفجار السكاني، وحقوق المرأة والطفل والمريض، وغيرها الكثير من المشاكل اليومية، بل نتخذ من هذه المشاكل جميعاً موقفاً سلبياً، ننكر وجودها وأخطارها ونتائجها. ومرد ذلك أننا نغلِّب وجهة نظر الإيمان والتقاليد واستمرارية ما هو قائم على العقل والظروف. ليس يكفي وجود فئة أو نخبة تستعمل كلياً أو جزئياً عقولها طالما بقيت الأكثرية الساحقة مؤمنة بالعقلية الغيبية الأسطورية التقليدية.

وما دامت هناك حقيقة واحدة فمن المنطق والعدل أن لا يكون هناك إلاّ رأي واحد. ومن ليس معنا فهو ليس منا. وما دام الحاكم والأعراف التقليدية يقرران بأن الإمام على حقّ فإنَّ خصومه إذاً على ضلال، ويجوز له بل يجب عليه تصفيتهم لأنهم يمثلون الباطل.

الحرية والديمقراطية

الديمقراطية كلمة يونانية ومعناها الحرفي سلطة عامة الناس (ديموس الشعب أو عامة الناس).

كانت الأكثرية المحلية فيما يسمَّى بالمدينة أيام الحضارة اليونانية (٥٠٠ عام قبل الميلاد تقريباً) قادرة على الإحاطة بمشاكل سكان القرية المدينة، فكيف يكون التعبير عن ضمير الجماعة صحيحاً، والأكثرية الساحقة من سكان المدينة والريف حالياً غائبة بعيدة عن الشؤون العامة، أميَّة أو غارقة في هموم حياتها المعاشية.

اكتشف الأوروبيون متأخرين (القرنان الخامس والسادس عشر) كتابات سقراط وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة اليونان، ونقلوا عنهم أفكار الديمقراطية، ولا يزالون مبهورين بالمستويات الرفيعة للفكر الهيليني.

وتُحاول أنظمة العالم جميعاً ومنذ قرون الالتصاق والاقتراب من ديمقراطية اليونان، وأصبح شعار الحرية والعدل والمساواة الذي طرحته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ هدفاً تسعى لتحقيقه أو تقليده جميع دول العالم.

للديمقراطية أشكال تختلف نوعياً، تلخّص بالسياسية، والاجتماعية، والشعبية، والاشتراكية، والنخبوية والحزبية... الخ، ويجمع بينها قاسم مشترك هو احترام رأي الآخرين، واتباع رأي الأكثرية، واحتمال الفكر المعارض والمخالف من دون اضطهاده أو نفيه أو اغتياله.

والسؤال بعد الطرح النظري: ما هي حقيقة الروابط بين النظريات الطوباوية وبين الواقع التطبيقي؟ وما هي خلفيات وتطبيقات الحرية والعدل والمساواة؟

تستخدم جميع الأنظمة والحكومات وبإتقان متطور وسائل النشر والإعلام بمختلف أشكالها (طباعة، إذاعة، تلفاز) لإخضاع الجماهير في عملية دائبة لغسل الدماغ الجماعي.

لقد تابع العالم أجمع وبذهول قبل فترة غير بعيدة مشاهد تجري أحداثها وكأنّها منقولة عن كوكب في الفضاء البعيد عن الأرض والإنسان. شاهدنا مسيرات حاشدة بمئات الألوف والملايين لشعوب متطورة متعلّمة متحضرة وعقلانية، جموع هازجة أو صاخبة، راضية قانعة أو ثائرة مهتاجة، تنقلب بين ليلة وضحاها من صيحات العبادة للفرد والحزب إلى هدير صاخب لا ترتوي معها الأحقاد، تدوس بأقدامها أصنام الأمس القريب.

تتحكّم بأجهزة الاعلام وشبكاتها الرهيبة فئة متعصبة أو مغامرة، تضاعف بأرقام فلكية تأثير صيحاتها وكلماتها في إقناع وتوجيه قطيع البشر، تستر أو تكشف وتطمس أو تفجر، تكذب وتكذب وتقرر مصائر الإنسان

والجماعات بالإقناع أو الإرهاب أو الأمثولة. وهكذا يتمّ تعطيل العقلانية الإنسانية. وينخرط الجميع هادرين مع الجميع.

يختلف استخدام أجهزة الإعلام بحسب النظام الحاكم، فهي شركات خاصة تجارية رابحة في الولايات المتحدة وغيرها من بلاد العالم الرأسمالي. وتقوم هذه الشركات بالترويج لمصالح الشركات والاحتكارات بحيث أصبح يقين الجميع بأن مصالح (جنرال موتورز) وألوف الشركات الأخرى العملاقة العالمية فيما يسمّى (بالعالم الحر) متطابقة مع مصالح الولايات المتحدة وهي تمارس الهيمنة على سوق الغذاء والسلاح والأجهزة الخفية.

وتخضع أجهزة الإعلام في النظام الاشتراكي للبيروقراطية الحكومية، تمجد وتتباهى، وتغطي التجاوزات، وتقلب الحقائق والوقائع.

وفي دول العالم الثالث أوضاع إعلامية ركيزة أساسية للأنظمة الفردية والجماعية، ويستحيل أن يتمّ نجاح التوجه الديمقراطي الحقيقي إلاً بتحرير الإعلام من هيمنة الشركات وهيمنة الحكومات ووضعه تحت إدارة هيئات أهلية مستقلة لا تخضع لكابوس الإعلام الموجّه أو الإعلام الذي يُباع ويُشترى.

استقلال الإعلام والقضاء حجر الأساس في كل توجّه ديموقراطي.

لقد اخترقت إنجازات التكنولوجيا حواجز البعد الجغرافي والثقافي، وأنهت مشكلة أميّة الأكثرية من البائسين، تصل الصورة إلى أنظارهم وأسماعهم، ويشاركون عن قناعة بما تقدمه أجهزة الشياطين! لقد شهدوا بأم أعينهم وسمعوا بآذانهم فكيف يتسرب الشك إلى نفوسهم؟!

ويرتفع الستار في العالم الاشتراكي أيضاً عن تجاوزات وانحرافات طُمست في أنظمة تحمل شعارات تكافؤ الفرص والتحرُّر من سلطان المال والجاه والوراثة. ولم يمنع الإيمان العقائدي الثوري الذي يستهدف خلق إنسان جديد متحرّر من عبودية قرون التخلف والظلام، لم تمنع الآمال الطوباوية من عبادة الفرد الملهم، ومن منع الضمير دون رقابة ومحاسبة علنية

من ممارسة الانحرافات والتستُّر على التجاوزات في ديكتاتورية الطبقة والحزب الواحد.

أنظمة الحكم في عالم التخلف فردية وقراراتها مرتجلة، تعتمد تصحيح الخطأ إذا حسنت النية ثم تصحيح التصويب بعد ذلك. وتستمر عمليات التطويع والتذبذب والتيه ليدرك اليأس القاتل نفوس الجميع.

■ الجمود الفكري والسلوكي

تفجّرت الحضارة الإسلامية العربية، وبقيت متوثبة متطورة، تساير ظروف الفتح والاستقرار وهي تحمل مشعل حضارة لها طابعها ومميزاتها في مسلسل الحضارات البشرية القديمة والحديثة. وبدأ الجمود والانحطاط مع ازدياد الانشقاقات والفرقة في أمبراطورية تمتد من منتصف البر الآسيوي حتى الأطلسي. ليس ما أصاب الحضارة الإسلامية العربية من جمود وهبوط ظواهر فريدة أو شاذة، بل هي طبيعة الأمور في إفساح المجال للموجة الصاعدة القادمة الأكثر طاقة وقدرة على التلاؤم مع الظروف المتبدلة دائماً. سأُحاول وبإيجاز متابعة أشكال التجميد الذي تعرضت لها المجتمعات العربية الإسلامية بعد صدور الاسلام. وسوف أُحدِّد المرحلة التاريخية الأكثر أهمية في نتائج هذا التجميد، وتبدأ مع القرن الخامس عشر الميلادي.

ظهرت مع أواخر القرن الخامس عشر بوادر النهضة الفكرية في أوروبا، ورافقتها تحولات هامة في الفكر والسياسة والاقتصاد.

تمَّ بعد حروب طويلة نزع السلطة الكنسيَّة، واندفعت كل دولة قومية جديدة للبحث عن مصادر رزق إضافي خارج حدودها، لتضمن مقاومة تحديات القوميات المنافسة.

تمَّ خلال الفترة التاريخية ذاتها توالي كشوف جغرافية: سيطر البرتغاليون أولاً ثم الإسبان على الطرق البحرية. وامتدت سواعد ومراكب الأوروبيين تنهب القارة الأميركية، كما وصلت مراكبهم عن طريق رأس الرجاء الصالح الى الشرق الأوسط والأقصى، بعيداً عن مراكز السيطرة الإسلامية البرية التي

تتحكّم بثغور شرق البحر الأبيض المتوسط وجنوبه.

وهكذا استُبدلت الطرق التجارية القديمة عبر البر الآسيوي لتصبح المحيطات طريق التجارة الدولية المأمونة، وتسيطر عليها مراكب المغامرين من الأمم الأوروبية.

وفي الفترة ذاتها بدأ الفتح العثماني للبلاد العربية وشمالي أفريقيا. لم يُحدِث الفتح التركي أي تبديل في الحياة الاقتصادية الاجتماعية العربية بعد أن هزم العثمانيون المماليك، فالجيوش المقهورة والمنتصرة متخلفة سواء بسواء. انتقلت بلاد الشام من حالة الركود الحياتي في ظل المماليك إلى تجميد حياتي في ظل الفاتحين الأتراك. تبدّلت وجوه الحكام ولم تتبدل هوياتهم. كانت البلاد العربية قبل هؤلاء وهؤلاء وخلال قرون بعد زوال الدولة الأموية خاضعة للغزاة والولاة المتناحرين، وكلهم جند متسلطون، أداتهم القتل والإرهاب والنهب والاستنزاف.

كان النظام الإداري العثماني امتداداً لنظام المماليك الحربي والإقطاعي.

تبنّى العثمانيون النظام الإقطاعي أيضاً في أمبراطوريتهم، ويعني هذا النظام تسليم الأرض لفريق من المحاربين مقابل إلزامهم بالاستجابة مع أتباعهم لدعوة القتال عند الضرورة. وقد اعتبر العثمانيون الأرض ومن عليها من الفلاحين حقاً شرعياً للفاتح، وملكاً للسلطان يوزعها على جنوده. ويتصرّف الإقطاعي بأرضه ومَنْ يعيش عليها طالما احتفظ برضى الحاكم والسلطان، ويتوارث أولاده وأحفاده حقوق الأب والجد من بعده.

وقد ترسّب في وعينا القومي خلال قرون الانحطاط أن الإمام وحده صاحب الحق والسلطة، والشعب ملك له ورزق ساقه الله إليه، وكل رزق حلالاً كان أم حراماً بركة وعطاء من الله.

ومن المؤكّد أن إبعاد الشعب عن المشاركة في الجيش والحكم الفعلي أيام المماليك، وبعدهم العثمانيين، كان عاملاً هاماً في تعميق وتأكيد السلبية في سلوكية المواطنين، فانصرف كل إنسان إلى مشاكله وحياته الخاصة تاركاً

الدولة تفعل ما تراه طالما أنها لا تمس عاداته وتقاليده. وقد التزم الحكام ذلك وتركوا المجتمع مجمَّداً في مستنقع فكره وسلوكه. وكذلك بقي الاقتصاد اكتفاءً في حدود حاجة المنزل والسوق المحلية. وقد حدث التجميد في النشاط الإنتاجي الاقتصادي والفكري معاً في فترة كانت متفجرة في أوروبا في عصر النهضة والفتوحات القارية والبحرية.

وسأُحاول فيما يلي رسم الخطوط العريضة لمشاكل الزراعة والصناعة والتجارة والفكر في فترة الاحتلال العثماني وقد امتدت أربعة قرون.

■ المجتمع

بقي المجتمع في الدولة العثمانية مؤلَّفاً من شطرين متنافرين: أرستقراطية حاكمة يمثلها الجيش والحكّام، والرعية ممثلة بزرّاعها وصنّاعها وتجّارها، والعلماء طبقة وسيطة بين الطرفين تتمتع بامتيازات إعفاء، تنفق عن سعة من ريع أوقاف غنيّة هم أولياء عليها. إنَّهم إضافة لسلطتهم الدينية أصحاب نفوذ وصلات وثيقة من الحكّام، يسكتون بل يبرّرون ظلمهم وتجاوزاتهم.

أصبحت الوظائف الكبيرة والصغيرة في سوق الرشاوى والنهب المنظم، فقد كانت الكفاءة العسكرية كافية في البدء للحصول على المراكز المتميزة والاحتفاظ بها، وأصبح المال بعد ذلك سبيلاً وحيداً للسلطة.

بقيت السيادة في الحكم للأتراك، وفي مجال القيم والتراث والتعامل، فإنَّ الجميع أمّة واحدة، تجمعها عقيدة الأكثرية المطلقة الواحدة، فالقشرة الحاكمة عثمانية، ولكن المحتوى الاجتماعي والتشريع والسلوك إسلامي، ولم يُعامل التركي كغريب في الوسط العربي.

كان يشرف على تخريج العلماء في القضاء والإفتاء مدارس عالية في العاصمة استامبول، وترك المجال فسيحاً في الولايات المتحدة العربية لكل من رغب في ارتداء أزياء العلم، يتصدّر مريديه في المساجد والزوايا والتكايا والخوانق. وكان بينهم عدد من الأُمّيين أو أشباههم، ممن يضعون عمامات

خضراء وصفراء أو بيضاء. واقتصر تدخُّل الدولة على تعيين المؤهَّلين للقضاء والإفتاء، والمحتسبين والمشرفين على شؤون المساجد.

لا وجود في الحياة الاجتماعية السائدة لأية خطوط فاصلة بين الشيخ والتاجر، والإمام والكاتب، والمعلم والصانع. والأجواء الوحيدة التي تسيطر على الجميع هي التربية الدينية. وكثيراً ما يتحوَّل الصنَّاع إلى شيوخ علم. ومن العسير ان يتم العكس لأن في ذلك هبوطاً في المرتبة الاجتماعية.

تتماثل تقريباً العلاقات الأسرية رغم اختلافات الانتماء الديني، وكذلك فإنَّ العادات والتقاليد واحدة في العائلات ولو اختلفت المستويات.

■ في الزراعة

كانت حاجة الأمبراطورية العثمانية إلى المال كبيرة ومتزايدة للإنفاق على الجيش والفتح التوسعي.

تُفرض الضرائب على الفلاحين من غير العسكريين، أو يتنازل الفلاح تحت ضغط الديون المتراكمة عن قسم من ملكية الأرض أو كلّها لصالح الحكّام أو الإقطاعيين. تُجبى الضرائب ببيع ريعها لمتعهدين بالجباية، ويتمّ تلزيم جباية الضريبة بالرشوة والحظوة. ويحصل المتعهدون، وهم دائماً من كبار الموظفين والحاشية، على أرباح فاحشة بتوزيع اعتباطي لحصة الضريبة المتوجبة على الأفراد.

والخلاصة: يعمل الفلاح في الأرض لنفع الإقطاعي والملتزمين والمشرفين على الأوقاف، وكان يحق لأيّ منهم طرد الفلاح من الأرض وحبسه وضربه من دون الرجوع إلى القضاء. لم تتبدّل حياة الفلاح وعلاقاته، وليست له أية مصلحة في تحسين إنتاجه، وهو مهدّد دائماً بأمنه ولقمته وعمله.

■ في الصناعة والتجارة

قضت المنافسة غير العادلة على التجارة والصناعات المحلية بعد ان

سمحت الدولة باستيراد المنتوجات الايطالية والفرنسية والبريطانية، وقد أصبحت طرق المواصلات الآمنة بحريةً عبر المحيطات. وساعد على تدهور الصناعة في الشرق المسلم أنظمة النقابات القاسية.

كانت الحرفة مهنة أسرية، يحتفظ معلم الصنعة بأسرارها، ويطرد مَنْ يخالف تعاليم التنظيم التقليدي. لا يجوز للأفراد غير المنتسبين للمهنة ان يتعاطوا عملاً مستقلاً خاصاً بهم. وشيوخ الكار هم الحكّام والمرجع، ولهم الحق في الطرد والضرب. يحدّد شيخ الكار وأعوانه عدد الحوانيت الخاصة بكل مهنة لا يجوز زيادتها، ويتجمّع العاملون في مهنة في أسواق محدّدة، وعليهم التزام مواصفات في إنتاجهم غير قابلة للتجديد أو التطوير والتنويع، ولها مقاييس معينة رتيبة بينما البضاعة المستوردة متنوعة متجدّدة ومتطورة. يحمل التاجر في جيوبه الأموال المتوفرة لديه، فلا يودعها أو يأتمن عليها يخاف السرقة والطمع حتى في بيته. والتعامل حتى بالفائدة المعقولة حرام بينما تعاطي الربا الفاحش في الأزمات خراب للمقترض وإثراء لغير المؤمنين أو المخالفين. كان كل ذلك من العوامل المهمة لمنع تراكم رأس المال لتوسيع العمل والتطوير للصمود أمام المنافسة.

كانت حصيلة هذا التراتب الثابت في علاقات التربية والعمل والسلوك أن أصبح البديل عن تجدُّد الأجيال ليساير تجدُّد وتطوُّر الظروف، جموداً واستمراراً كاملاً بل طغيان الماضي على الحاضر والمستقبل.

لم تحدث في البلاد العربية انتفاضات أو حركات ضد ظلم الطبقات الحاكمة أو المتعاونة معها، بل حدث العكس من ذلك فكانت الحركات التي واجهت شطط الحكّام أحياناً، هزيلة غالباً، ودوافعها زيادة في ضريبة أو إباحة أمور أو تبديل امتيازات أو عادات وتقاليد. كانت تتم حركات التململ والضيق النادرة بدفع من شيوخ الكار، أو للدفاع عن امتيازات المتنفذين منهم في حركات رجعية محافظة. وعليه، فقد حرصت الدولة على ترك الرعية مع أجوائها الخرافية، في الشعوذة والتنجيم والمسيرات والاعلام، تنشرها الطرق الصوفية المختلفة في أعيادها الخاصة بكل منها.

ازدهر التأليف والنقل في العهد المملوكي بينما بقيت البلاد العربية بعد الاحتلال العثماني في حالة ركود، مستنقع فكري لا تتجدّد مياهه بل تتفسخ وتتبخر، فالتعليم ديني بحت، ومحوره التركيز على الدفاع عن دين الدولة ومذهبها (إسلام سنّي حنفي) والتهجُّم على ما عداه، ولو كان تاريخاً تجاوزته القرون (أحقية أبي بكر ومقتل عثمان وخلاف علي ومعاوية، أو اختلاف الرأي بين الأئمة. . . الخ).

كان الدين وانشقاقات طوائفه ومذاهبه ملجأ الجماهير، ترتد إلى الخلف في عملية اجترار لكل ذلك بدلاً من نقاش الحاضر والمستقبل، وبقيت الأحقاد والاختلافات المذهبية قائمة متجددة، فالعلم قراءة القرآن وحفظه، وقواعد اللغة والخط وأشكاله. ولم يدخل الكتاتيب تعليم اللغة التركية، بل حدث العكس من ذلك.

كانت الكتاتيب التركية في استامبول، وفي جميع ولايات الأمبراطورية العثمانية غير العربية، تدرّس الدين باللغة العربية. ويحفظ تلاميذ هذه الأقطار الشاسعة القرآن باللغة التي نزل بها، لا يجوز ترجمتها، يحفظون الآيات ولا يفقهون منها شيئاً.

وتخفّ حدة العجب من ذلك إذا تذكّرنا بأن الأكثرية الساحقة من العرب والأتراك وغيرهم، أُمّيون كاملاً، باستثناء فئة محدودة جداً، كانت قادرة على قراءة القرآن والحديث والتفسير، ولكل شيخ أو إمام تفسير يتصل بأسانيد المتقدمين عليه بعدة قرون. يتقيد المفسّرون بحرفية النصوص، أو يعتمدون التأويل، وكان ذلك من بين مرتكزات الطوائف المختلفة في الإسلام.

انتشرت في سوريا إلى جانب الكتاتيب مدارس تلقّن أصول وطقوس وأسحار الطرق الصوفية كالجيلانية والنقشبندية والرفاعية والقلندية والسعدية وعشرات غيرها من الطرق الأخرى. يتردّد إلى زوايا ومنازل أهل هذه الطرق جماهير الصناع والحرفيين، يعمّقون ويكملون استلاب إرادتهم، وتأكيد خضوعهم ورضاهم بالظلم والاضطهاد. وانصرف معظم العامة والخاصة من

الناس للعبادة والزهد. وانطمس الفكر المنطلق المجدّد، انتشرت حلقات الذكر وترديد الأوردة والأدعية، والتمسح بقبور الأولياء، وفي كل زاوية من المدن والقرى ضريح لوليّ أو أكثر شفيعاً وسنداً في الشدائد. وانتشر كذلك بين الجميع على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم التنجيم، والإيمان بالسحر والحجب والتمائم، رغم نهي الشريعة الصريح عن كل ذلك.

وبديلاً عن الخوف من المجانين والمجاذيب فقد أصبح هؤلاء في مصاف القديسين. إنَّهم متجرّدون تخلّصوا بالسليقة والمعجزة من الارتباطات الدنيوية، دون الحاجة إلى الرياضة الروحية، طريق الآخرين لبلوغ ذلك، فهم أصحاب امتيازات وكرامات!

■ علاقات المجتمعات عالمياً

كانت الصورة العامة للأرض والبشر عليها قبل كوبرنيك (١٥٠٠ م) كوكباً هو محور الكون، تدور الشموس والعوالم من حوله، والإنسان محور الأرض، وكل ما عليها في خدمته ولمنافعه.

كانت المجتمعات البشرية معزول بعضها عن بعض، في واحات أو حول الأنهار، ووسيلة الانتقال أقدام الضائعين أو المغامرين، وكل ما هو غريب عدو متربص. لم يكن للأمبراطورية الصينية وزارة للخارجية، فقد كانت الصين هي العالم المتحضر وما عداها (برابرة)، وكذلك انتشرت كلمة (البربرية) تطلق على كل ما هو خارج الأمبراطورية الرومانية، وبالتحديد خارج عاصمتها روما.

كانت الشقة واسعة جداً بين الشعوب والحضارات، نتيجة استحالة قيام أي نوع من التقارب والتواصل. وكان يستولي العجب على المغامرين الذين يجتازون البحار أو الجبال ويسائلون أنفسهم وهل هؤلاء بشر وألوان جلدهم وعاداتهم مختلفة غريبة عنا؟

لم يكن الجهل بالآخرين واستعداؤهم نتيجة الاختلاف عنهم أو لعدم توفر وسائل المواصلات والإعلام فقط، بل كان نتيجة عدم الشعور بالضرورة

أو الرغبة في الاهتمام بذلك. إنَّهم وحوش تمشي على قدمين وكفى! وقد استعمل التعبير نفسه عام ١٩٨٢ رئيس وزراء إسرائيل يصف فيه الفلسطينيين عند غزو اسرائيل لجنوب لبنان.

والإنسان الذي يعتقد نفسه أرفع وأرقى، بل محور الكون والحضارة حيث يعيش، هو إنسان قصير البصر، مصاب بالعمى الفكري لا يرى غير نفسه.

اكتشف كولومبوس أميركا عام ١٤٩٣، وأباح لبحارته إبادة الشعوب البدائية التي استضافته كنصف إله، قادم من الشمس في اسبانيا الجديدة (كوبا وهايتي). وانتزع بحارته الذهب والفضة من الجثث المذبوحة، وكانت أشرعة السفن وأعناق الرجال تحمل الصلبان لهداية الضالين في العالم الجديد!

لقد أرهب بحارة المكتشف المبشّر سكان الجزر بنار البنادق والغزلان الكبيرة التي يركبونها (الخيول)، وباركت الكنيسة إجراءات الفاتحين من أجل نشر رسالة المخلّص المسيح بين الكافرين.

لم يبقَ في جزيرة (ايسبانولا) [وهي تضم حالياً جمهورية هايتي والدومنكان، وخلال قرن واحد بعد فتحها عام ١٤٩٢] سوى قريتين صغيرتين من سكانها الأصليين، بينما يقدّر عدد السكان عند الفتح بـ ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ألف من البشر.

بدأت الفتوحات الاستعمارية للقارات الثلاث، واشتدت في القرن الخامس عشر ميلادي حيث دخلت أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية في علاقات تجارية غير متكافئة بعد أن سيطرت الدول الأوروبية على بحار العالم، بدءاً من اسبانيا والبرتغال ثم بريطانيا وفرنسا وغيرها.

أسهمت علاقات النهب الاستعماري في بدء التراكم الرأسمالي لتزدهر أوروبا وتتخلف بالقدر نفسه البلاد المنهوبة.

واستخدم تزييف العلم في تبرير الغزو الاستعماري، فقد نقل المستعمرون الداروينية العلمية من مجالها البيولوجي إلى التطبيق في المجال الاجتماعي. استخدمت الداروينية المحرّفة لتبرير الاستعمار في إخضاع العروق

الأدنى الضعيفة بأن البقاء في الحياة للأقوى، لأن الأقوى هو الأصلح.

لم تنطق الداروينية بكلمة واحدة عن الأقوى وبأنه الأصلح للبقاء.

أقامت الداروينية البراهين على أن الأقدر على التكيُّف مع البيئة والظروف الطبيعية هو الأصلح والأقدر على البقاء. والمثل المشهور في هذا السياق أن الديناصور كان مسيطراً على الأرض، وكان أضخم الكائنات الحية في عصره، ويفوق في قوته أي نوع نعرفه من الحيوانات حالياً أضعافاً مضاعفة. ومع ذلك فقد انقرض لأنه كان عاجزاً عن التكيُّف مع ظروف البيئة الجديدة بينما استمرت تتوالد حشرات وزواحف صغيرة ضعيفة، لكنها مرنة، قادرة على التطور والانسجام مع الظروف المتجددة.

وصلت المراكب الأوروبية الى شواطىء القارات الأخرى جميعاً، ولم تبلغ أية سفينة من بقية أنحاء العالم أي ميناء أوروبي، فلم تكن التجارة تبادل منافع بل نهب منظّم للمدّخرات من الذهب والفضة في البدء، ثم للخامات الأخرى وللإنسان الرقيق بعد ذلك.

استخدم الأوروبيون تفوق سفنهم ومدافعهم للسيطرة على الممرات المائية العالمية، وأصبحت أجزاء واسعة من سواحل أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية تابعة تدور في فلك الاقتصاد الأوروبي.

كذلك كانت تُشن الحروب بين القبائل للحصول على الأسرى، يباعون رقيقاً، يبادلونهم بسلع استهلاكية شخصية، منها ملابس مستعملة وأسلحة قديمة وخرز ملون. ولا يزال التبادل الظالم مستمراً، ولو كانت نوعيات المبادلة مموّهة. كانت مهمة إثارة النزاعات والحروب المحلية سهلة أيضاً، ولا تزال إمكانية إذكاء وتفجير الخلافات والاقتتال قائمة ولمصلحة المصدّرين للخلاف والسلاح معاً.

■ سؤال ينتظر أجوبة

تكشف الشدائد جوهر الإنسان، وكان مسلسل الهزائم أمام إسرائيل تعرية للشروخ والعيوب في التكوين التاريخي للإنسان العربي.

الوطن العربي رقعة جغرافية واسعة ازدهرت فيها حضارات تاريخية عديدة متعاقبة. والسؤال بعد ذلك:

كيف أمكن اختراق هذا العالم العربي بيسر وسهولة في مسلسل الهزائم والتحديات العسكرية والاجتماعية والاقتصادية فانكشف الغطاء عن عالم عربي يتفتّت ويتفسّخ في حالة من الشلل والضياع، يبحث يائساً عن جذوره وهويته وعن طريقه ومستقبله؟

كيف أقام الصهاينة الغزاة في قلب ووسط العالم العربي مستعمراتهم وهم غرباء في معتقداتهم وعاداتهم ولغاتهم ومنابتهم؟

هل كنا ولا نزال في مرحلة البداوة وقفزنا منها إلى مرحلة التجارة، ولم نتعامل ونتمسك بين المرحلتين بالأرض الوطن؟! هل الوطن في ضميرنا السلوكي كلأ وحصاد أرباح وترحال؟! أين العصبية القومية؟ أين أمجاد التاريخ؟! بل أين الغرائز التي تدفع حتى الحيوان إلى أن يموت دون أرضه ووجوده وجماعته؟

كانت هزيمة ١٩٦٧ كارثة حقيقية أصابت في الصميم الفكر والواقع القومي العربي، وأجهضت توجهاته لتوحيد المتفرقين عقائد وأقليات، واستيقظ بعد ذلك الفكر السلفي بأشكاله الأصولية والطائفية، يقوم بتعميق الشروخ وبعث الخلافات التاريخية حيَّة تسعى، وانكفأ كل مواطن عربي من أجل أمنه وسلامته والدفاع عن وجوده، ليحتمي بهويته العائلية الطائفية والمذهبية. تمَّ كل ذلك توطئة لقيام أمم جديدة تضيع بينها الصهيونية في إسرائيل، متماسكة بعدائها نحو العرب جميعاً في البناء الفسيفسائي الجديد. فكيف تكوّن هذا العقل العربي، وكيف تمت عملية تجميده خلال قرون.

تقول خرافة شاعت بعد النكبة إنه عُرض للبيع بالمزاد أدمغة يمكن نقلها كقطع تبديل، منها أدمغة أميركية وأوروبية ويابانية وعربية ايضاً، فكان الدماغ العربي هو الأعلى سعراً، لأنه الدماغ الذي بقي صفحة بيضاء لم يُستعمل ولم يُستهلك! فكيف تمَّ تعطيل الدماغ العربي في السياق التاريخي، واحتفظ بمجال العمل التأملي، وكأنه يعيش في حلم السعادة الأبدية؟

لقد تمَّ تعطيل العقلانية ونزع الإرادة، وتحديد مجالات ضيِّقة للفكر، نتيجة ضغوط رهيبة تاريخية مارستها سلطات بعضها فوق بعض، تبدأ من هيمنة الأب والمعلم والحاكم، ولا تنتهي إلاَّ في سلطة الفكر التقليدي المحنّط.

سيطر على الفكر السائد في قرون الانحطاط الزهد بالدنيا والتصوف، ملاذاً وتبريراً وقبولاً بالذل والتفاهة، يجعلان من الإنسان كائناً فيزيولوجياً يسعى لرزق يومه، ويستعيد سلوك أسلافه ويجتر أفكارهم.

في الأجواء التاريخية غير الصحية، تكوَّنت النفس العربية الراضية بواقعها كقدر لا خلاص منه.

قبل نهاية القرن التاسع عشر بدأت حركة ما يُسمَّى بـ (النهضة العربية). وبدأ معها الاهتمام بالتراث الثقافي العربي، واشتد التركيز على الهوية العربية لإثارة الشعور وتأكيد الهوية الجديدة الوطنية والقومية.

ازداد اهتمام المثقفين بالتراث لإثارة الحماسة، ولتأكيد المعنى السياسي للاستقلال ومكافحة الاستعمار.

كما تمَّ إضفاء هالات من التمجيد والقدسية على الماضي البعيد، أيام الفتوحات. وكان البحث انتقائياً ينزّه التاريخ العربي من الشوائب، واستخدم كل ذلك لطمس الوجه المشرق للأفكار الفلسفية للمعتزلة وابن سينا وابن رشد وغيرهم.

ووجدت هذه الأفكار السلفية أرضاً صالحة لاستنباتها وتقبّلها.

لا وجود لثقافة أو فكر يفرض من الخارج، ولا يمكن أن يستنبت في الأرض الجديدة إلاَّ إذا كانت مستعدة لتوظيف الفكر الجديد سلوكياً.

لقد تمَّ اتصال وتعامل بين الأمة اليابانية والعالم الإسلامي مع الحضارة الغربية من جهة أخرى، في فترة زمنية واحدة تقريباً (حوالي منتصف القرن التاسع عشر).

كانت النتيجة في الحالتين متناقضة تماماً، فبعد قرن من الزمن تمت المعجزة اليابانية.

في حركة واعية أوفد أمبراطور اليابان ألوف الشباب، يتعلمون في جامعات الغرب ومعاهده وصناعاته، وكذلك فعل محمد علي الكبير في مصر أيضاً. تُنافس اليابان حالياً دول الطليعة في الاقتصاد والصناعة والعلوم جميعاً بينما لا يزال المجتمع العربي يراوح في مكانه، ذلك أنه مصاب بالشلل يكبِّل إمكانيات تطوره بينما في اليابان حركة فاعلة منطلقة ونشيطة.

ليس الاستعمار هو المسؤول عن عطائه الأفكار المثمرة الخلاَّقة لليابانيين، ولا هو المسؤول في الوقت نفسه عن حجبها عن النخبة العربية. ليس الإنسان الياباني متميزاً عرقياً عن الإنسان العربي، فلون الجلد وشكل العين، لا يفترضان نمواً أو ضموراً في العقل والإمكانيات.

الفارق بين الحالتين طبيعة صلات كل من العالمين الياباني والعربي بالحضارة الصناعية.

خلاصة السؤال مرة ثانية:

كيف تطورت شعوب شمالي وغربي هذه البحيرة (البحر الأبيض المتوسط)، مهد الحضارة القديمة والحديثة معاً، وكيف بقيت قروناً مديدة شعوب جنوبيها وشرقيها، في حالة من السبات والبؤس المادي، تعاني من التخلف والتبعية والدونية، ونحن وأهل الشمال المتطورين جيران؟

يقول البسطاء من القدريين: (تلك هي الأيام نداولها بين الناس)، وإنها إرادة الله وقضاؤه ولا مرد لها، فهل نصيبنا من الذل قرون لا أيام، ونصيبهم من السيطرة والطغيان أزلي؟ وكيف حلَّت اللعنة علينا وكانت منذ قرون بعيدة تخصيصاً لهم؟

ويقول مرة ثانية نوع من المبسّطين من أشباه المتعلمين إنها أسباب عرقية، وكأن الدم الذي يجري في عروقنا، وجينات مورثاتنا، مختلفة ونقيضة لما لديهم من دماء ومورّثات أو أننا استبدلنا مورثاتنا الطموحة أيام العز والفتح والسيطرة، بمورثاتهم الدونية. والسؤال عندئذ: وكيف استعادوها؟

النظريات العرقية مرفوضة علمياً وبالإجماع، والبشر سواء، والتمايز مناخ تربوي وفكري وطموح، أو نقيض لكل ذلك.

قد لا يتمكّن الافريقي من الاندماج الكامل في المجتمع الأوروبي كواحد من أبنائه، يثير لون سحنته مشاعر الريبة والحذر الغريزيتين تجاه كل غريب، وخاصة اللون والشكل الخارجي.

المتعلمون والعاملون من أبناء العروبة في بلاد الغرب يندمجون منطلقين ومبدعين ومتفوقين أيضاً، في كل من أوروبا وأميركا، فلماذا لم نشارك أنداداً في حضارة التكنولوجيا؟ ولماذا لم نتواصل أو نقتبس أو ننقل أو نشارك في الثورات الصناعية الأولى والثانية؟

الخلاصة المقتضبة للتاريخ البشري المعروف (عشرة آلاف سنة) أن شعوب شطآن البحر المتوسط تبادلت مشاعر العداء ومحاولات الاحتواء والإخضاع، وفي اتجاهات متعددة، وأخفقوا وأخفقنا، واحتفظ الجميع بمواقف الحذر والخوف والتربُّص في فترات الهدنة القصيرة غالباً، والمديدة أحياناً أخرى.

وانطوى العالم العربي على النفس يحاول إيجاد حلول، أو يعالج بالمسكنات مشاكل الحكم والسيادة، والخلافات تمزّق وتفرّق العشائر والطوائف.

انكفأت شعوب المنطقة العربية على ذاتها متقوقعة، ترفض الاتصال والتعامل مع الغرب الكافر، يزدادون قوة ويفتحون العالم، ويركبون البحار ويسخّرون قوى الطبيعة.

واجه جيلي والأجيال اللاحقة في شبابه وكهولته سيادة كاملة لحضارة الغرب العالمية، ورأينا العالم بكامله يخضع للفكر والإنجاز الذي حققته التكنولوجيا، ثم نشهد بعد مرحلة الانبهار كيف تزداد الأبعاد، وتتعمق الهوة بين المتطوّرين والمتخلفين، حتى أصبحنا عالة عليهم بكل شيء، ولقمة طعامنا وأسباب عيشنا رهن إشارة منهم.

أُسائل نفسي بعدما كتبت: هل بدأ هذيان الخواطر في جموحه يؤسِّس لمشاعر الإحباط واليأس ويمهِّد للاستسلام؟

أستهدف نقيض ذلك تماماً، أريد من البحث عن ظروف نشأتي الفردية، كمثال عشوائي لنشأة أجيال الجدود، أستعيد مع قارئي صورة الهاربين من مواجهة النور والحقيقة، المنكمشين على أنفسهم يحتمون من النور بالظلام، وبالقناعة الراضية تغلّف وتتستّر على البؤس المقيم.

لولا تقبُّل الضعفاء للذل والدونية، لولا استعدادهم النفسي التاريخي في ضميرهم الجماعي للاستكانة، وإيثارهم السلامة الفردية لما تمكّن المستعمر والظالم والمعتدي الغريب، أو القريب على السواء، من إحكام سلطانه وسيطرته. فالعلة كامنة في نفوسنا قبل أن تكون نتيجة عدوانيّة أعدائنا. مواقف الأعداء لا يمكن أن تكون إلاّ عدوانية، ولكن هروبنا وقبولنا ورضانا بالسكوت عن الظلم هو الداء الدفين، وشفاؤه والخلاص من رواسبه طريقنا للبقاء والحياة الكريمة.

أُريد لحديثي هذا أن يفتح أبواب الأمل لأؤكّد بأن الشعوب تحمل مصيرها وقدرها بإرادتها المتحررة الواعية، الرافضة لمواقف الانسحاق والنفاق أمام مستعمريها وطغاتها. إنَّ صياغة سلوك الأفراد والشعوب تربية وقيم وإرادة.

صراعنا مع الطغاة تاريخي ومتصل، ولا تنتهي حلقاته إلاّ اذا تحررت عقولنا وسلوكنا من مشاهد الاستكانة للظلم وتمجيد الظالمين.

من مشهد عابر مقبول في أعرافنا التقليدية، أسرد القصة التالية:

منذ عشر سنوات تقريباً كنت أنتظر في دكان لحام نهاية حديث يجري بينه وزميل له. يقول أحدهم وهو مفتون بعضلاته وشاربه: حدث معي البارحة فصل أحمد الله أنه انتهى على الخير والبركة! أمسك بي والدي في البيت في غرفتي، وبين زوجتي وأولادي الثلاثة أُدخِّن سيجارة، بادرني بصفعة على الوجه، وركلني بقدمه رماني على الأرض، وأنا أتمسّح بحذائه أطلب المغفرة لأنّي خالفت تعاليمه بالإقلاع عن التدخين. توجه إليّ زميله فرآني مشدوهاً، فقال: ما لك لا تعلّق على الحديث؟ قلت: إنّي أشكر المصادفة التي استمعت فيها لقصة المشهد اللاعقلاني، فقد أعطاني مفتاح

سر، وجواباً لتساؤل قديم في نفسي. قصة الأخ الكريم تفسر وتجيب عن تساؤلي: كيف ضاعت فلسطين؟! قال: وما علاقة فلسطين بخلاف بين ولد وأبيه؟ قلت إن سلوك ابن الأربعين يتعرّض للضرب المهين أمام زوجه وأولاده، ويطلب الغفران من أبيه، هي صورة للإنسان الممسوخ المخصي، من نتاج عهود مديدة من الظلم والاضطهاد. إنَّ تقبُّل المذلة والإهانة العلنية من السلطة الأبوية أولاً ثم من المعلم، والحاكم الظالم، امتثالاً لإرادة الغيب، متعاونين ومتكاملين. إنَّها أعراض المرض الداء الدفين في النفس العربية. إن الأخ المتحدث يروي قصته متباهياً، وهو الحريص جداً على أن تبقى صورة الذكر القوي نقية ومبهرة. إنه مصاب بالماسوشية المرضية الوصفية، ينعم ويتلذّذ المصابون بها عندما يتعرَّضون للضرب والإهانة.

وفي جعبتي من الذاكرة قصص عديدة لرفاق وطلاب جامعيين أيضاً، يتعرّضون للضرب والطرد والإهانة العلنية من الأب أو المعلم، رغم أن بعضهم يحمل شهادته وله عائلة وأولاد، ودخل مادي أكثر من الكفاية.

تبرِّر الأمثال الشعبية الشائعة والمتداولة على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل، كرَّستها الأيام في مواقف القبول والرضا بالمذلة. تبرِّر وتهبط بحياة الإنسان إلى مستوى حيواني يقنع بالوجود في حدود إرضاء الغرائز في محاولة يائسة لا تعرف حدوداً للشبع والنهم والاستزادة.

هذه تيارات فكرية فلسفية متكاملة سائدة وعميقة الجذور في ضميرنا الجماعي.

لقد تمّ اقتلاع أكثرية الشعب العربي الفلسطيني، وهو لا يختلف إطلاقاً عن أي مجتمع عربي آخر، تمّ اقتلاع أكثرية هذا الشعب من أرضه عام ١٩٤٨ بالإرهاب الفعلي (دير ياسين وكفر قاسم وغيرها)، والإرهاب الكلامي استجابة لنداء الناعي يقول من مكبرات صوته: سنفعل كذا وكذا ببناتكم ونسائكم، ودب الذعر الجماعي، وتوجه القطيع يركب البحر من حيفا ويافا يردِّدون: العرض ولا الأرض.

إنِّي من جيل كان قدره مواجهة الغزوة الاستيطانية الصهيونية. واجه هذا

الجيل والأجيال التي تعاقبت بعده، بأفراده وقياداته، في فلسطين وفي بلاد العرب، من الخليج إلى المحيط، واجه الجميع وهم من نسيج واحد، صدمات الهزائم العسكرية المتوالية طيلة الأعوام السبعين الماضية من حياتي الواعية.

واجه الجميع قيام إسرائيل بقبول ذليل للأمر الواقع، ومبرراته إرادة قدرية وأحلام مرتدة تاريخياً، والتاريخ وقائع لا رجعة فيها، لا تتكرّر أو تأتي دورية، والإنسان صانع لتاريخه، ولا تزال أجيالنا المتعاقبة تنتظر المعجزات من إرادة غائبة. لم تبدِّل النكبات من مواقفنا السلبية، فقد كان قيام إسرائيل حجة رئيسية لتواجد أنظمة واستمرارها في إخضاع الشعوب وسلب حرياتها. وبدأنا ولا نزال نتّهم العالم أجمع بالتآمر علينا تبريراً للتخاذل.

لقد انتزع أحفادنا في الأرض المحتلة إرادتهم بعد اليأس من الواقع العربي فتناولوا قضيتهم مع أحجار الطريق، يواجهون ببسالة رصاص الأعداء، وحطّمت المرأة الفلسطينية مع أولادها أسوار الحجر والوصاية من تصرفات أجيال الهزيمة والاستسلام.

قضية التخلُّف ضخمة تاريخية معقدة، وأعترف سلفاً بأني عاجز تماماً وغير مؤهّل أصلاً للتصدّي للإجابة. بالرغم من ذلك فإنّي قانع بأن إثارتي للموضوع في طرح التساؤل، هي شكل من البوح والتخفيف من عذاب الضمير. ذلك أنّي ألاحظ منذ فترة مديدة تجنب وهروب الكتّاب والباحثين العرب، وتهيبهم من طرح الموضوع الشائك للمناقشة المكشوفة.

تدور أحاديث وندوات ومقالات كتّاب الصحف والمجلات، وتزخر مطبوعاتنا عامة، بتمجيد وتعظيم كل ما يتصل بالعرب والعروبة ماضياً وحاضراً، تثير حماسة وغرور القارئين والمستمعين والمتحدِّثين. لا يقترب أو يشير أي من هؤلاء جميعاً إلى عيوب أو أخطاء في السلوك القديم أو الحديث. وهكذا اكتمل تشويه التاريخ العربي الذي كُتب أصلاً بدعم وتمويل من الحكّام.

وكذلك يرفض الجميع الكشف عن مثالب وتجاوزات وظلم المستبدِّين

من الحكام من الخلفاء والسلاطين، أو محاولة تحليل النفس العربية التي احتملت الظلم والظلام قروناً مديدة. بل تعمد وسائل الإعلام المختلفة إلى تركيز حملاتها على الامبريالية والصهيونية، وغيرها من الأعداء المعروفين من الأشرار المتآمرين، وأمّا نحن فماذا فعلنا غير الكلام لتبديل واقعنا المنهار غير التضرُّع والأنين المكبوت، والاستماع لأكاذيب البطولات والإصرار على تبرئة الذات وقد تتجاوز المعقول، كما حدث بعد الهزائم الكبرى؟ نصرخ علناً بأننا انتصرنا، بدليل أن العدو لم يحقّق أغراضه وأهدافه كاملة. وهكذا يتم طمس الحقائق والوقائع ونبقى راضين مستبشرين.

عمدت إسرائيل رغم نجاح اكتساحها للبنان عام ١٩٨٢ إلى تأليف لجنة من الخبراء المدنيين والعسكريين، يقوّمون ويتّهمون ويستخلصون العبر من اجتياحهم الظافر عسكرياً. ونكتفي نحن بتسمية هزائمنا الكبرى بالنكسة وسوء الحظ والنصر أحياناً أخرى، ونطلق على المطرودين من أبنائنا موجات متلاحقة، تسميات اللاجئين، المهجّرين، النازحين، وبعدهم المرشحين. فإلى أين ومتى ولماذا وكيف؟!

إنّي مدرك بأن هذا التصدّي يثير مشكلات دقيقة، كما أني أشعر بالشك فيما أطرح، إضافة إلى كل هذه الشكوك فإنّ النتائج التي يمكن أن أنتهي إليها لا تبشّر براحة وجدانية، ولا تؤسّس لمشاعر الطمأنينة والدعة المطلوبة في سن الثمانين، بقدر ما تبشّر بالمزيد من القلق واليأس، وتثير المزيد من التساؤل والبحث، وذلك ما أستهدفه من إثارة كل ذلك.

الخلاصة أنّي بصدق وصراحة أطرح أفكاراً في هذه الصفحات لا ترقى إلى أكثر من مرتبة المزاعم، وأنتهي إلى القول إن العلة في تكوين العقل العربي بمعناه الفلسفي هو الانطواء على الذات والهروب من الواقع بتأثير فلسفة الزهد والتصوُّف.

وأسمح لنفسي بعد ذلك باستعراض خطوط عامة للتصوُّف الذي باعد بين العقل العربي ووقائع الحياة اليومية، واكتمل بعد ذلك بخنق العقل بشيوع أجواء فكر الخرافة والشعوذة.

يقول ابن خلدون في مقدمته: لم يكن في فجر الإسلام روح صوفية، كان المؤمنون جميعاً صوفيين وفاعلين. الإسلام خضوع للخالق وعمل، والصوفية في الأصل احتجاج وثورة ضد الفساد وحياة الفساد، لا الانفصال عن العالم الفاسد.

يقول زكي نجيب محمود (في كتابه تجديد الفكر العربي): إنَّ التشويه والتحريف قد بلغ أبعاداً رهيبة في الفكر والسلوك العربي مع بدء الانحطاط. وأخطر حلقات التحريف والشطط العلاقة بين الأرض والسماء، بين المخلوق والخالق، بين الواقع والمثال، بين الدنيا والآخرة، بين المنقول والمعقول.

في ظل ثقافة كهذه تبتر الروابط بين الأسباب ومسبباتها، بين الوسائل والغايات. ولصاحب السلطان أن يريد وعلى الناس أن يطيعوا، والحق دائماً مع مالك القوة والسلطة. تمرّد الإنسان في أوروبا الغربية على واقعه في القرن السادس عشر، تمرّد على القيم التي سادت خلال القرون الوسطى.

والإيمان الديني في جوهره رفض لفكرة الموت كنهاية وفناء، وبالعكس بعث الأمل بالخلود في النعيم المقيم.

تدور فلسفة عصر النهضة حول محور مناقض لذلك فالحياة هي الوجود الإنساني الدنيوي، والإنسان كائن يتمتع بحرية مطلقة، وهو سيد مصيره، وخالق كيانه بما يختاره لنفسه.

يلاحظ في التطور التاريخي للفكر الإنساني تشابهات ملحوظة بين تجارب الصوفية الإسلامية وتجارب القدّيسين المسيحيين رغم ما بين هؤلاء وهؤلاء من فواصل زمانية ومكانية.

التصوُّف في الواقع فكر وسلوك مرتبطان بالعلاقات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية السائدة في ظرف تاريخي معين. ويؤكّد ذلك عالمية ظاهرة التصوُّف المسيحي والهندي والإسلامي، نتيجة تشابه وتماثل الظروف والمناخات، في كل من هذه المجتمعات وفي فترات تاريخية متباعدة أو متزامنة أحياناً أخرى.

بدأت حركة التصوف في الإسلام وجودها الجنيني مع بدء حركة الزهد، خلال القرن الهجري الأول (السابع الميلادي)، وظهرت شخصيات اعتزلت مجالات النشاط الاجتماعي والسياسي لتتفرغ للعبادة.

وكذلك كانت الصوفية نتيجة التزام بموقف أخلاقي هو التزام أسلوب العيش اليومي البسيط المتواضع، متأثرة بالنشأة الأولى للإسلام والمسلمين.

ثم اتخذ الزهد والنسك منحى يعبِّر عن السخط وإنكار السلطة القائمة، فكان الاعتكاف والزهد ظاهرة سياسية سلبية.

تطور التصوف لموقف فكري يتضمن معارضة ذات وجهين: ديني (التأويل)، وسياسي (استنكار الظلم الاجتماعي والاستبداد).

كان من نتيجة التزام سلوك الزاهد غياب الرؤية الاجتماعية وما يجري في الدار والشارع والجوار، واستغراق في التعايش مع الطقوس.

لقد انهزم التيار العقلاني خلال القرن الثاني الهجري، واشتدَّ التيار الصوفي المناهض للتفكير العقلي. لقد تمَّ نتيجة سيطرة فلسفة النقل على العقل والهروب من المواجهة، في أجواء استحالة الحوار واحتمال الرأي المخالف.

■ الأجواء الاجتماعية الاقتصادية لازدهار التصوُّف

كان خلفاء الله في أرضه فئة حاكمة تقوم على رأس طبقة اجتماعية مسيطرة اقتصادياً وسياسياً، كما نشهد حتى الآن صوراً لهم في عدد من الممالك العربية القائمة. كانت للحكّام بحكم ازدواج وظائفهم حياتان متناقضتان عامة وخاصة، شخصية ظاهرة هي الإمام الروحي التقيّ القيِّم على الدين والشريعة، وشخصية مستورة هي شخصية الملك الثريّ الذي يندفع مستمتعاً بما يتوفر لديه من الخيرات المادية الوفيرة.

وقد اتخذوا لأنفسهم حجّاباً يفصلون بينهم وبين الجماهير. والحجّاب بطانتان، خارجية من الفقهاء ورجال الدين المنتفعين، وبطانة داخلية من الندماء والجواري والمهرّجين، فضلاً عن البطانة السياسية المرتبطة بهم في تعاطي شؤون الحكم.

كانت الروابط بين مركز الخلافة، وأرجاء الأقاليم المتباعدة الممتدة من السند في شبه القارة الهندية إلى شمالي اسبانيا، مفقودة تقريباً بسبب البُعد وعدم توفُّر المواصلات.

ولكل حاكم محلي حاشيته وحجابه وجباياته، يرسل إلى الخليفة في العاصمة النائية ما يفيض مما جمعه من الضرائب والأتاوات.

يتمتّع حكام الدولة في الأقاليم باستقلالية واسعة الحدود، وخاصة إذا كانوا من المقرّبين أو الأقرباء، وتسمح لهم استقلالية قراراتهم بالتصرف بالرعية والثروة والضرائب والرشاوى للاحتفاظ بالمناصب.

واتخذ الخلفاء والحكام لأنفسهم صفة تمثيل الإسلام لفرض سلطتهم المطلقة باسم الإرادة الإلهية، يحكمون البشر بحتمية جبرية مستمدة من قضاء الله وقدره المحتوم. واستخدم التأويل الذي تعتمده الصوفية منذ القرن الثاني الهجري للتعامل مع النصوص المقدسة في القرآن والسنة. وموضوع الظاهر والباطن متفق عليه بين الفقهاء، حيث تقول الآية ﴿وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم﴾. وكانت سيطرة الفقهاء والأئمة كاملة على الفكر الإسلامي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر ميلادي)، وانعكس كل ذلك على الفكر السائد في حالة من اليأس المشحون بالشقاء المادي لعامة الناس. وبدلاً من أن يؤدّي ذلك إلى تفجُّر ثورات شعبية ترفض الظلم، اتجهت نحو ثورة سلبية عدمية.

إنَّ فكرة الخلاص بمفهومها المسيحي ثم الصوفي هي أصداء لأشواق الجماهير المسحوقة للخلاص من الظلم برفض هذا العالم واللجوء إلى العالم الآخر السماوي، بالتأمل وقهر النفس والخضوع.

إنَّ حركة التصوف من منطلقاتها محاولة للانتفاضة والتمرُّد على الأيديولوجية الرسمية اللاهوتية، والتي فشل الفكر العقلاني أن يزحزحها عن مراكز السلطة، ولكنها ثورة وانتفاضة ولدت ميتة لأنها ثورة هروب من التصدِّي، واحتيال على بؤس الواقع، والوقوع في أحلام الغيبوبة والهلوسة.

انتشرت الصوفية بين الفقراء المعدمين، وكان الفقر سبب تصوفهم. ويحدثنا التاريخ عن انتشار التصوف بين جماهير العامة من سكان المدن والحرفيين والباعة والمتجولين والعاطلين عن العمل.

كانت الصوفية في البدء حركة فكرية فلسفية، ثم تحوّلت سلوكياً إلى نظم وتقاليد وطقوس شكلية، وتعدَّدت مشيخاتها وأولياؤها، وأفرغت نهائياً من أي مضمون أيديولوجي، وأصبحت حركة رجعية طفيلية لعبت دوراً خطيراً في عملية تخدير وضياع جماهير الشعب، وفي خدمة الطبقات الحاكمة وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

كان للفرق الصوفية دويلاتها الخاصة، ومواكب المتصوفة في الشارع، وحلقاتهم في الزوايا والتكايا والمساجد، وتغلغل نفوذ الطرق الصوفية في المدن والقرى وقصور الحكّام ايضاً، واستحوذت على عقول العامة والخاصة ايضاً يستخدمونها في تدعيم مراكزهم وامتيازاتهم.

العزلة في الصوامع والتكايا، والانقطاع للعبادة وترداد كلام رتيب فترة طويلة من الزمن، يخلق حالة نفسية غير سويّة قد تبلغ حد الهذيان والهلوسة.

ينظر علماء النفس إلى شطحات المتصوفة وممارساتهم من خلال دراسة علمية تجريبية فقد تمَّ عزل أفراد متطوعين من الأصحاء في أجواء العزلة الكاملة عن العالم الخارجي، في كهوف على أعماق تتراوح بين ٢٠ ـ ٤٠ متراً، والظلام شامل مع آلات تسجيل للصوت يصفون فيها مشاعرهم ورؤاهم خلال أيام العزلة التامة.

بدأت الهلوسة في المشاعر بعد مرور يومين أو ثلاثة من حساب أيامنا على السطح، ثم تراءت لهم أشباح وأنوار ساطعة وخافتة، وسمعوا أصواتاً مألوفة أحياناً وخرافية أحياناً أخرى. واشتد الهذيان واختل التوازن كاملاً بعد مرور فترة بلغت ١٠ ـ ٢٠ يوماً.

شعور الإنسان بوجود الآخرين، حتى ولو لم يتصل معهم مباشرة، حاجة فيزيولوجية نفسانية ضرورية لاستمرار التوازن السلوكي. والإنسان كما

يوصف حيوان اجتماعي لا بدَّ من أن يضطرب توازنه إذا تاه وانعزل مع نفسه. وكل خلل أو حرمان من ظروف الحياة والعمل والنشاط العادي، من الأمن والغذاء والجنس، هي ظروف قد تؤدِّي إلى ظواهر غير طبيعية. ويعمد المتصوفة إلى العزلة الجسدية والنفسية ليبدأ عندهم التجلِّي وتنكشف البصيرة.

■ التهويم والتخريف

ارتبطت الخرافة منذ القديم بالمعتقدات الدينية لدى مختلف الشعوب في محاولة لتفسير ظواهر الكون، والإنسان عاجز عن معرفة أسبابها وطبيعتها.

يتقبَّل الإنسان في فترات الأزمات التي يتعطل فيها التفكير الهادىء، أي خرافة غير معقولة، ويصبح أكثر استعداداً لتصديقها.

وكذلك تتقبل الطبقات المسحوقة التي تعيش حالة الشدة المستمرة الحلول والآمال الخرافية لمواجهة الواقع، وتستغرق في الأوهام والأحلام التي تحمل في ثناياها الثروة والجاه والصحة والسعادة.

تسيطر الذهنية الخرافية على الفرد والجماعة في تفسير الأحداث وتعليلها، وينتهي كل ذلك ليصبح نمط الفكر الخرافي السائد عند الجميع.

وقد عمَّقت الخلافات والصراعات، وساهم الضعف الحربي والتخلُّف الفكري ومحاولة الدفاع بالهروب من الذات بإغلاق أية نافذة على العالم. كان من نتيجة هذه المسيرة التاريخية الطويلة من عهود الانحطاط، آثار واضحة في استقرار مركب نقص جماعي في المجتمع العربي، حيث ساد شعور كامل بالعجز والعقم، وأصبح مفهوم الإنسان العربي عن نفسه، ومجتمعه الذي ينتسب إليه، مفهوماً لا يتفق، بل يتناقض في معظم الأحيان مع الواقع والحقائق الملموسة بشكل خاص. وكان الايمان بالرفعة والتميُّز والأفضلية هو التعويض عن الشعور بالدونية، ودعمت أمجاد التاريخ العربي الإسلامي اتجاهاً يبرر مشاعر العزة والرضا عن الذات.

والخلاصة أنه رغم واقع البؤس والمهانة لا يزال الإنسان العربي يحتفظ بشعوره بالرضا عن الذات والتميّز عن الآخرين، وأن فلسفته وسلوكه الحياتي شيئان لا مثيل لهما في العالم.

حاولت الصين الشعبية في الثورة الثقافية عام ١٩٦٦ الخلاص أو التخفُّف من أثقال تاريخ الصين القديمة الذي يعيق انطلاقها وهي تسعى لاستعجال دخول نادي المتطوّرين. وسلك العرب طريقاً ناكصة مناقضة لذلك وهم يواجهون نكسات وإحباطات حادة عسكرية واقتصادية اجتماعية. فإذا بنا نشهد في جميع أقطار العروبة اشتداد التعلُّق والعودة للفكر السلفي في محاولة يائسة لاستعادة أمجاد الماضي المشرق. حدث ذلك خاصة بين الجامعيين، نتيجة لارتباط تعويضي أكثر وثوقاً، وذاكرة أعمق جذوراً. وقد كان باب الارتداد الشعاع والمخرج الوحيد للهروب من بؤس الواقع الحاضر.

يرفضون القائلون بالعودة والارتداد للقيم والأساليب الحياتية قبل خمسة عشر قرناً، يرفضون تماماً النقاش في استحالة نجاح ذلك.

تقول فقرة في مقال نُشر في جريدة (الشعب) القاهرية بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٧٨، ما يلي: لا يحلّ لنا أن نعرض الشريعة ليؤخذ عليها رأي البشر بالموافقة أو عدمها. إن شريعة الله نزلت لتطبّق، ومَنْ يرفضها أو يعتقد أنها غير صالحة لهذا الزمان وكل زمان فهو مرتدّ إن كان مسلماً، وإن لم يعلن التوبة يقام عليه حد الردة!!

لقد شمل التحريف والتهويم الفكر الصوفي الثوري في أصله، ليجعل منه طقوساً تستهدف التخفيف من ضغط الشدة المستديمة. حدث ذلك منذ قرون، وكان عنواناً لعصور الانحطاط.

يؤكّد المشاركون في حلقات الذكر، المستغرقون المنفصلون عن العالم المادي الوجودي، يؤكّدون شعورهم بخفة أجسامهم، وانطلاق أقدامهم من الأرض، لتصبح معلقة في الهواء. يغمضون عيونهم لتتفتح قلوبهم فلا يرون إلاّ السماء، وبالذكر يتم الانفصال عن الحياة الدنيا ويتحقق الوصال.

يقول أحد أئمتهم: إذا لم تكن مؤمناً بتعاليمنا ولم تكن واحسرتاه مصدقاً أسيادنا، وإذا داخل قلبك الارتياب، وتسرّب إلى وجدانك الشك، فإنك لن ترى سوى أبدان راقصة وأفواه مزبدة، ولن ترى سوى عيون جاحظة، ودفوف وبخور ولن تبصر ما يبصره مريدونا. وسوف تضل وراء سراب العقل القاصر، وسوف ترانا كما يرانا الكافر، ولن تكون إذ ذاك منا.

وقد كشفت هزائم ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ أن هناك وحشاً ظرفياً متربصاً في الذهن العربي على استعداد للانطلاق، ففي أعماق الضمير الفردي والجماعي للإنسان العربي إيمان تاريخي ثابت بالكائنات الخفية، وبالأولياء وأصحاب الكرامات، وتتجسّد أمامه في الأضرحة والمسيرات والسحر والشعوذة وتحضير الأرواح والطالع.

يتهافت مراجعو دور الكتب يشترون حتى الآن أو يستعيرون كتب السحر والجن والعفاريت، ويفضلون الكتب المخطوطة على المطبوعة لأنها أكثر بركة وصلة بالحقيقة بطلاسمها ورموزها وأرقامها!!.

يعيش البعبع والغول والجان والعفاريت والشياطين جميعاً في عالمنا الباطني في عالم سفلي يتربص بالأحياء. ويخلق كل ذلك في مخيلة الطفل صورة مشوّهة مقلوبة عن العالم، يرى فيها نفسه وحيداً ضعيفاً متردّداً لا يثق بالآخرين بل يخافهم، ويخاف على نفسه منهم، وقد يكون الشيطان قد تلبّسهم.

وكل ما لا يرضى الإنسان عنه منسوب إلى إبليس. ويتمتع الشيطان في الفكر الشائع بقدرات خارقة مخرّبة للنفوس وقادرة على تحريك الإنسان في الاتجاه الذي يريده.

وهكذا أصبح الانسان دمية يحركها ويعبث بها المقدّر والشيطان والنصيب.

وتعطينا قصة ظهور مريم العذراء فوق كنيسة الزيتون في القاهرة في أيار ١٩٦٨، صورة حية عن استعداد كامل لتقبل الخرافة ومعجزات الأولياء والقديسين.

فقد نقلت (الأهرام) بياناً للبابا كيرلوس السادس يعلن ظهور العذراء. ونشرت (الأهرام) على صدر صفحاتها الأولى صورة لطيفها في الفيوم، واجتاحت مصر حمى دينية، ونشط أساتذة جامعات وكتّاب من مختلف المستويات لإثبات ظهور العذراء، وأن ذلك لا يخالف أو يتناقض مع العلم.

يؤكّد كل ذلك كيف أن العلم لا يزال قشرة هشة تتساقط بيسر إذا تعرضت للاهتزاز: كذلك انتشرت جلسات تحضير الأرواح في العقود الأخيرة وفي جلسات تضم أرفع مستويات رجال الفكر والسلطة معاً.

لجأ الفريق محمد فوزي وزير الحربية المصري عام ١٩٧٣ إلى الوسطاء الروحانيين من أجل اتخاذ قرارات عسكرية. كان الفريق العسكري، خريج الجامعات العالمية، يكرّر في خطاباته بمناسبة أو دونها بأن العلم والتكنولوجيا هما قوة إسرائيل الحقيقية.

يسأل الفريق فوزي الوسيط بينه وبين الأرواح الهائمة (كما نُشر في الأهرام ٤/٦/١٩٦٨) والوسيط أستاذ جامعي أيضاً، يقول فوزي في سؤاله: هل توقيت المعركة القائم في ذهني مناسب؟ فيجيب الوسيط: مناسب جداً؟!

وأعود لأؤكّد مرة ثانية بأن الإسلام قد ندّد ورفض السحر والشعوذة، وكان العرب في أوج اندفاعهم وانتصاراتهم؛ ولم تتوفّر الأجواء الملائمة لاعتماد السحر والشعوذة والتدجيل إلاّ في عصور الانحطاط والركود الذهني تحت وطأة الضعف والفقر وقهر السلطة الحاكمة. فارتد الإنسان واخترع وآمن بخيالاته المريضة وخرافاته، ينتظر حلول المعجزات لمشاكله القائمة.

وينعكس هذا الفكر والسلوك على النشاط اليومي لجميع الناس في تمجيد القناعة والرضا وكبح الطموح وإجهاضه. وتتردّد كلمات في أحاديثنا وفي الأمثال والحِكم، تكبّل المندفعين الراغبين في تبديل أوضاعهم المعاشية، مثل كلمات النصيب والقسمة والحظ والمكتوب. ومعناها الحقيقي القناعة والاكتفاء ولو بالنصيب القليل، وكأن المقسوم حصة محدّدة سلفاً، وسوف تصل هابطة إن عملت أو استغرقت في أحلامك.

ومن أخطر ظواهر بلبلة الفكر وشتات الرأي بعد الهزائم والنكبات تباعد

نابذ بين رفض كامل للتراث يكبِّل الحركة نحو المستقبل الأفضل، وبين قائلين بإعادة أمجاد الماضي بالعودة إلى فكر الجذور قبل ألف وأربعمئة عام. لا يختلف البشر على الماضي إلاّ نتيجة اختلافهم على المستقبل، فهم لا يتصارعون ويختلفون في تقويم الماضي لأسباب أخلاقية خالصة، تتعلق بالوفاء تجاه أمواتهم، ليوفّروا لهم راحة نفسية في عالم الأبدية. إنّهم يتصادمون ويختلفون على تركة الماضي وميراثه وأثره، لتوظيف كل ذلك في تحديد آفاق مستقبلهم في الواقع المادي القائم. يعيش الفكر العربي الحاضر والمستقبل، بقياسه ومقارنته مع الماضي، بأمجاده وفردوسه المفقود، ودون أي اعتبار للتطوُّر واختلاف الأزمنة والأمكنة والظروف. بل أصبح الحاضر والمستقبل رمزين للانحطاط والانحلال والضيق والتبرُّم والرفض. ويزداد كل ذلك طرداً مع تقدم الزمن، ومعنى ذلك أن الانسان يزداد نقصاً كلما ابتعد زمنياً عن الأصل.

الحكّام والمتسلطون وأصحاب الثروة والجاه والنفوذ هم أنصار طبيعيون لإبقاء الفكر السائد، أو الانتكاس إلى فكر عهود الظلام، يتمتع في ظلها أصحاب السلطة على أشكالها المختلفة بما هو حق إلهي وأبدي. وإبقاء جماهير الشعب في ظلام الجهالة وسيادة الفكر السلفي ضمان لاستمرار ولائهم ورضاهم ببؤسهم.

وما علاقة الدين بكل ذلك؟

إنَّ الدين يكيّف الحضارة، كما أنه يتكيّف بحسب الحضارة التي تحمله، فالدين يحاول أن يغيّر الإنسان، وقد فعل الدين الإسلامي ذلك في صدره، فأخضع المؤمنون المقاتلون في سبيل عقيدتهم رقعة جغرافية واسعة من العالم القديم، وأنهى أنظمة حكم فارس وبيزنطة. فلما توقّف الفتح وبدأ انحسار الحضارة الإسلامية، كما ينتهي أو يتراجع المد ويعقبه الجزر، وفي جميع الحضارات البشرية، فإنَّ الإنسان الذي غيَّره الدين بدا وقد انتهى اندفاعه، يغيّر بدوره في الدين، والدليل على ذلك تعدُّد الفرق الدينية وفي جميع الأديان من دون استثناء. وكان التصوف أعمق التيارات الانهزامية في

الإسلام أثراً في تعميق الانحطاط والتخلّف.

إنّي موقن بأن الصورة القائمة الحالكة السواد لواقعنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وانهيار المفاهيم والآمال التي عوّلنا عليها بعد الاستقلال والنهوض العربي، وأن الظروف البائسة وآفاق المستقبل المسدود تقريباً، كافية على ما أعتقد لنقف بجرأة نسائل النفس: لماذا؟ وإلى أين؟ وكيف السبيل؟

يستحق كل سؤال منها لبحوث ومراجعة وكشف صريح في ندوات ومؤتمرات تؤسِّس لفكر جديد متوثب مؤمن بمستقبل الوجود العربي على أرض العروبة.

تفجّرت مع البترول نوازع جامحة لما يسمّى بالمظهر الحضاري، في البناء والبذخ وفي الولائم والأثاث والاحتفالات. وأصبح الطريق الأقصر للمشاركة في نصيب ولو متواضع من فتات موائد المترفين في بلاد النفط. أو عند الذين هبطت النعمة عليهم بالوساطة والاستجداء والابتزاز.. أصبح هذا الطريق القصير نحو قصور الحكّام وبطانتهم أفضل سبيل للعيش الرغيد، وتسلُّق السلم الاجتماعي. وبعد أن كانت دمشق وبغداد والقاهرة وبيروت مراكز إشعاع فكري قومي عربي في النشر والبحث والتوجيه، انطفأت هذه المراكز الثقافية التاريخية، وانتقلت الأقلام وأصحاب الفكر، مشرّدين في ربوع باريس ولندن، أو يستمدون أسباب البقاء من آبار البترول المتفجرة، تموّل وتوجه وترضى وتغضب.

لا خلاص من النفق المظلم المسدود إلاّ بتنشئة أجيال جديدة.

النتيجة المنطقية لجميع ما أسلفت أن الإنسان نتاج تربيته وبيئته، وأن بالإمكان صياغة الطفل نفسياً وعقلياً وسلوكياً إذا توفّر له المناخ الملائم لتحرير إرادته وتعميق إيمانه بإمكانية تجاوز الظلم والظلام.

أزعم في جملة المزاعم التي سردتها، ويقيني الشخصي كامل فيما أقول، أن هذا الجيل الجديد الذي أريد ان أبشّر به وأدعو إليه نقيض لتربية وتعليم وبيئة جيلي وجيل أجدادي معاً. بناء الجيل الجديد إجراءات متكاملة

تربوية، وعلاقات جديدة متطورة في البيت والمدرسة والعمل.

التصدّي لبناء الجيل الجديد عملية ثورية حقيقية، لا بدّ من أن يُخطّط لها انطلاقاً من واقعية علمية صادقة، فالأم المسحوقة في دارها، المهددة بالطلاق وتعدُّد الزوجات، يستحيل أن تربّي إلاّ نوعية ذليلة من الأطفال الذكور والإناث على السواء من الخانعين المقموعين الذين ينعمون بالذل، يمارسه بحكم العادة والأمثولة والتقليد الأقربون أو الأعداء على السواء.

فالحوار والإقناع والزمالة والديمقراطية السياسية والاجتماعية، هي نتاج تربية صحيحة، وليست أبداً عطاءات من الحكّام مهما كانت مشاعرهم كريمة إنسانية.

ملحق

بعض ما قيل حول الكتاب والمؤلف:

«إن اختلاف القرّاء في تقييم هذه المذكرات وحتى عنوانها أمر طبيعي وصحي، يلبّي أحد الأهداف التي توخاها الفقيد وجسدّها في سلوكه، وهو احترام الرأي الآخر».

«لقد ظهر للجميع أن وراء رداء الدكتور الناصع البياض ووقار الأستاذ وأناقة البرجوازي إنساناً متواضعاً واسع الثقافة ذا عقل مفتوح وإحساس وطني واجتماعي مرهف، يتقن الإصغاء وينبذ الأفكار المسبقة الصنع والتعصب بأشكاله ويؤمن بالعقل والعلم، وينصت للآخرين وكأنّهم يتكلمون الحقيقة التي يبحث عنها دائماً».

«إن تعارفنا وعلاقاتنا بدأت لأسباب سياسية، ونمت وتدعمت بسبب مواقف فكرية وسياسية متشابهة، وتحولت إلى صداقة متينة بسبب خلوها من الخلفيات وترفعها عن العنعنات والاقتناع بعدم جدوى العمل الفردي في السياسة».

أحمد عبد الكريم (وزير وسفير سابق)

«ما يشق على النفس ألا نقف وقفة المتأمل هذه إلاّ حين نفقد واحداً من أحبائنا وعلماً من أعلامنا فندرك آنئذ عظم المصاب وجسامة ما فقدناه».

د. محمد اياد الشطي (أستاذ جامعي ووزير للصحة)

«لقد حاول بشير العظمة أن يتعامل مع الرئيس عبد الناصر منطلقاً من

قاعدة صديقك من صدقك لا من صدَّقك هذه القاعدة الذهبية الهامة في العلاقات بين الأصدقاء ولكنها تصبح أكثر اهمية في التعامل مع القادة والزعماء لأنها تساعدهم على تجنب الخطل والزلل وتساعدهم على رؤية السلبيات والنواقص في المجتمع».

د. نبيه رشيدات (قائد سياسي ـ الحزبين الشيوعي الأردني والسوري)

«ما قصَّه علينا في قصته الذاتية لا حباً بالنقد وغراماً بنشر العيوب بل لأنه كان يحلم بمجتمع ناهض تحكمه العقلانية ويسود فيه الحوار وتدعمه الحداثة والديمقراطية الحقيقية. مجتمع حرية الإنسان وسيادة القانون وتحكم العلم وتقديس الحق وعدل السلطان».

د. برهان العابد (استاذ جامعي وباحث في التاريخ)

«لن أرثيك وقد عشت حياتك عريضة عميقة وبقناعاتك كما أحببت أن تعيش. لن أمتدحك وقد علَّمتني بأن في تواضع القوي رفعة، لن أستطيع بثك عواطفي وأنت الذي علَّمتني أن في كثرتها ابتذال وأن الحب هو التعامل والمواقف الملموسة كذلك لن أطيل وأنت الذي ما أحببت من الكلام إلاّ ما قلَّ ودل».

ريمة كردعلي (زوجة المؤلف)

«يؤسفني القول بأن الدكتور عظمة لم يُخلق لأن يكون رجل دولة وسياسة، وقد سيس عندما أسندت إليه رئاسة الوزارة وعندما كُلِّف بالحكم وبإدارة شؤون البلاد في عهد كان يحتاج إلى رجل أكثر خبرة منه وقدرة. فضلاً عن كونه حاقداً على كل شيء، حاقداً على والديه، حاقداً على مجتمعه، حاقداً على أقربائه، حاقداً على كل مَنْ تعامل معه وتعرَّف عليه، والحاقد قلما يأتي خيراً أو يقول خيراً بحق الآخرين، لأن الحقد لا عقل له ولا ضمير. ومن يستنكر مني هذه الأقوال فإنِّي أحيله على مذكراته وخاصة ما سجله على والديه ومواطنيه».

مطيع السمان (عميد متقاعد/ الأمن الداخلي)

«كتاب جيل الهزيمة هو شهادة حية من سياسي غير محترف ومثقف عربي تكنوقراطي عن عصرنا وتقلباته. دفعته التطورات إلى موائد السياسيين وأحابيلهم فعاش التجربة معاناة وألماً. غير ان دقة التصوير لهذا التراكم الاجتماعي ولتلك المعاناة تجسدت أبرز ما يكون في فصول الكتاب الأولى أي سنوات الطفولة والشباب، حيث بلغ الوصف حدّه الابداعي، فسار بهذا النهج على خطى الأدب العالمي والوصف التعبيري الرومانسي ممزوجاً بالواقعية البسيطة المنفتحة على كل ما هو جديد وتغييري.

الكتاب بهذا المعنى أدبي أكثر مما هو سياسي ولو أدرك المؤلف هذه الحقيقة لكان أعطى خلال تقاعده للمكتبة العربية أدباً سياسياً نحن في أمس الحاجة إلى نماذجه في زمن تضاءلت فيه نكهة السياسة إلى حدود الندرة.

نهاد حشيشو (كاتب لبناني) ـ مجلة الناقد

«شخصية هذه المذكرات تعبر عن حلم انساني صاغته الفلسفة الروائية لدوستويفسكي الحالم مع شخصياته في اللحظة البشرية التي يغادر فيها الانسان هذا العالم وقد أعطى كل ما لديه. على مستوى الجسم والروح، ولم يبق منه سوى هيكله العظمي.

وقد كانت الإشكالية المستعصية في لحمة الدراما الدوستويفسكية، تلك القسوة التي ترغم الانسان ان يمضي الى ما بعد العالم الدنيوي، وهو يحمل معه كل أحلامه وآماله وطموحاته لتدفن معه. ولعل ذلك سر السخط والمرارة التي تعبر عنها شيخوخة د. العظمة الذي يداهمه غروب الشيخوخة، وهو في عز ظهيرة الأحلام والآمال، ان لم يكن في فجرها الغسقي المترع بندى تفتح الحياة.

فالآمال بسيادة الوطن والإنسان والحرية والعدل والكرامة وقيم العقل والتقدم والديمقراطية وحقوق الإنسان، لا تزال تمثل شهقة الميلاد في صدر أمة لا تجيد إلاّ صنع الهزائم والنكبات. ولهذا فالجميع يذهبون إلى مثواهم الأخير لتدفن معهم هذه الأحلام غضة طرية لم تعرف سبيلاً إلى الواقع إلاّ سبيل إجهاضها وتدميرها وسحقها.

مذكرات د. العظمة تنطوي على حسن سوسيولوجي متميز بالتاريخ. والتاريخ الذي يكتبه هو تاريخ معاش يحضر عبر الذاكرة لكنها الذاكرة المصقولة القادرة على نسيان الغث والزبد والاحتفاظ بما هو قمين بالحفظ، أي ما ينفع النفس والمجتمع. هذا ان كان الناس والمجتمع يرجون نفعاً من النوع الذي تختزنه هذه الذاكرة الجسورة».

د. عبد الرزاق عيد (كاتب سوري) ـ مجلة الحرية

«قال بأنّه مصادفة. انتسب إلى كلية الطب ثم أصبح طبيباً شهيراً. ثم انه مصادفة أصبح وزيراً مركزياً في عهد الوحدة. ثمّ مصادفة صار رئيساً للوزراء.

قرأت هذا الكلام في مذكرات رجل كبير صدرت حديثاً. ورغم هذه المصادفات فقد كان طبيباً ناجحاً ومتفوقاً وكان استاذاً عالماً. ثم كان وزيراً يستوعب معنى المسؤولية ويرغب في تحملها والقيام بأعبائها. ثم أخيراً كان رئيساً للوزراء. توخّى النزاهة والاستقامة والحياد.. يكفيه من النجاح أن أحداً لم يشك منه».

زهير الشلق (كاتب سوري)

«جيل الهزيمة (منشورات رياض نجيب الريس) آية في فن كتابة المذكرات وفتح جديد في الأسلوب وفي كشف القناع عن الذات وعن الآخرين».

«ويواصل الدكتور السياسي بالرغم منه والساخر الجاد من كل شيء وصف (مغامراته) في مرسيليا وباريس يوم أوفد لفرنسا في العام ١٩٣٤ لدراسة الطب معترفاً بحالات الفقر والخجل اللذين ميّزا شبابه بصراحة تعادل وتفوق في بعض الأحيان صراحة (اندريه جيد) (وجان جينيه) الفرنسيين الشهيرين».

ابراهيم سلامة (كاتب لبناني) ـ جريدة الديار

«ان هذه الجسارة والجرأة والصراحة التي تشبه حد الشفرة والصدق الذي له طعم حامض مرة، ومر مرة ثانية، وقلما يكون حلواً سائغاً في

الأغلب، سمات تميّز بها الأسلوب الذي وضع به هذا الرجل السياسي العظيم، كدت أقول: الداهية، كتابه، على الرغم من أنه يتهرب، كما هو الحال، في أكثر صفحات الكتاب من وسمه بأنه سياسي.

«ان مؤلف «جيل الهزيمة» يصل الى الموضوعي من الذاتي.. وهذا أهم ما ينبغي أن يميّز كتب المذكرات».

نصر الدين البحرة (كاتب وأديب سوري) ـ مجلة إلى الأمام

«الواقع أن مذكرات بشير العظمة المطبوعة في كانون الثاني ١٩٩١ والتي اختار لها عنواناً (جيل الهزيمة) بين الوحدة والانفصال، ذات قيمة تاريخية تساعد على فهم أحد الأسباب الجوهرية لفشل المشروع النهضوي العربي في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين فالعظمة كما كتب (ص ٢٣٩) عن نفسه «يمثل عينة عشوائية لشريحة واسعة من أبناء النصف الأول من القرن الحالي. وقد واجه هذا الجيل من دون استعداد تحديات مصيرية...»

لقد كان العظمة جريئاً وشجاعاً في كشف بعض سلبيات مجتمع المدينة (القرية) مجتمع ما قبل تغلغل العلاقات الرأسمالية تغلغلاً عميق الجذور في أوصال المجتمع. وهذا الموقف النقدي الجريء دفع البعض لمهاجمة المذكرات بحجة أنها نشرت غسيلنا الوسخ، كما وصف البعض الآخر المذكرات بأنّها بالغت في تصوير السلبيات».

د. عبدالله حنا (مؤرخ سوري) / كتاب المثقفون في السياسة والمجتمع

فهرس الاعلام

أ

ب

ز

س

ش

ص

ع

غ

ن

هـ



تصميم: ريمة العظمة

الحقيقي الذي وهب نفسه للحقيقة!

الإنسان الكبير يكتشف مدى جديداً مع كل خطوة إلى أمام، وتأتي البصيرة النفاذة، لتعطي لهذا المدى ألقاً باهراً، ينير الكون من حول هذا الإنسان، وينعكس في ذاته، فتشع روحه الشفافة، المقترنة بالبساطة والدماثة، اشعاعاً آخر، فيه دفء المودات، وفيه ما هو أكبر: حب الوطن، الأمة، الشعب، البشرية، وفيه ما هو أغنى: الارتفاع على الشدائد، وما هو أنبل: صفاء النفس في الأخوة الانسانية، والمشاركة الوجدانية، في أبهى صورها، مع الجميع، والبسطاء من هؤلاء خصوصاً.

الأستاذ الدكتور بشير العظمة، كان على مثل هذه الأخلاق، في نبالة القلب الذي يخفق مع أبعد قلب يتألم في هذا الوجود. وهذه الصفة، في رفعة شأنها، كانت فطرية ومكتسبة في آن، فهو، رحمه الله، كان مع الصدق أبداً، وكل ما نفعله بصدق هو أخلاقي بامتياز، وكان مع التقدُّم، رجلاً وطبيباً وسياسياً، لإدراكه، عن سعة معرفة، ان التقدُّم، عبر النضال، يفضي إلى أسمى غاية: العدالة الاجتماعية، حلم البريَّة هذا، الأكثر نبلاً وثورية، ولم يكن، في نشدان هذه العدالة، في القَعَدَةْ، بل في العاملين الدؤوبين، من خلال الموقف، والكلمة، والطبابة، والمنصب، وبتلقائية عز نظيرها.

ولم يكن بشير العظمة النطاسي، المعرفي، الوحدوي، الوزير، رئيس للوزراء، إلاّ متمرداً على، مساحة عمره الطويل، كارهاً، بعمق، للخنوع، للتدجين، للزلفى، وكل المتفرعات عن صغائر كهذه، لأنه، في أنفته والاباء، رفض أن يكون في غير ما يجب أن يكون، وظلّ ثابتاً في حيث يجب أن يثبت، على المبدأ الذي لا انزياح عنه، دون رهب أو تردد، ودون اصغاء إلاّ لصوت الضمير، ودون اكتراث بأي ترهيب أوترغيب.

قلْ آل العظمة تقلْ عراقة الشام، لكنه، هو، لم يأبه لعراقة الأسرة، أو كريم المحتد، فكتب عن نفسه، عن نشأته، عن سيرته، كتابة الانسان المنصف لنفسه، للآخرين، وقد كان هذا نابضاً في حروفه من دفة كتابه هذا إلى دفته، دون لأنه كان معنياً بالجوهر الأصيل، لا القشرة الزائفة، وكان يؤرِّخ لمراحل التي تنطبق على حياته لا سواها، وعلى تاريخه الاجتماعي لا سواه الجرأة، هذه الصدقيَّة، هذا القول الصريح الذي لا يقوله غيره، اعتمد ا لهم، ولأجيالهم المقبلة، كذاكرة تتضوأ بسطوع الشمس، لا غبش الأفول

لماذا لا تؤاتي الكلمات احياناً، حين نتطلبها للتعبير عمَّا ينبغي التعبي الذي لا جواب له، وكذلك هي الحال مع الأفذاذ من الرجال، ومع ا للحقيقة، ومع الذين أعطوا وأعطوا، دون منَّة منهم أو حساب!

حنا مينه